خالد المؤذن
خُرافَة
النَاجي
الثَالث
رواية

خرافة الناجي الثالث

تأليف

خالد المؤذن

مجرة الناجي الثالث

اسم الكتاب: خرافة الناجي الثالث

التصنيف: رواية

اسم المؤلف: خالد المؤذن

تصميم الغلاف: أحمد فرج

تنسيق: خالد المؤذن

الطبعة الأولى: يوليو ٢٠٢٣

جميع الحقوق محفوظة © للمؤلف، يحظر طبع أو تصوير هذا الكتاب بأي وسيلة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل دون موافقة كتابية من المؤلف.

الحكمُ ليس شعاراتٍ رنّانةً، ولا تعليقًا لصورك بشتّى الأمصار..

وليس انتعالًا للعبيد و المنافقين حولك أنصار..

فالحكمُ لا يعدو عن خدمتك لرعيّـــــتك..

حينها..

قد ملكتَ قلوبَ الأحرار..

الإمام (ابن مُهاب) - الأرض السابعة - مملكة (بارانية)

مقدمة

يقف على أطلال مملكةٍ عُرفت في زمانها بأول وأعظم ممالك الأراضين السبعة، تبدّد اسمها وسط آلافٍ من الأعوام، بينما توارى بظلال جدرانها، يحتمي من شمسٍ فضية اللون، يكاد ضوؤُها يهمد ويتلاشى بين براثن سماءٍ معتمةٍ، اندثرت نجومها مخلّفةً وراءها الفيض العارم من الذكريات، أوقدت نار حميمه لماضٍ لا ينفك يطارده!

برزت من العدم دوابٌّ... حجمها بحجم كفّ اليد، تتسعّر نارًا سوداء، أبدلتها الشمس أعلاها بنارٍ فضية اللون.

أدرك حينها أن عليه إبدال ضحيّتها بقرينتها، لذلك صدح بصوتٍ كصوت النسر يتلو تعويذةً بلُغةٍ قد ولّى زمانها!

وما هي إلّا لحظات... حتى برزت بوابةٌ أدنى إلى صفحة ماءٍ دائرية الهيئة، لتعبرها وبلا تردّدٍ أفواجٌ من تلك الدوابّ المشتعلة بنارٍ فضية اللون، ولا غاية لها سوى فرد من (بني آدم)، يُقيم بالأرض السادسة، بأرض العرب، وتحديدًا لدى قبيلة (بني عُذرة).

الفصل الأول:

فتى (بنو عُذرة)

أسفل نخلةٍ شامخةٍ... يُخيَّل للناظر إليها أن سعوفها تكاد تلامس غيوم السماء! إذ استلقى متّكئًا على جذعها فتى، استهلّ طريقه نحو عقده الثالث من العمر، غطّت ذقنه لحيةٌ خفيفةٌ، أرسل نظره نحو سماءٍ اكتظت بالغيوم، وضمّت بين جنباتها شمسًا بالكاد تلامسه أشعّتها.

"الهدوء... لا أجد ما يعدل الهدوء!" قالها في نفسه بعينين منصبتين بالمشهد أعلاه، وحوله الإبل تسرح في الكلأ بسكينةٍ وأناةٍ، بدت وكأنها تخشى تعكير صفو ذهن صاحبها متعلّق البصر بالسماء!

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ، حتى اعتراها التوتّر، وهذا ما بدا واضحًا جليًّا للفتى، فيعتدل واقفًا ملتقطًا عصاه؛ تحسّبًا لأيّ هجومٍ من الذئاب على إبله.

غطّت الأفقَ سحابةٌ من الغبار، وما إن انقشعت، حتى برز من بين ثناياها ثلاثةٌ من الفرسان ممتطين جيادٍ هزيلةٍ ضعيفةٍ، فارسان في المقدّمة، تكسوهما

مجرة الناجي الثالث

حلتين فاخرتين، قد بالغا في تزيينها، خاصةً الفارس الأصغر سنًّا، وثالث انزوى في الخلف، يحتلّ قسمات وجهه الحرجُ.

وقد بدا للراعي وكأن هذا الفرد الثالث لا يعدو عن كونه أجيرًا لدى الفارسيْن، في حين سعى إلى مواراة تبرّمه لمقدِم القوم، فلم يحبّذ تعكيرَ صفو ذهنه متطفّلين!

إلّا أنه _وبعد أن تفرس في وجوههم_ أنس لهم، فلم يظهر عليهم أنهم لصوصٌ أو قطّاع طرقٍ، وقال أكبرهم سنًّا، والذي بدا وكأنه قائدهم:

- عمت صباحًا... أخ العرب.

ردّ عليه التحية، قبل أن يسألهم بنبرةٍ شابها الفضول:

- ألكم حاجة فأقضيها؟

- إننا من قبيلة (طيء)، وكنّا في طريقنا إلى قبيلة (جذام)؛ لحاجةٍ لنا.

وبمجرّد أن تفوّه بعبارته، حتى أخفض الشابّ _حسن الثياب جواره_ رأسَه حياءً، وهمّ أن يستأنف الفارس حديثه، لولا أن قاطعه الراعي قائلًا:

- ثم ضللتم الطريق، وهاجمكم قطّاع الطرق، واستولوا على متاعكم ودوابّكم، وتفضّلوا عليكم بهذه الخيل الهزيلة كبديلٍ! وأقبلتم إلى هذا الموضع؛ بغية الضيافة، ومَن يرشدكم السبيل!

حدّقت به ستّ أعين متسعة! قبل أن يردّ الفارس بإعجابٍ خالطه التعجُّب:

- كأنك مخاوٍ للجنّ يا فتى! فأنّى لك الإحاطة علمًا بما جرى لنا؟!

أجابه الفتى ببداهةٍ ودون أيّ تكلّفٍ:

- بسبب الفتى المنزوي خلفكما حرجًا، فلا يبدو عليه أثر النعمة مثلكما، ممّا يعني أنه أجيرٌ لديكما، وفيما يبدو لي أن عمله هو هدايتكم الطريق، غير أنه

أضلّكم السبيل، ولهذا يعتريه الحرج، وإن عدم وجود متاعٍ بحوزتكم في سفر كهذا، ينمّ عن هجوم قطّاع الطرق عليكم، كما أنهم الذين أهدوكم هذه الجياد الهزيلة؛ بدلًا من جيادكم.

سأله الفارس بإعجابٍ عن سبب سفرهم إلى قبيلة (جذام)، ليُجيبه الراعي قائلًا:

- ما سفركم إليها إلّا لزواج أخيك الأصغر من إحدى فتيات القبيلة، وذلك واضحٌ جليٌّ؛ بسبب حسن ثيابه وحيائه.

- أصبتَ القول وربّ الكعبة! غير أنه ليس أخي، وإنما هو ابن أخي، تكفّلتُ برعايته بعد وفاة أبيه.

قالها الفارس _والإعجاب يحتل قسمات وجهه_ قبل أن يستطرد متسائلًا، وعيناه تتفحّصان الراعي خمريّ لون الوجه:

- مَن الفتى؟

أجابه الراعي بنبرةٍ فخورة:

- أُدعى (خرافة)... (خرافة العذري).

سأله بمرحٍ كمَن لا ينتظر جوابًا:

- مِنْ (بني عذرة)؟

التفت إلى ابن أخيه قائلًا:

- إنها قبيلةٌ تشتهر بالغزل العفيف.

ثم قال موجِّهًا دفّة حديثه ناحية (خرافة):

- أنشِدْنا بعضًا من شعرك.

أجابه، وقد لاحت عليه أمارات التبرّم:

جزيرة الناجي الثالث

- ما أنا بشاعر.

عاد حاجِبا الفارس إلى الارتفاع، قبل أن يسأله مجدّدًا:

- إذًا... بعضًا ممّا تحفظ من أشعار قومك.

ردّ بالتبرّم ذاته:

- ولا أحفظ الشعر!

سأله الفارس متهكّمًا:

- إذًا... ماذا تُجيد يا فتى؟! أعني... غير الفراسة!

لم يجبه، وإنما لوّح بيده ناحية الإبل، ليدرك الفارس بداهةً أنه يُجيد الرعي، في حين قال الفتى:

- لا بدّ وأنكم في حاجةٍ إلى الشراب؛ بعدما كابدتم من هذه الرحلة الشاقّة.

وبمجرّد أن أنهى حديثه، حتى اتّجه صوب النخلة، وحمل إناءً بجوارها، وبعضَ القِرَب، ثم شقّ طريقه بين الإبل متجاوزًا إيّاها، حتى انتهى به المطاف إلى ناقةٍ هزيلةٍ، ليجلس عند ضرعها، وشرع يحلب لبنها، قبل أن يسأله الفارس بنبرةٍ شابها الفضول:

- أراك قد تغاضيت عن النوق جميعها، وعمدت إلى هذه الناقة الهزيلة، فلِمَ ذاك؟

أجاب (خرافة) متبسماً رابتاً على الناقة الهزيلة:

- أمّا هذه الناقة، فهي ما أملكه، وأما سائر النوق، فهي لقومي، أرعاها لهم نظير أجرٍ.

فكّر الفارس برهةً، قبل أن يسأله:

- ما تقول لو أنني منحتك عباءتي الفاخرة، نظير حلب تلك النوق السمان؟

توقّف (خرافة) عن الحلب، ليعتدل واقفًا، ويقول موليًا لهم ظهره:

- أقول... بئس الصنيع! وبئس المرء أنا إن خنتُ قومي!

سأله الفارس بنبرةٍ شابها الفضول:

- أتحلف باللّات والعزّى؟

أجابه بنبرةٍ شابها الفخر:

- ما عبدتهما قطّ، كي أحلف بهما! إنما أحلف بالله الأحد خالق السماوات والأرض.

غمغم الفارس متأمّلًا له:

- أنت إذًا تدين بالحنيفية، خلتُ أن ملّة إسماعيل قد عفا عنها الزمن، ولم يعد يدين بها أحدٌ!

ثم تابع حديثه رابتاً على كتف (خرافة):

- بوسعك استئناف حلب الناقة، فما أردنا إلّا اختبارك.

عاد إلى حلب الناقة على مضضٍ، فلم يحبّذ فكرة أن يُختبّر! خاصةً في أمرٍ ينكره الدين ومكارم الأخلاق.

في حين شرع الفرسان في عقد خيولهم عند النخلة، قبل أن ينهر الفارس أجيرهما الهادي، ويأمره بمدّ يد العون للراعي، فيُجيبه الهادي في طلبه دون جدالٍ، متّجهًا صوب (خرافة) المنهمك في عمله، وما إن انتبه إليه الأخير، حتى قال له معاتبًا:

- ما كان لك أن تسير بالرجليْن، وأنت تجهل الطريق!

حَكَّ الهادي رأسه حرجًا، قبل أن يقول:

جزيرة الناجي الثالث

- المعذرة! فقد أجبرني أبي على هذا العمل، ولستُ له محبًّا، ولا لديَّ درايةٌ كافيةٌ به.

ثم علم منه أنه يُدعى (سرمدي)، وقد بدا له وكأنه اسمٌ مختلقٌ! في حين سأله الهادي عن معنى اسم (خرافة)، ليُجيبه أنه اسمٌ سمعه أبوه بمنامه، وحينما رواه لكاهن القبيلة، أنبأه أنه اسمٌ سيظهر ويشتهر بين الناس لمئاتٍ من السنين، ليمط (سرمدي) شفتيه؛ فقد بدا غير مصدّقٍ.

وبعد برهةٍ من الوقت... امتلأت ثلاث قِرَبٍ من اللبن، ليناولها إلى الهادي، والذي بدوره ناول اثنين منها إلى الفارسين، واحتفظ لنفسه بالثالثة، فشربوا منها بنهمٍ حتى بدا لـ (خرافة) أن العطش كاد يهلكهم.

وما إن فرغوا من شربهم، حتى شكروا الراعي، والذي تقدمهم متوجهًا بهم صوب قبيلة (بني عذرة).

ولم يمضِ الكثير من الوقت، حتى لاحت قبيلته في الأفق، بدت للفارسين وأجيرهما كأيّة قبيلةٍ، وقد تناثرت بها خيامٌ ومبانٍ طينيةٌ متباعدةٌ غير منتظمة الصفوف، بينما كانت بالنسبة لـ (خرافة) جنّة الله في الأرض.

***

في ذات الوقت... داخل قبيلة (بني عذرة)... بينما عكف شابٌّ على تلقيح النخل، إذ سمع غلامًا يناديه قائلًا:

- سيد (عبد الله)، إن السيدة أم (خرافة) تطلبك.

نزل عن النخلة على وجه السرعة، قبل أن يوجّه دفّة حديثه إلى المنادي قائلًا، وقد حرص على قرص أذنه برفقٍ:

- سبق منّي أن نبّهتك على ألّا تناديني بلفظة "سيد"! أتودّ أن أقتلع أذنك؟! كي لا تنسى!

ضحك الغلام، قبل أن يربت (عبد الله) على رأسه، ومن ثم سار بصحبته صوب دار أم (خرافة)، وأثناء طريقه إذ كان يمازح أحد العبيد، ويضاحك الآخر، ويوجّه إرشاداته إلى الثالث، حتى سمع مَن يقول متهكّمًا:

- (عبد الناس) يا ابن السوداء! ما نَفْع حريّتك، إن كنتَ ما تزال لا تخالط إلّا العبيد؟!

التفت (عبد الله) إلى صاحب الصوت، وإذ به (سعدون) ابن سيدٍ من سادات (بني عذرة)، ولم يتكبّد عناء الردّ عليه، بل رفع ساقه، ومدّ يده نحو نعله؛ يخلعها، حتى هتف (سعدون) مستنكرًا:

- ويحك! أترفع نعلك في وجهي يا ابن السوداء؟

أجابه (عبد الله) ببساطةٍ، ضاربًا بيده على باطن نعله:

- إنما أنفض ترابًا علق بنعلي! لعلّه كان وجهًا لأحد أجدادك! فاللون متماثلٌ!

اشرأبّ وجه (سعدون) حمرةَ غضب وهتف حانقًا، والشرر يكاد يتطاير من عينيه:

- الويل لك! مَن تخال نفسك كي تسبّ أسيادك يا ابن السوداء؟! وربّ الكعبة إنني لقاتلك!

وبرز عبيده من خلفه مستلّين سيوفهم، في حين أحاط بـ (عبد الله) جمعٌ من العبيد بعصيّهم، ليقول (سعدون) بنبرةٍ متهكّمةٍ، وترتسم على وجهه ابتسامةٌ غضباء:

- عِشنا ورأينا العبد الأسود يكتري العبيد لحمايته!

ردّ (عبد الله) بالنبرة بالتهكّمية ذاتها:

- الفرق بيننا يا ابن التراب هو أنني صديقٌ يفزع له أصدقاؤه، وما أنت إلّا جبان يتوارى خلف عبيده!

استشاط (سعدون) غضبًا، وأمر عبيده قائلًا:

- اقتلوهم جميعًا، لا تذروا منهم أحدًا.

وما إن أنهى عبارته، حتى فُتح باب إحدى الديار، تبرز منه امرأةٌ مسنّةٌ قائلةً بنبرةٍ متجهّمةٍ:

- الله الله! أصيرتم ساحةَ داري ساحةً للقتال؟!

شحبت الوجوه! خاصةً وجه (سعدون)، وهو يراها تدنو منه، قبل أن تقرص أذنه بشدّةٍ، قائلةً:

- لا تزالُ كعهدي بك، لم يكبر فيك سوى جسدك! أمّا عقلك فهو عقل صبيان!

قال متوجّعًا:

- يا أم (خرافة)، قد أسأتِ الظنّ، إنما كنّا نلهو.

زادت من قرص أذنه قائلةً:

- أتُسمّي هذا لهوًا؟ والآن... غادِرْ، وإن أبصرتك تتعرّض لـ (عبد الله) مجدّدًا، لأشكونك إلى أبيك!

رفع يده؛ ليُعيد عبيدُه سيوفَهم إلى الأغماد، فتدع أم (خرافة) أذنه؛ كي يرحل.

ولم ينسَ أن يلقيَ نظرةً غاضبةً إلى (عبد الله)، وكأن عينيه تنطقان بـ: "قد نجوت منّي الآن يا ابن السوداء".

وبمجرّد أن غاب عن الأنظار، قالت المرأة بنبرةٍ معاتبةٍ موجّه حديثها ناحية (عبد الله):

- ما كان لك أن تشتم أجداده.

سعى إلى تبرير موقفه، قبل أن تُقاطعه؛ فإن آخر ما ترنو إليه هو أن تُحيط علماً بالبادئ منهما في إهانة الآخر!

كما أنه ليس المعنيّ بمضايقات (سعدون)، وإنما هو ناقمٌ على ابنها (خرافة).

وعلى سيرة ابنها... فقد أنبأت (عبد الله) أن يبلغه بالمرور عليها حالما تقع عيناه عليه، قبل أن تأمره بحمل بعض الهدايا إلى دار شقيقتها، ليتبعها نحو دارها دون جدالٍ.

***

داخل حجرةٍ بدار (خرافة)... إذ انهمكت فتاةٌ بحياكة نسيجٍ، منبسطة الأسارير، مرهفة السمع لما يدور خارج الدار من تنافس الفتيان في إلقاء قصائد الغزل، وقد لمعت بثغرها ابتسامةٌ بوجهٍ اشرأبّ حمرةً وسط بياضٍ، قبل أن تلج الحجرة إحدى الموالي قائلةً:

- (غزالة)! إن زوجك قد عاد من الرعي باكرًا اليوم!

شابها القلق! لتسألها بتوجّسٍ عن السبب! فتُطمئنها المرأة عليه، وأحاطتها علمًا بأمر الفرسان الذين وقعت عليهم عيناها وهم بصحبته، لتقول (غزالة) في نفسها وقد غمرتها الطمأنينة: "لعلّهم ضيوفه"، ثم أمرتها أن تحسن ضيافتهم، لتُجيبها في طلبها، وهمَّت في مغادرة الحجرة، لولا أن قالت لها الفتاة، وقد لاحت بثغرها ابتسامةٌ غامضةٌ:

- وأبلغي (خرافة) أن يلقاني بالموضع المعتاد ذاته، حالما يفرغ من ضيافة القوم.

أومأتْ لها برأسها إيجابًا، وباشرت في تنفيذ طلبها على الفور.

***

واصل (خرافة) والفرسان طريقهم، حتى انتهى بهم المطاف إلى داره، والتفّ حولهم الصبية يرمقون الفرسان في فضولٍ، وما إن وقعت عينا (عبد الله) على الفتى والفرسان خلفه حتى دنا منهم قائلًا بلهجةٍ متعجّبةٍ وبعينين تراقبان الفرسان في توجّسٍ حول سبب عودته باكرًا من رعي الإبل، ليقصّ عليه (خرافة) حال الضيوف الثلاثة، وأنهم بحاجةٍ لمَن يرشدهم السبيل إلى قبيلة (جذام).

ثم قال موجّهًا حديثه للفرسان، ملوّحًا بيده تجاه الشابّ القابع أمامهم:

- هذا هو أخي (عبد الله)، إنه يُحسن أمورًا عدّة، ومن بينها معرفة مواضع القبائل.

حدّقوا النظر فيه مندهشين من سواد بشرته، وشعره الأشعث، وملبسه الأغبر، ليسأله الفارس وهو في حيرةٍ من أمره، عمّا إن كان أخوه عبدًا حبشيًّا، ليحتلّ الاستياء قسمات وجه (عبد الله)، ولم يلبث إلّا وأوْلى لهم ظهره.

ولج دار (خرافة)، وترك خلفه أخاه، والذي اعتراه التوتّر، ولم يجد ما يقوله، ثم التفت إلى الفارس معاتبًا له عمّا بدرَ منه من قولٍ، ليردّ الفارس معتذرًا، فقد بدا له وكأنه عبدٌ حبشيٌّ وليس أخًا له، قبل أن يسأله عن سبب هذه الأخوّة بينهما، غير أن الفتى تجاهله، ولم يُجبْه، وإنما قادهم إلى داخل الدار؛ حيث توجد حجرةٌ مُعدَّةٌ للضيافة، وأمر إحدى جواريه أن تعدّ لهم الطعام، وذلك قبل أن يتّجه صوب حجرة أخيه عابس الوجه، ليقول له محاولًا تهدئته:

- إن هيئتك المغبرة قد غرَّت الرجل، وظنّكَ عبدًا، كما أنك تأبى ارتداء العمامة، أما كان لك أن تولي هيئتك عنايةً؟!

أجابه (عبد الله) متجهّمًا:

- مَن تخدع؟! أتخدعني؟ أم تخدع نفسك؟! أتتصوّر أن هيئتي هي السبب؟ أم سواد بشرتي؟! ثم إن العمامة تخصّ العرب، وإن ارتدائي لها ينمّ عن أنني تابعٌ لهم، وأنا لا أتبع إلّا قومي (الأحباش).

ردّ (خرافة) موضّحًا:

- لكنك الآن يا (عبد الله) حرٌّ، ويحقّ لك ما يحقّ للأحرار.

قال بالحنق ذاته:

- حرٌّ!! بعد أن ابتعتني من أمك، وجمعت القوم، وحرّرتني أمام ناظريهم؟! أتتصوّر أن هذا يكفيهم؟! إن لوني هو كالقيد بالنسبة لهم، وسأظلّ عبدًا في نظرهم ما دامت السماوات والأرض!

وأردف متجهّمًا:

- كما أن اسمي ليس (عبد الله)! وإنما هو كما سمّتني أمي (عبد الناس)!

لا يخفى على (خرافة) مدى الألم الذي يكابده أخوه (عبد الله)؛ فمنذ أن وعى الدنيا، وهو لا يعدو عن كونه عبد، وقد فطنت إلى ذلك أم (عبد الله)، والتي ما إن زوّجها أبوه أحدَ عبيده، حتى أدركت حينها أن مَن ستُنجبه، سيغدو عبدًا لسيدها والد (خرافة)، لذلك أطلقت على ولدها اسم (عبد الناس)؛ بغية التهكّم والسخط على مجتمعٍ أفقدته العاداتُ والتقاليدُ بعضًا من إنسانيته، لذلك سأله الفتى:

- أولسنا كلّنا عباد الله؟

أشاح (عبد الله) بيده بغضبٍ، وقال:

- لو كان لإلهك الوهمي وجودٌ، لنصرنا على هذا الضيم، ولما استعبد الناس بعضهم البعض، وأنا أصدّق ما تراه عيناي، فلا يمكن أن يكذب الناس كلهم، ويصدق شخصٌ واحدٌ، ولو كان يزعم أنه أخي منذ صبانا!

- أنَّى ينصرك الله؟! وأنت هكذا خانعٌ! وتصدّق ما يخالف العقل!

لم يجبه، وإنما اعتدل واقفًا من مقعده؛ محاولًا إنهاء هذا الجدل العقيم، وقبل أن يغادر الحجرة، سأله:

- أيأمرني سيدي بأمرٍ آخر؟ غير صحبة القوم إلى وِجهتهم.

أجابه (خرافة) منزعجًا:

- ذاك فقط، لكن سبق أن أنبأتك بعدم مناداتي بلفظ (سيدي).

قال بنبرةٍ شابها البرود:

- كما تشاء... يا (سيدي)!

وصفق الباب خلفه بشدّةٍ، وقد بدت وكأنها صفعة على وجه (خرافة)، ليظل غارقًا بمفرده في حيرته.

***

وأمام دارٍ مجاورةٍ لداره... إذ طرق (خرافة) الباب، قبل أن يسمع صوتًا يأذن له بالدخول، وما إن ولج، حتى وقعت عيناه على امرأةً متّكئةً على نُمرُقةٍ لدى الركن الأيمن من الدار، فقال لها:

- عمت مساءً يا أماه، أبلغوني أنك ترغبين في الحديث إليَّ.

اعتدلت الأم من مقعدها بوهنٍ، وقالت له راجيةً:

- يا بني... إنك تعلم أنني امرأةٌ قد كبرت في السن، وكل يومٍ يمضى، يقتطع يومًا من عمري، ويدنيني إلى أجلي، وكل ما أصبو إليه هو ابنٌ من صلبك، قبل أن يدركني الموت.

- عُدنا إلى هذا الحديث مجدّدًا؟! أما علمتِ أنني راضٍ عن زوجتي (غزالة)، ولا رغبة لي بالزواج بغيرها، ثم ما أدراكِ إن كان العقم منها، وليس منّي؟!

- سبق منّي القول إن العقم يشيع بينهم، فرهط من نسائهم لا يلدن، لذلك أرى أن تتّخذ لنفسك زوجةً ثانيةً.

- هي عندي بالدنيا كلها!

- إنني أخشى أن يغدو اسمُك نعتاً لكل مَن ينقطع نسبه! فيُضرب بك المثل (أبتر مثل خرافة)، ويسمى كل أبتر بـ (خرافيّ)!

قال وقد بدا له وكأن هذا الجدال لن ينتهي أبدًا:

- إنني إن تزوّجت بغيرها، أكون قد ظلمت الزوجة الثانية معي؛ فأنا لا أرى سوى (غزالة)، ولا أسمع صوتًا عدا صوتها، ولا يخفق قلبي لغيرها، فمَن ذي التي ترضى بحياةٍ كهذه؟! حيث وجودها كعدمه! لذلك لا أجد أيّ داعٍ لهذا الحديث، وإنني عازفٌ عن الزواج مجدّدًا.

أحس أنه بدا قاسيًا عليها، فَدنا منها، ثم شرع يقرص ويداعب وجنتيها بيديه، يرفعهما ويخفضهما، ويقول مداعبًا لها:

- ثم... لماذا هذا الحديث الدائم عن الزواج خلال الأيام الماضية؟! هل اشتقتِ له بعد وفاة والدي؟ صدّقيني... إن سادة القبائل يترقّبون إشارةً منك، ويقفون صفًّا أمام عتبة دارك؛ لتختاري أيّهم صاحب الشرف!

لطمت بيدها كلتا يديه وهتفت متصنعة الغضب؛ كي تواري خجلها:

- ولد! عيب!

ثم انحنت تمدّ يدها عند قدميها، ليدرك ما تنويه، فيهرع مسرعًا ناحية باب الدار، فيرتطم حذاؤها بالجدار أمامه، وقبل أن يستوعب الأمر، استقرّ الحذاء الثاني بوجهه! بيد أنه واصل فراره خارج الدار بنجاحٍ وبأضرارٍ طفيفة!

وفي تلك الأثناء... وبينما كان (عبد الله) يقود الفرسان إلى خارج القبيلة، إذ سمع بالجوار (سعدون) وثلاثةً من رفاقه وهم يتساءلون عن سبب صحبته لهؤلاء الفرسان الثلاثة الغرباء عن القبيلة، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن... لعلّهم قد ابتاعوه من سيده (خرافة).

تعالت ضحكاتهم باستمتاعٍ لهذا الرأي! ليهتف (سعدون):

- (عبد الناس) يا خنّاس!

ردّدوا ما هتف به، وانخرطوا ضاحكين، قبل أن يلتفت إليهم (عبد الله)، وعيناه تكادان تشتعلان غضبًا، ليصمتوا، فما إن عاد مُتابعًا سيره، حتى عادوا إلى هتافهم وسخريتهم منه، ليفيض به الكيل، ويترجّل عن إبله، ففرّوا هاربين يكاد الذعر أن يقتلهم، وهرع (عبد الله) خلفهم شاهرًا عصاه، إلى أن تواروا عن الأنظار.

وما إن عاد إلى القوم، حتى امتطى إبله، ليقول الفارس معاتبًا:

- كان الأوْلى بك تجاهلهم، خاصةً وأننا في عجلةٍ من أمرنا.

التفت إليه (عبد الله) بعينين غاضبتين، ليقول له الفارس بلهجةٍ معتذرةٍ:

- لكن... لا يمنع ذلك من أن يقتصّ المرء لنفسه بين الحين والآخر!

واصلوا طريقهم إلى خارج القبيلة، والناس يراقبونهم في فضولٍ، حتى احتجبوا عن أنظارهم.

***

وسط أرضٍ جرداء... إذ افترشت فتاةٌ الحصيرَ، قابعةً بين نمرقتين، تلتفت بين الحين والآخر، تترقّب شخصًا ما، بينما داعب خصلات شعرها الأسود نسيمٌ عليلٌ ينساب بسلاسةٍ، وما هي إلّا سويعات، حتى لاح أمامها في الأفق فتى يشقّ طريقه تجاهها، ليشرق وجهها، ويزداد اشراقاً مع دنو الفتى منها، بدا وكأن الزمن قد توقّف، ولم يتجاوز حدود الصمت سوى نبضاتٍ، تراقصت معها روحين تسبحان بين جنبات غيومٍ أظلّت أرض الهوى، ترويها بعشقٍ سرمديٍّ لا ينضب.

هنالك... وعلى بُعد بضعةٍ من الأذرع... يتواجد حبّ حياته، التي لم ولن يخفق قلبه لسواها، وبمجرّد أن انتهى به السعي إليها، حتى هتفت مبشّرةً بمصيبةٍ حطّمت لحظة الهيام بينهما، وبعثرت حطامها شتّى أرجاء الصحراء:

- (خرافة)، أتدري...؟ قد رأيتك في منامي ميتًا!

جلس بجوارها متّكئًا على نمرقةٍ، قبل أن يقول متهكّمًا:

- أهذا أول ما تبادر به الزوجة زوجها من حديثٍ؟! هذه حالكِ مع الخبر الشؤم، فما كنتِ فاعلة حيال الخبر السار؟!

هتفت محتجّةً:

- بل هو خبرٌ سارّ، إن الموت في المنام تعبيره السفر.

- أتصدّقين هذه المزاعم؟!

- بكل تأكيدٍ... فإن الكاهن أنبأني بأمر نبيٍّ عبرانيٍّ أقام على أرض مصر، ويُعَبِر الرؤى بوحيٍ من الله.

راح يفكّر في صمتٍ، قبل أن يقول:

- لكن ذلك مع نبيٍّ مؤيّدٍ بوحيٍ، وأنّى لنا التيقّن من صدق تعبيرنا للرؤيا؟

- ذاك علمٌ يختصّ به البعض، وهو يحتمل الصدق والخطأ.

ثم انكفأت إليه تسأله:

- على سيرة مصر... أرأيت لو لبثنا فيها لفترةٍ من الزمن؟

اعترته الصدمة! ليردّد عبارة (السفر) بصوتٍ مختنقٍ، فتُجيبه ببساطةٍ:

- أجل... نسافر؛ لنرى العالم.

- وأفارق أرض آبائي وأجدادي؟!

- ليس بفراقٍ، وإنما هي أيامٌ معدوداتٌ، ثم نعود إلى ديارنا.

لم يبد مبتهجًا باقتراحها، ليقول منقبضًا:

- في الأحوال كلها يعدّ فراقًا لأرضي، ولا رغبة لديَّ في ذلك، ثم لماذا لا يفد الناس إلينا؟! فنرى كل ما هو جديدٌ دون أن نبرح أرضنا.

أراحت خدّها على يدها، قبل أن تتساءل بنبرةٍ محبطةٍ:

- وما الذي يغريهم إلى الوفود إلينا يا حسرة؟!

حقًّا، ما الذي يدفعهم إلى المجيء إلى أرضه؟ التفت حوله مفكّرًا، حتى لمع الحلّ بين طيّات رأسه، ليُجيب متحمّسًا:

- الفراغ!

ردّدت ما قاله متسائلةً بنبرةٍ مستنكرةٍ، ليُجيبها بالحماسة ذاتها:

- أجل... الفراغ... إن الأقوام من حولنا لا ينعمون بهذه الأراضي الشاسعة؛ نظرًا لتكدّس أراضيهم بالمباني العمرانية الهائلة، وبالأبراج والأهرامات، فبوسعهم هنا أن يروا أمرًا حديثًا بالنسبة لهم.

تأمّلته لوهلةٍ قبل أن تسأله:

- أتدري ما هو الفراغ الذي سينصبّ عليه اهتمامهم؟

ليسألها بنبرةٍ شابها الفضول، حول ما هيته، فتُجيبه وهي تلكم كتفه برفقٍ:

- فراغ رأسك!

ثم أولت له ظهرها قائلةً بلهجةٍ تريدها أن تبدو متذمّرةً:

- هكذا هو حظي! تزوّجت بفتى يفكّر كالشيوخ، متعلّقٌ بأرض آبائه وأجداده.

ثم... من طرفٍ خفيٍّ من عينها... ألقت عليه نظرةً، لتجده يكابد على مقاومتها، فتعود إلى تذمّرها:

- ماذا لو ضرب باسمك المثل للعازفين عن السفر؟! وأضحى كل مَن تعلّق بأرضه يُدعى (خرافيّ)!

مجدّدًا ترمقه بطرفٍ خفيٍّ، وتجده قد حصّن قلعته من سهامها، إلّا أنها واصلت الرمي بسهامٍ تتسعّر نارًا، قائلةً:

- إن كل ما أرنو إليه هو أن أرى العالم، ألا يعنيك أمر سعادتي؟!

إن حصنه يتهالك! وهو يقاوم بضراوةٍ! ويرجو ألّا تتفوّه بعبارتها السحرية؛ فأيّة عبارةٍ عداها، من المحتمل التغاضي عنها، غير أنها _ولسوء حظه_ قد قالتها:

- خِلْتُكَ تُحِبُّني!

هنا تهدّمت دروع حصنه جميعها! ورفع رايته البيضاء معلنًا هزيمته، ليذعن إلى طلبها مستسلمًا، فتعانقه بشدّةٍ، حتى كاد _من أثر العناق_ يفقد توازنه ويقع على ظهره، وبمجرد أن انتهت من عبارات الشكر والثناء حتى قال على مضضٍ:

- سنعدّ العدّة أوّلًا، ثم...

لتقاطعه بنبرةٍ فخورةٍ، بأنها _بالفعل_ قد أتمّت الاستعدادات مسبقًا! فيقول في نفسه محبطًا "إذًا... فلم تكن موافقتي سوى تحصيلٍ حاصلٍ!"

ثم سألها؛ لمحاولة تغيير دفّة الحديث:

- حدّثيني عن الرؤيا التي رأيتها.

- رأيتك داخل تابوتٍ مفتوحٍ، ويحملنك سبعةٌ من نسوة الجنّ، واتّجهنَ بك صوب جنّةٍ كثيفة الأشجار.

- وكيف أدركتِ كونهن من الجنّ؟

- لأن أقدامهن بدت كقوائم الماشية.

فكّر متأمّلًا لوهلةٍ... ثم تابع كلامه بنبرةٍ جادّةٍ:

- فيما يتعلق بأولئك النسوة...

التفتت إليه تسأله باهتمامٍ عن أمرهن، ليسألها وهو لا يكاد يسعه منع نفسه من الضحك:

- أهنّ جميلاتٌ؟

أجابته متذمّرةً:

- هكذا هو ديدنكم! معشر الرجال! لا يشغل بالكم إلّا النساء، ولا يملأ أعينكم الزائغة إلّا التراب.

جذبت النمرقة التي يتّكئ عليها، ففقد توازنه، ووقع على ظهره، وقبل أن يستوعب ما يحدث، وجدها قد غطّت وجهه؛ لتخنقه بالنمرقة، فجاهد نفسه؛ كي يستنشق الهواء، قبل أن يسمعها تهتف:

- أتتوقُ أن أقتلك؟

هنا سكنت نفسه، وامتنع عن المجاهدة، ليعتريها القلق، فترفع النمرقة، لتجده يحدّق النظر بها قائلًا بجديّةٍ:

- وكيف تقتلين شخصًا سبق أن قتله حبُّكِ؟!

ردّت بهيامٍ زائفٍ:

- يا للروعة!

ثم عادت إلى خنقه بالنمرقة قائلةً:

- بوسعك قول ذلك لحبيباتك الجنّيّات؛ فهن أشدّ حاجةٍ لكلامك المعسول هذا!

وما هو إلّا القليل من الزمن، حتى نحت بالنمرقة جانبًا، وقالت بصوتٍ اكتسى رعبًا:

- (خرافة)... ألقِ نظرةً هناك!

نهض من موضعه، ورمى ببصره حيث تشير بيدها، ليرى _أعجب ما رأته عيناه_ دوابًّا مضيئةً، هيئتها أدنى لكرةٍ بحجم كفّ اليد، كأنها نارٌ متوهّجةٌ باللون الفضيّ، تتصل بها ثمانية قوائم نحيلة، كانت لها وِجهةٌ واحدةٌ، وهذه الوِجهة هي حيث يتواجد كلٌّ من (خرافة) و(غزالة).

***

الفصل الثاني:

أساطير الأوّلين

أفواجٌ من دوابٍّ عجيبة الهيئة... اتّجهت صوب الفتى وزوجته، وبدا وكأنها تحمل ببن ثناياها شرًّا لهما، ليلتقط (خرافة) عصاه، وبيده الأخرى أمسك يد زوجته، وشرعا يركضان ناحية قبيلتهما، قبل أن يفاجئهما فوجٌ آخر منها يعترض طريقهما، ليحوّلا وِجهتهما إلى ناحيةٍ أخرى، ولكن تكرّر الأمر، وكادت الدوابّ عجيبة الهيئة أن تحيط بهما، لولا أن لقي جدارًا لبناءٍ قد تهدّم معظمه، ليتعزّزا به، فجذب (خرافة) زوجته برفقٍ خلفه حتى التصق ظهرها بالجدار، في حين سألته بيدٍ مرتجفةٍ عن حقيقة هذه الدوابّ العجيبة، فيُجيبها ألّا علم له بها، ثم تابع قائلًا بقسوةٍ وكانت عيناه لا تحيدان عن تلك الدوابّ:

- لن يمسّك أحدٌ بسوءٍ، طالما أنا على وجه هذه الأرض.

اتّسعت عيناها دهشةً، ولسببٍ ما اقتحمت أذنيها هذه المقولة من قبل، ولمعت داخل عقلها ذكرى صبيٍّ منع الذئاب من أن تمسها، إلّا أن تلك الذكرى قد تناثر رمادُها وسط سائر الذكريات.

حتى أفاقت إلى الواقع... وازدادت تشبّثًا بكتف زوجها، وعيناها تراقبان الدواب بتوجُّسٍ وهي تدنو منهما، وما إن غدت قاب قوسين منهما، حتى وثبت إحداها نحوهما، ليعاجلها الفتى بضربةٍ من عصاه، وبمجرّد أن لامست الأرض، حتى سحقها بقدمه بكل ما أوتي من قوّةٍ، لينتهي بها الأمر أن سكنت لوهلةٍ، وخَفُتَ ضوؤُها، قبل أن تعود مجدّدًا إلى الحركة، ليعاجلها بضربةٍ قويّةٍ بعصاه، ولكن دون فائدةٍ، فيركلها بعيدًا مدركاً عجزه عن قتلها.

أخذ العرق ينهمر على جبينه، والقلق يكاد يقتله، وعيناه واقعتان على تلك الدوابّ والتي تزداد دنوًّا منهما، ولم يجد حينها إلّا أن يحمل زوجته، ويشقّ طريقه وسطها راكضًا بأقصى ما يستطيع من سرعة، وهو يطأ بعضها بقدميه، في حين تعلق بساقيه بعضها الآخر، ولم يبالِ بها، وواصل ركضه صوب قبيلته عابرًا عشرات الأذرع، حتى اقتحم أذنيه صوتُ (غزالة) وهي تصيح باسمه هلعًا، ليحول نظره إليها، ولكن فات الأوان!

فقد وقعت عيناه على إحدى تلك الدوابّ قابعةً عند رقبتها، وقد أولجت بها شيئًا ما يشبه الإبرة، ليلتقط الكائن بسرعةٍ بيده، ويجذبه منها، ويلقي به بعيدًا قبل أن يختلّ توازنه ويقع أرضًا على كتفه، وبمجرّد أن اعتدل من سقوطه، حتى أراح زوجته على ظهرها، وتفحّصها، وقد بدت ساكنةً لا تتحرّك، فتفقّدها والهلع يكاد يقتله، فوجد أنها لا تزال حيّةً، وإن كانت فاقدةً للوعي فحسب؛ لعلّ ذلك كان بسبب سقوطها على الأرض.

وهنا... تذكّر أمر الدوابّ، ليلتفت نحوها، فيجدها قد ابتعدت عنهما، وإن كان لونها قد تبدّل، وبدت كقطعٍ من نارٍ سوداء اللون، تابعها بنظره، حتى وجدها قد

ولجت فجوةً لم يرها من قبل، وكانت فرصةً سانحةً لهما للفرار، ليحمل زوجته، ويبتعد بها نحو قبيلته.

وبمجرّد أن عاد إلى دارهما، حتى دخل حجرتهما، وأرقدها على فراشهما، وتأمّلها وهي لا تزال ساكنةً، حاولَ إقناع نفسه أنها مجرّد إغماءةٍ، وستفيق منها قريبًا، لذلك ظلّ راقدًا بجوارها؛ يتفقّدها بين الحينة والأخرى، ولفت نظره تشقّقاتٌ بوجهها، بالكاد يسعه رؤيتها، تنبعث منها نارٌ سوداء، ليتمكّن منه القلقُ، ويغادر فورًا الدار، ويعرج إلى كاهن القبيلة؛ لعلّه يحمل بين طيّات عقله حلًّا لهذه المعضلة التي ألمّت به، وعاد بالكاهن إلى حجرة زوجته، وظلّ الكهل يتفحّصها مردّدًا عباراتٍ غير مفهومةٍ، حتى شهق شهقةً انخلع بسببها قلب (خرافة)، ليسأله بنبرةٍ متوجّسةٍ وكأنه لا يرجو سماع إجابةٍ تُفيد أن الأمر خطيرٌ، فيلتفت إليه الكاهن بعينين متّسعتين قائلًا:

- إنها (حمى همود).

ردّد (خرافة) الاسم متسائلًا عن طبيعة هذا المرض، ليشرح الكاهن ويقول إنه داءٌ مجهول السبب، نادر الحدوث، لكنه إن أصاب المرء، فإنه يغيب عن الوعي لسنواتٍ! إلى أن يدركه الموت! يُشاع أن هنالك نارًا تتسعّر بروح المريض شيئًا فشيئًا، حتى يهلك.

كاد قلب الفتى أن يسقط هلعًا، ليسأله بصوتٍ مختنقٍ إن كان له علاجٌ، فيُجيبه الكاهن الإجابة المتوقّعة، وقد ظهر الأسى جليًّا في عينيه:

- كلّا... ليس لهذا العارض أيّ علاجٍ، لكن... اطمئن!

التفت إليه بلهفةٍ، ليُتابع الكاهن:

- إنه موتٌ بطيءٌ! غير أنه ليس مؤلمًا.

كاد أن يرقص طربًا من هول الخبر عديم النفع، أهذا حاله الآن؟ أضحى عاجزًا بالكلية عن إنقاذ أحبّ شخصٍ إلى قلبه!

وقطع تسلسل أفكاره اقتراحُ الكاهن، أن يتوجّب عليهم إعلام القوم بهذه الفاجعة، ليتقلّص وجه (خرافة)؛ وذلك بعدما لمعت داخل ثنايا رأسه صورةُ والد (غزالة)، ورفضه لفكرة زواجهما، وها هو الآن سيثبت له _وبلا أيّ جهدٍ يُذكر_ كم كان محقًّا في عدم رغبته في زواجه من ابنته!

***

ولدى دار زعيم القبيلة... حيث اجتمع ساداتها؛ ليسمعوا من الكاهن و(خرافة) حال (غزالة)، فيهتف والدها قائلًا بنبرةٍ منتصرةٍ:

- هذا ما بدر إلى ذهني منذ أن قَدِمْتَ طالبًا الزواج من ابنتي، فما هو المتوقّع من رعاةِ إبلٍ بلا نفعٍ عدا هذا؟!

ردّ (خرافة) كابحًا جماح غضبه:

- أهذا ما وسعك قوله ومصير ابنتك بات مجهولًا؟!

احتقن وجه والدها، وهَمَّ أن يردّ، إلّا أن زعيم القبيلة بادرهما قائلًا بنبرةٍ صارمةٍ موجَّهةٍ نحو الفتى:

- ليس هكذا يحدّث المرء سادات (بني عذرة)!

ثم قال موجّهًا حديثه ناحية القوم من حوله:

- أشيروا عليَّ أيها الناس، ما نحن فاعلون حيال هذه الفاجعة؟

أعلن الصمت عن وجوده، وعَمَّ أرجاء الدار، فلم يجد أيٌّ من القوم ما يُقال، ليوجّه زعيم القبيلة حديثه ناحية والد (غزالة)، ويقول له بنبرةٍ معاتِبةٍ:

- لا أراك مشغولَ البال حيال ابنتك! ألا يعنيك أمرها؟!

أجابه مشيحًا بوجهه، بأنها لم تعد له بابنةٍ! وتابع قائلًا بنبرةٍ صارمةٍ ملوّحًا بيده ناحية (خرافة):

- ثم أنّى لنا أن نصدّق مزاعم راعي الإبل؟ أَمِنَ المعقول أن جَمْعًا من عناكبَ مضيئةٍ تسبّب لها هذا العارض؟! وأين كان هو حينما هاجمت زوجته؟ وأنّى لي أن أصدّق مزاعمه حول كون تلك الدوابّ قد تجاهلته تمامًا وعمدت إلى زوجته؟!

اتّسعت عينا (خرافة) دهشةً جراء سماعه لما تفوّه به الرجل.

حقًّا! فبالفعل... قد سنحت لتلك الدوابّ أكثر من فرصةٍ لمهاجمته، فلماذا إذًا أصرّت على تجاهله ومهاجمة (غزالة) ثم عادت بعدها إلى أدراجها؟! تمتم قائلاً في نفسه: "أجل.. أدراجها"!

تابع والد زوجته ثرثرته قائلًا:

- من المحتمل أنه أوسعها ضربًا، ثم لم يجد عذرًا سوى...

قاطعه (خرافة) قائلًا بلهفةٍ:

- بوسعي برهنة وجود تلك الدوابّ العجيبة.

التفت إليه القوم بأعين متّسعةٍ! ليُشير لهم بيده؛ كي يلحقوا به، وقادهم حتى الفرجة التي ولجت عبرها تلك الدوابّ، وباشر القوم يتفحّصونها برهبةٍ وريبةٍ، حتى قال الكاهن:

- إنني حديث عهدٍ بها، وإن كنتُ قد سمعت عنها من قبل، وقد سبق أن تمّ ردمها، ويُشاع أنها تؤدي إلى عالم الجنّ.

أحاطت به الأعين؛ من هول الخبر، حتى قال زعيم القبيلة:

- أيّ هراءٍ هذا الذي تفوّهتَ به؟ إن كل ما قيل عن عوالم الجنّ، لا أصل له، وليس سوى أوهامٍ! أو لعلّها أساطير الأوّلين!

قال الكاهن ببساطةٍ:

- لا دخان بلا نار! وإن هذا العارض الذي أَلَمَّ بالفتاة ليس من عالمنا، ولا يوجد له علاجٌ حتى الساعة، أتراها مصادفةً؟

ثم قال وعيناه تجوبان القوم، أي أن على أحدهم وُلوج الفرجة؛ كي يرى ما يقبع بداخلها، لتتحوّل الأنظار جميعها ناحية (خرافة)، والذي تراجع إلى الخلف متسائلًا بوجهٍ مستنكرٍ عن سبب اختياره هو من بين سائر القوم! ليُجيبه زعيم القبيلة:

- لأنك مَن عثر على الفرجة! أَضِفْ إلى ذلك أنك مَن قصّر في حماية زوجته.

اخترقت قلبه العبارة الأخيرة، وبدت حدّتها كحدّة نصل السيف، ليذعن لقرارهم، قبل أن يسألهم إن كان سيصحبه أحدهم ليجيبه زعيم القبيلة بابتسامةٍ مشجّعة أنهم سيتكفّلون بمراقبة الفرجة؛ حرصًا على ألّا تتبعه تلك الدوابّ المزعومة، ليرمقه الفتى بغيظٍ، ويقول في نفسه: "يا لشجاعتهم"!

وقبل أن يتّجه شطر الفرجة، والتي بدت واسعةً بعض الشيء، اقترب من الكهف الذي كان ينحدر إلى الأسفل، لذلك أرخى رأسه قليلًا وهو يلج فرجة الكهف، وتابَعَ هبوطه وسط ظلامٍ يشتدّ عتمةً.

هَمَّ في العودة؛ ليحضر شعلةً، لولا أن لمح ضوءًا خافتًا أزرق اللون ينبعث من أعماق الفرجة، لذلك واصل طريقه هبوطًا تجاه ذلك الضوء، حتى لاح أمامه جليًّا واقعاً بين ناظريه منبعثًا من جسمٍ أُسْطوانِيٌّ أزرق اللون، يتموّج كالماء ويلمع بضيائه الأزرق، ثم دنا منه متوجّسًا خيفةً من مظهره العجيب، وما إن

أضحى بالقرب منه على بعد ذراعٍ، حتى لمسه بيده لمسة حذرة، ليزداد تموّجًا ولمعانًا، وأوشكت يده أن تغوص داخله، ليجذبها بسرعةٍ، وألقى نظرةً قلقةً إليه.

ثم واتته الشجاعة، وأولج ذراعه كاملةً بين براثن الدائرة العجيبة، والدهشة تكاد تُفقده صوابه، فقد ولجت كاملةً بالفعل!

ففكّر في أن يُدخِل سائر جسده؛ ليرى ما بالجانب الآخر، لولا أن شعر بيدٍ تُمسك بذراعه وتجذبها داخل الدائرة، ليسعى جاهدًا في منْع ذلك الشيء من جذبه، وتعلّقت يده الأخرى بطرف الدائرة وهو يمنع نفسه من الولوج داخلها، حتى أفلته ما كان يجذبه، ليفقد توازنه ويسقط أرضًا إلى الوراء.

وما إن اعتدل واقفًا، حتى هرع مسرعًا إلى خارج الفرجة، حيث يترقب عودته قومه، تحيط بهم أمارات التوجّس، حتى وقعت أعينهم على الفتى يغادر الفرجة، والهلع يحتلّ قسمات وجهه، ليسأله القوم عمّا رأى، ليُجيبهم بعينين متّسعتين رعبًا، وبأنفاسٍ متقطّعةٍ، وقد عجزوا أن يفقهوا حرفًا ممّا تفوّه به، ليأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يستحثهم على مرافقته إلى داخل الفرجة.

وعلى مضضٍ... ساروا خلفه، حتى انتهى بهم المطاف نحو ذلك الجسم العجيب، وقد اتّسعت أعينهم انبهارًا به، ولبثوا على هذه الحال لوهلةٍ بدت كالدهر، قبل أن يفيقهم (خرافة) محذّرًا؛ كي لا يدنو أحدٌ منها، حتى لا يجذبهم الشيء ذاته الذي كاد يجبره على ولوج هذه البوابة.

لتتحول أنظارهم إليه جذعاً، قبل أن تعود إلى ذلك الجسم الدائري المريب، وعلى الرغم من تحذيره لهم، إلّا أن الكاهن قد شقّ طريقه نحوه قائلًا:

- لم أسمع بحياتي عن شيءٍ كهذا، ولا أراه إلّا بوابةٍ تؤدّي إلى عالمٍ آخر عن عالمنا.

ساد الصمت بينهم لفترةٍ من الزمن، قبل أن يقطعه زعيم القبيلة سائلًا:

- ماذا نصنع بها؟ أشيروا عليَّ أيها الناس!

أجابه أحدهم أن من الأوْلى العودة، وردم الفرجة؛ فلا أحد يعلم ما قد يخرج منها إن تمّ تركها هكذا، لترتفع أصوات موافقةً لقوله، وبدا أن زعيم القبيلة سيميل إليه، حتى هتف الفتى بالقوم؛ يستوقفهم، ثم وجّه حديثه ناحية الكاهن قائلًا:

- طالما أن سبب العارض قد قدم من هذه البوابة، ماذا إذًا لو كان العلاج من الموضع ذاته؟ أيّ... داخل ذلك العالم الواقع خلفها!

داعب الكاهن لحيته البيضاء مفكّرًا، والقوم من حوله يرجون أن يجيب بالنفي؛ ليريحهم من بوابةٍ أضحت منبعاً للقلق، غير أنه أجاب:

- لعلّ في قولك وجاهةً يا فتى.

وهنا... التفت (خرافة) إلى القوم مقترحًا عليهم أن يصحبه جمعٌ منهم إلى العالم الواقع خلف البوابة؛ فقد يعثرون على ما يداوي عارض زوجته، غير أن اقتراحه لم يلقَ صداً لدى القوم؛ فلا رغبة لهم بالخوض بهذا الحديث، ليتنهّد زعيم القبيلة، ويقول بنبرةٍ منزعجةٍ:

- إنك بذلك تُرغمني على تعريض قومي للموت في سبيل حياة فردٍ من أفراد قبيلتنا.

وأردف قائلًا بصرامةٍ:

- والأدهى من ذلك أنها امرأة!

احتجّ (خرافة) قائلًا:

- وهل هناك فرقٌ بين حياة الرجل والمرأة؟!

أشاح زعيم القبيلة بيده قائلًا:

- لسنا هنا من أجل جدالٍ لا طائل منه.

جالت عينا (خرافة) المتّسعتان بين القوم رفضًا لسلبيّتهم تجاه حياة زوجته، ليقول محبطًا:

- يا قوم... قد منعتُ الذئاب عن دوابّكم، ما ناداني أحدكم طالبًا العون يومًا، إلّا وأجبته، ألا أجد بينكم رجلًا رشيدًا يعاونني في إنقاذ حياة مَن هي أعزّ من نفسي؟!

لكن... لم يوافقه أحدٌ، ليلتفت (خرافة) إلى والد (غزالة)، ويقول له:

- هلا قلت ما يحثّهم على المعاونة؟ أليست هي ابنتك؟!

أجابه بصرامةٍ:

- أأحثّهم على هلاكهم؟! إن الأمر أشبه بالانتحار.

ردّ (خرافة) متسائلاً:

- نتخلّى عن فردٍ من قبيلتنا؟!

ومع تصاعد وتيرة تخاذل قومه، لم يجد إلّا أن يعلن عن قراره في المضي _ولو كان بمفرده_ إلى ذلك العالم القابع خلف هذه البوابة، لولا أن قاطعه صوتٌ من خلفهم يقول:

- إن الراعي محقٌّ يا أبتاه.

فالتفت الكل إلى مصدر الصوت، ليتّضح أنه (فارع) ابن زعيم القبيلة، والذي تابع كلامه قائلًا:

- ما تقول عنَّا سائر القبائل إن وصل إلى مسامعهم كوننا تخلّينا عن فردٍ من أفراد قبيلتنا؟!

احتجّ والده قائلًا:

- كان الأجدر بك لو ظللت تمارس الصيد، بدلًا من العودة مبكّرًا، ثم تأتي وتخالف قرار أبيك!

دنا (فارع) من (خرافة)، وربت على كتفه قائلًا ببساطةٍ:

- إن دورك كزعيمٍ للقبيلة هو الحرص على سلامة أهلها، لا أن تتخلّى عن فردٍ من أفرادها؛ من جراء خطرٍ نجهله.

وأردف متسائلًا:

- ثم أنّى لسائر أفراد القبيلة أن يثقوا بك، وقد تخلّيت عن أحدهم؟!

احتقن وجه الأب عاجزًا عن الردّ، في حين كاد (خرافة) أن يطير فرحًا، ليهتف متحمّسًا قائلًا بنبرةٍ منتصرةٍ:

- إذًا... ستصحبني إلى داخل ذلك العالم؟

هنا التفت إليه (فارع) قائلًا:

- لا أذكر أنني أبديت هذا الرأي.

اعترت الصدمة الفتى! وهمّ أن يسأله، لولا أن بادره (فارع) قائلًا:

- إنما سأعبر البوابة بصحبة رِفاقي الأشدّاء.

همّ أن يحتجّ، لولا أن قاطعه (فارع) بوضوحٍ:

- أحاربت من قبل؟ أسبق أن حملت سلاحًا؟

أجابه بصوتٍ خفيضٍ بالنفي، ليقول ابن زعيم القبيلة ببساطةٍ:

- إذًا... لا حاجة لنا بك، بل إنك ستغدو عقبةً علينا، لذلك يجدر بك أن تمكث هنا، وتترقّب مجيئنا بالعلاج المنشود.

انعقد لسانه، ولم يجد ما يردّ به، وقد كان كلامه وجيهًا، في حين سمع أحد أفراد القبيلة يقول متهكّمًا موجّهًا حديثة إلى (خرافة):

- الرجل يعرض عليك خدمةً، ولا تزال تحتجّ! ثم ما الذي بوسع راعي الإبل أن يفعله حيال عالمٍ نجهله؟!

صدرت أصوات موافقة على قوله، ومالت كفة القوم ناحية اقتراح (فارع)، وشرعوا يشقّون طريقهم إلى خارج الفرجة بسرعةٍ معقولةٍ؛ كي لا يشكّ أحدهم أنهم يفرّون من هذا المكان المشؤوم.

وما إن هَمَّ (فارع) في السير خلفهم، حتى كلّمه أبوه بنبرةٍ حازمةٍ لا تخلو من الشعور بالفخر أنه سيغدو زعيمًا عظيمًا لقبيلة (بني عذرة) في الغد القريب.

أمّا (فارع)، فلم يعقّب، وإنما اتّخذ طريقه متّجهًا نحو الخارج، وكان عقله مشغولًا بمَن سيصحبه ويشاركه مغامرته إلى ذلك العالم المجهول، وبالعتاد الذي سيتمّ حمله معهم.

في حين سار (خرافة) هائمًا في الطرقات، مشغول البال، مهموم الحال، مشتّت الأفكار، وراحت الأسئلة تدور في رأسه... أسيظفر القوم بالعلاج؟ ما هي المخاطر التي سيواجهونها؟ أم أن ذلك العالم مسالمٌ؟ ماذا لو عاد إلى (فارع) وسعى في إقناعه بضرورة اصطحابه معهم؟ كان يعلم أنه لن يطيق صبرًا هنا في حين أن غيره راح يواجه المخاطر بدلًا منه، وبينما هو يجوب الطرقات، إذ سمع مَن يقول ساخرًا:

- أليس هذا رويعي الإبل العاجز عن حماية (غزالة)؟!

التفت إلى مصدر الصوت، ليجده (سعدون) ورفاقه الثلاثة، ولم يكن متأهّبًا لسماع هذا الهراء، ليُجيب أحدهم قائلًا:

- إنها عاقبة اختيارها! فلو أنها اختارت أحدنا، لما جرى لها ما جرى، ولا أتاها هذا العارض العجيب.

وقال ثالثهم:

- والآن... سيعرّض غيره إلى المخاطر، وينزوي داخل داره كالجبناء.

ليقول الرابع:

- سيضرب به المثل في الجبن والخوف، وسيقال: "أجبن من خرافة"، وكل جبان سيُدعى (خرافيّ)، من اليوم سننعته بـ (خوّافة)!

وانفجروا ضاحكين وهم يردّدون اسم (خوّافة)، قبل أن يبتلعوا ألسنتهم ويفرّوا هاربين؛ بعدما رأوه راكضاً تجاههم والغضب يحتل قسمات وجهه شاهرًا عصاه؛ ينوي سحقهم بها.

***

وما إن جنّ الليل، حتى عاد (عبد الله) من رحلته متّجهًا صوب داره، ليُفاجَأ بمَن ينبّئه بما حلّ بـ (غزالة)، فيهرع مسرعًا نحو حجرة (خرافة)، ليجده قابعًا بجوار الفراش، شارد العقل، وبصره بات مثبّتًا نحوه، حيث استلقت زوجته الغائبة عن الوعي، بدا وكأنه مقبلٌ على الموت؛ من فرط الحزن واللوعة، ليربت على كتفه ويقول مواسيًا له بنبرةٍ شابها الاسى:

- قد علمت بالخبر، وإن الصدمة تكاد تفقدني صوابي.

قال (خرافة) بلوعةٍ، وبدا وكأنه سينهار في أيّة لحظةٍ:

- قد خذلتها يا (عبد الله)!

ردّ عليه مواسيًا:

- هوّنْ عليك، ودَعْ عنك حديث الكاهن، من المؤكّد أن لهذا العارض علاجًا، وصدّقني... سأجوب الأرض بحثًا عنه، ولن أبرح حتى آتيك به.

لاح لـ (خرافة) أن أخاه لم يحط بأمر الفجوة علمًا، ليقصّ عليه النبأ، بدءًا من ظهور الكائنات المضيئة، وإلى أن عثروا على تلك البوابة، وما إن انتهى، حتى ضرب (عبد الله) كفّه بقبضته هاتفًا بحماسةٍ:

- إنني واثقٌ من أن العلاج يكمن خلف ذلك الباب، تُرى... ماذا لو عبرناه وبحثنا عن ذلك العلاج؟

حكى له الفتى ما دار داخل الفرجة، وعمّا انتهى به، إلى عبور (فارع) البوابة بصحبة رفاقه، وأنه امتنع عن مرافقته لهم؛ لكونه لا يُجيد القتال، ليثني (عبد الله) على صنيعه، فيلتفت (خرافة) إليه يرمقه بنظرةٍ معاتبةٍ، في حين أصرّ (عبد الله) على حسن صنيع (فارع) في عدم اصطحابه له؛ حيث سيكون حِملًا ثقيلًا على القوم.

لم يعقّب الفتى فيما قاله أخوه؛ لعلمه كم هو محقٌّ فيما تفوّه به، لكن ما الحلّ؟ أيلبث هكذا قابعًا في موضعه لا يحرّك ساكنًا، وزوجته معلّق مصيرها بين الحياة والموت؟!

ولمرّةٍ أخرى... ربت (عبد الله) على كتف أخيه قائلًا:

- لا تدع هذا يهلكك قلقًا، كن مطمئنًّا، فأنا على ثقةٍ أن زوجتك ستُشفى من هذا الداء.

وبمجرد أن قالها، حتى تركه متّجهًا خارج حجرته، آملًا أن يكون محقًّا فيما قاله، إن الكذب على أخيه بدا يسيرًا، لكن كيف بوسعه إقناع نفسه أن الأمر سينتهي على خير؟!

***

وفي اليوم التالي... اجتمع القوم أمام البوابة، يتقدّمهم زعيم القبيلة، يحادث ابنه (فارع) القابع بجوار البوابة بصحبة تسعةٍ من رفاقه الأشدّاء، حتى حضر من الخلف أحد العبيد الذي كان يشقّ طريقه بين الجموع حاملًا بعض الأمتعة، وما إن وقع نظر (فارع) إليها، حتى سأل أباه عن أمرها، ليُجيبه أنها بعض الأطعمة، فلا يعلم المرء إن كان بذلك العالم طعامٌ يصلح لهم، ليبتسم (فارع)، وقد فطن أبوه إلى أمرٍ غفل عنه.

في حين كان (خرافة) يراقب الأمتعة التي يحملها العبد، راجيًا لو كانت بحجم أكبر؛ كي يسعه الاختباء داخلها! في حين وكزه أخوه الواقف بجواره؛ ليلتفت إليه، فيجده ينظر له بنظرةٍ مشجّعةٍ تشير أن الأمر سينتهي على خيرٍ.

سعى في إقناع نفسه أن هذا بالفعل ما سيجري، في حين أشار (فارع) إلى القوم بيده؛ كي يلفت انتباههم له، ليقول لهم بثقةٍ:

- والآن... سننطلق نحو وجهتنا إلى ذلك العالم المجهول، تمنّوا لنا حظًّا سعيدًا.

وتعالت هتافات القوم متمنّين لهم التوفيق، قبل أن يدير ظهره، ويوجّه حديثه إلى رفاقه:

- كما أخبرتكم مسبقًا... سنعبر هذه البوابة؛ كي نعثر على دواءٍ لابنة سيدٍ من سادات (بني عذرة)، ولا أجد أحدًا أثق به كما أثق بكم، فلا تخذلوني.

جزيرة الناجي الثالث

وحينئذٍ... ارتفعت أيادي رفاقه شاهرين سيوفهم ورماحهم، وصاحوا صيحةً بحماسةٍ كادت أن توقف قلوب القوم القابعين أمامهم؛ من شدّة صداها، ثم ولوا وِجهتهم إلى داخل تلك البوابة، لتبتلعهم، حتى آخر فردٍ منهم.

خيّم الصمت للحظاتٍ... وذلك قبل أن يتفرّق القوم، ويعودوا إلى أعمالهم وهم واثقون أن (فارعًا) ورفاقه سيعودون مظفرين، وكاد أن يلحقهم (خرافة)، لولا أن لمحه (عبد الله) مدركاً ما يهدف إليه أخوه، ليجذبه من ذراعه بقسوةٍ، قبل أن يهتف بنبرةٍ صارمةٍ:

- أين تخال نفسك راحلًا؟ إنك تلقي بروحك إلى هلاكها!

حاول (خرافة) أن يفكّ ذراعه من قبضته، قائلًا بنبرةٍ متجهّمةٍ:

- ارسلني!!

- كلّا... ما أنا بتاركك إلى هلاكك!

وأردف قائلًا، وهو يجذبه بشدّةٍ:

- كما أننا نعلم مدى شدّة (فارع) وقوّته، إنه حامي قبيلتنا وشجاعها، أنسيت ما كان يضرب به المثل بين القبائل؛ كونه أشجع من (عنترة)؟

لم يجد (خرافة) إلّا أن ينصاع بعد أن خارت قواه، ليقول له:

- إذًا... اصحبني إلى حيث ذهب القوم، هيّا لنذهب معًا!

احتجّ (عبد الله) قائلًا:

- لن يضيف ذلك شيئًا لهم إلّا الحمل الثقيل عليهم، أما علمت أننا لسنا من أهل الحرب والقتال، ولسنا سوى رعاةٍ للشاة والإبل؟!

هنا... جلس (خرافة) وهو يقول متسائلًا:

- إذًا... ما العمل؟ أأظلّ هكذا مترقّبًا؟!

أجابه أخوه، وهو يجلس إلى جواره:

- هكذا هي الحياة، كلٌّ له دوره فيها، إن الأمر أشبه بحالنا حينما تُغير علينا إحدى القبائل، فيكرّ (فارع) في مقدّمة القوم؛ ليحمي ديارنا، في حين نظلّ نحن نترقّب بقلقٍ نصرَه.

لم يعقب الفتى على قوله... في حين ظلّ (عبد الله) يلاحقه أينما ذهب؛ كي يتيقّن من أنه لن يعبر تلك البوابة، ولم يكن يرهقه في المتابعة؛ فهو جلّ وقته إمّا بجوار زوجته المريضة، وإمّا بجوار البوابة؛ يترقّب وصول القوم.

حتى جنّ الليل... حيث تواجدا بجوار البوابة وهما يغطّان في النوم، وقد حرص (عبد الله) أن يجلب أحد أصدقائه العبيد؛ كي يراقب أخاه أثناء نومهما، وكاد أن يغلب العبد النعاس، لولا أن لفتت نظره البوابة، وقد صدرت منها حركةٌ مريبةٌ، وأضحى لونها الأزرق يتموّج، وقد لمع ضوءٌ بمنتصفها، ليتّجه العبد ناحية (عبد الله)؛ كي يوقظه، والذي بدوره أيقظ (خرافة)، وتعلّقت أبصارهم بالبوابة، ولم يمر وقتٌ طويلٌ، حتى برز منها جسدٌ، وما إن أمْعَنا النظر إليه، حتى أدركا أنه جسد (فارع)، لتتهلّل أساريرهما لوهلةٍ، قبل أن تتحوّل إلى الهلع!

***

جزيرة الناجي الثالث

الفصل الثالث:

السبل كلها تنتهي إلى الهلاك!

أحاط كلٌّ من (خرافة) وأخوه (عبد الله) حول جسد (فارع) المسجيّ أرضًا، بين مزيجٍ من الصدمة والجزع، حيث كان (فارع) أمام ناظريهما فاقد الوعي، وبجسدٍ يعجّ بالجروح، فاقدًا لذراعه اليُمنى! وإن تمّ تضميدها.

هتف (عبد الله) بالعبد؛ كي يأتي بالقوم، في حين شرع مع أخيه في إيقاظ (فارع)، وقد لفت نظرهما شعر رأسه، وكذلك لحيته، قد استطالا عمّا كانا عليه في الصباح، والأمر ذاته مع أظافر يده وقدميه.

وبعد عدّة محاولاتٍ في إيقاظه، أفاق أخيرًا... لينتفض من موضعه كالخائف من الجحيم ملوّحا بيده السليمة ضاربًا بها الهواء، يهتف بهما أن يبتعدا عنه، فسعيا جاهدين إلى تهدئة روعه، ولم يبد عليه أنه تعرَّفهما، بل قد بدا وكأنه فاقدٌ للبصر.

في حين حضر زعيم القبيلة في لهفةٍ، وخلفه القوم، وقد وقعت أعينهم على حال (فارع) وهو يمنع الجميع من الاقتراب منه، على الرغم من شتّى الوسائل

لإقناعه أنهم لا ينوون له شرًّا، وأنه قد عاد إلى قبيلته، حتى هدأ أخيرًا، ليقول زعيم القبيلة موجّهًا حديثه إلى القوم حوله، وهو يقاوم رغبته في البكاء، وقد وقعت عيناه على ما حلّ بابنه:

- خذوه إلى داره، وليظلّ هنا أحدكم؛ يترقّب رفاقه، حتى يظهروا.

هرع جمعٌ منهم إلى حمله، وقد عانوا الأمرّين؛ من شدّة ارتجافه هلعًا، متّجهين به صوب داره، في حين هتف (فارع) بصوتٍ أدنى إلى البكاء:

- ماتوا جلّهم يا أبتاه! قد تمّ قتلهم شرّ قتلةٍ!

تجمّد الدم في عروق القوم؛ من هول الخبر، بينما تساقط بعض أقاربهم ما بين نائحٍ ومغشيٍّ عليه، في حين التفت زعيم القبيلة ناحية (خرافة)، يرميه بنظرةٍ ناريةٍ تكاد تحرقه وتحوّله إلى رمادٍ، قبل أن يولي وجهه شطر دار ابنه.

***

ولم يمر وقتٌ طويلٌ على استلقاء (فارع) بفراشه، تحيط به الجواري؛ يسقينه الماء بأيديهن، بعد عجزه عن حمل الأقداح؛ من فرط ارتجافه، وأصوات النواح والبكاء على المفقودين يتردّد صداها عبر النافذة.

واجتمع القوم من بينهم (خرافة) وزعيم القبيلة الذي سأله بنبرةٍ امتزجت بالأسى واللوعة أن يقصّ عليهم ما مرّ به خلف تلك البوابة، ليشتعل لهيب ذكرى ذلك المكان فتيل الفزع لدى (فارع)، ويعاوده الارتجاف، فيربت عليه الأب؛ محاولًا تهدئة روعه، ليُجيب بعد جهدٍ جهيدٍ:

- ليس هنالك أيّ عالمٍ! أو أي شيءٍ من هذا الهراء! إن هي إلّا غابة! وليست كأيّة غابةٍ، وإنما هي قطعةٌ من جحيم! لا مخرج منها، تعجّ بأشرس الوحوش،

مجرة الناجي الثالث

إن الأسود والذئاب تعد أدنى إلى القطط والفئران مضاهاةً بما شاهدت بعيني حينما كنت مبصرًا.

وبكى في حسرةٍ لبرهةٍ من الزمن، واستطرد قائلاً:

- ولا وجود لذلك الدواء اللعين، ولا لأيّ شيءٍ من هذا القبيل، هذا ما أنبأنا به صيادٌ يُقيم داخل ذلك الجحيم.

ثم صمت لبرهةٍ من الزمن، قبل أن يسأل:

- أفيكم ذلك الراعي؟

تردّد (خرافة) قبل أن يدنو منه مجيبًا:

- أنا هنا يا (فارع).

وبيدٍ مرتجفةٍ... أمسك بتلابيبه قبل أن يجذبه بقسوةٍ، ويقول له بنبرةٍ أدنى إلى الفحيح عبارةً لن ينساها طالما عاش:

- اللعنة عليك وعلى زوجتك سائر الدهر! قد سببتما لنا الخراب.

ثم دفعه بقوّةٍ، ليسقط أرضًا، في حين سمع زعيم القبيلة يقول بلهجةٍ صارمةٍ:

- أرضيتَ الآن بما حلّ بابني؟! كان الأوْلى لو رحلت وحدك.

ثم وجّه حديثه ناحية القوم، بأن عليهم ردم الفرجة تزامنًا مع حلول الفجر؛ فقد علموا يقينًا ألّا وجود لأيّ دواءٍ، فلا دراية لأحد عن مخاطرٍ قد تحيق بهم جراء ترك الفرجة هكذا دون ردم.

***

اعتدل (خرافة) واقفًا، وغادر الدار منزعجًا، ليصطدم بأصوات النواح، ويرى النساء وهن يشققن ثيابهن؛ من فرط الحزن والأسى على فراق أحبّتهم، فاق

المشهد كل احتمال، ليهرع إلى داره، وما إن ولجه، حتى وقعت عيناه على أمه، والتي بادرته قائلةً:

- قد بلغني ما جرى لـ (غزالة)، وما حلّ بالقوم.

لم يرد؛ من شدّة ضيق اعترى صدره، لتسأله:

- ما أنت فاعلٌ حيال ذلك؟

انعقد لسانه، لم يجد ما يُجيب به عن سؤالها، وقد ضاقت به جدران الدار بما يضاهي ضيق صدره، وقد بدا له وكأن هذا الضيق يعصر قلبه، لينزف لوعةً ومرارةً، في حين أشارت أمه بإصبعها نحوه محذّرةً:

- إياك أن ترحل إلى ذلك العالم الموحش الذي يعجّ بالمخاطر! قد رأيت ما صنعوا بابن زعيم القبيلة ورفاقه، كما أن النساء كثر، فلن تقع السماء على الأرض لموت واحدةٍ منهن!

لم يكن يقوى على الاحتجاج؛ من شدّة الكمد والغمّ اللذين احتلّا صدره، قبل أن يشعر بيدٍ تربت على كتفه برفقٍ، ويسمع مَن يقول:

- دعِ الأمر لي يا سيدتي، سأحرص على ألّا يدنو من تلك البوابة مهما جرى، ثم إنه قد بلغني الساعة أن زعيم القبيلة قد أمر بردم الفرجة المؤدّية إلى البوابة في الصباح الباكر.

لم يكن صاحب الصوت سوى (عبد الله)، لتردّ الأم بنبرة شابها الارتياح:

- نِعْمَ الرأي هو، فلا أراها إلّا منبع الجحيم! وألّا نجاة لمَن يعبرها.

ثم اتّجهت صوب الباب؛ لتغادر الدار، فَهَمَّ (عبد الله) بمرافقتها، لولا أن أحالت بينه وبين فعله بإشارةٍ من يدها، وأمرته أن يلزم ابنها، وألّا يسمح له بالتهوّر

وعبور تلك البوابة، ليُجيبها مُطَمْئِنًا لها ألّا تشغل بالها؛ فلن يفارقه حتى يتمّ ردم تلك الفرجة.

وما إن غادرت الدار، حتى قال (عبد الله) لأخيه:

- قد سمعتَ السيدة وتحذيرها، لذا انْسَ أيّة أفكارٍ مجنونةٍ مصيرها هو هلاكك.

لم يجبه (خرافة)، بل اتّجه صوب حجرته في الطابق الأعلى، حيث استلقت زوجته غائبةً عن الوعي، وحولها الموالي اللاتي ما إن رأينه، حتى غادرن الحجرة، فقعد على طرف الفراش يتأمّلها، و(عبد الله) وقف بجواره صامتًا.

لم يكن الأمر هيّن على الفتى... صراع يدور بين ثنايا عقله...

أيظلّ هنا بجوار حبّ حياته يرى الموت زاحفاً نحوها عاجزٌ عن دفعه؟! أم يسافر إلى عالمٍ مصيره الحتميّ فيه هو الموت؛ للبحث عن علاجٍ لا وجود له؟!

الخياران لا يدري أيهما خير، أو بعبارةٍ أخرى... أيهما الأقلّ شرًّا! فظلّ غارقًا في بحار فِكْره، وقد غلبته حيرته.

جانب اختار أن يلبث بجوارها حتى آخر لحظات حياتها، وجانب آخر يرى أن يحقق المحال ولو كان المصير الحتميّ هو الموت بعيدًا عنها.

ومضى وقتٌ طويلٌ وهو على هذه الحال، حتى قال (خرافة) _بحزمٍ_ مخترقًا حاجز الصمت:

- عقدتُ العزم على الرحيل إلى ذلك العالم.

تنهّد أخوه من جراء سماعه لأغبى قرارٍ، حتى وإن كان هذا القرار متوقّعًا من أخيه، ليقول وكأنه يشرح مسألةً لصبيٍّ ساذجٍ:

- يا أخي... إنك تدرك يقينًا كم أكنّ لـ (غزالة) الاحترام والاعتزاز، فقد أحسنت معاملتي ومعاملة العبيد، وزاد احترامي لها بعد أن أبت قبول أبناء السادات،

واتّخذت من راعي الإبل زوجًا لها، ولو أدرك يقينًا أن علاجها يكمن داخل ألف جحيمٍ، لخضته معك ولا أبالي.

وأردف قائلًا:

- لكنك تودّ السفر إلى عالمٍ أنت هالكٌ فيه لا محالة، وسينتهي الحال إلى فقدان أعزّ اثنين في حياتي!

- أن أموت مرّةً، خيرٌ من أن أموت كل لحظةٍ أراها على هذه الحال، وأنا عاجزٌ على فعل أيّ أمرٍ حياله.

طال الجدال بينهما، وأصرّ كلاهما على رأيه، حتى قال (عبد الله) بنفاذ صبرٍ:

- أَصْغِ إليَّ جيّدًا، إنك إن عبرت البوابة، فلن يحدث أمر سوى فقداننا لشخصٍ آخر فقط.

التفت إليه (خرافة) قائلًا:

- هذا أفضل من الموت هنا وأنا عاجزٌ عن إحداث أيّ فعلٍ، إن الفرجة سيتمّ ردمها قريبًا، والأمر أشبه بالسهم الأخير في جعبتك، فإمّا أن يصيب، أو أن يخيب.

- لكنك يا أخي غفلت أو تتغافل عمّا حلّ بـ (فارع) حامي حِمى (بنى عذرة) ورفاقه الأشدّاء، لذلك إن سمحتُ لك بعبور البوابة، فقد حكمتُ عليك بالموت.

- وإن منعتني، فقد حكمت علينا سويتنا بالموت كذلك!

أشاح (عبد الله) بوجهه، فقد أوشك على فقد الأمل؛ فهو يعلم مدى ولع أخيه بزوجته، ولن يندهش إن قتله الحزن والكمد عليها، ليقول بنبرةٍ قد حاول بها أن تبدو متماسكةً، إلّا أنها ظهرت واهنةً ضعيفةً:

- لكنني وعدتُ أمك!

- وعدتَها أن أموت هنا كمدًا، أليس كذلك؟!

فكّر (عبد الله) مليًّا... والصراع يشتدّ بثنايا رأسه، و(خرافة) يترقّب إجابته، وعمّت الحيرة أرجاء لبه، مدركاً على وجه اليقين أنه في الأحوال كلها سيفقدهما معًا، لكم كان يأمل لو أن تنشقّ الأرض وتبتلعه، فهذا أفضل من أن يقع على عاتقه قرار مصيرهما معًا.

والأدهى من ذلك هو أن مصيرهما لن يختلف في الأمريْن، كما أنه إن منع أخاه من عبور البوابة، فلن يسامحه، إلى أن يلحق زوجته! أو ربما يسبقها إلى الموت! وإن سمح له بعبورها، لما سامحته سيدته على ذلك، عوضًا على أنه لن يسامح نفسه لأيّ قرارٍ انتهى إليه، لذلك لم يجد إلّا فكرةً واحدةً لهذه المعضلة، أن يوافقه في طلبه، وقبل أن تتهلّل أسارير الفتى، قال له ملوّحًا بإصبعه:

- ولكن بشرط...! أن أصحبك في رحلتك، فقد وعدتُ سيدتي ألّا أفارقك، ولن أخلف وعدي لها.

كاد (خرافة) يحتجّ، إلّا أنه _ولسببٍ ما_ وافق على اقتراحه بمصاحبته له إلى تلك الرحلة، لذلك قال بنبرةٍ شابها الغموض:

- علينا إذًا أن نعدّ العدّة أوّلًا، ألا تزال تحتفظ ببعض قنّينات الخمر في حجرتك؟

تعجّب (عبد الله) من سؤاله، ليردّ قائلًا:

- لا أزال أحتفظ ببعضها، لكن لِمَ السؤال؟!

- سنحْتسي بعضًا منها.

- أليس إلهك يحرّمها؟!

- بلى، لكن ما الضير من القليل منها؟ إنني بحاجةٍ إلى التحلّي ببعض الشجاعة قبل الإقدام على هذه المغامرة الخطيرة، لذلك أعدْ لنا قنّينتين، وسأشرع بإعداد العدّة للسفر.

وما هي إلا وهلة من الزمن حتى انتهى بهما الحال متكئين على نمارق حجرة (عبد الله) الذي قال بلسانٍ معوجٍّ؛ من شدّة السُّكْر، وبرأسٍ أهلكه الترنّح:

- إن إلهك هذا يحرّم عليك كل ما هو ممتعٌ! إنه يحوّلك إلى كاهنٍ، أرأيت كم كنت تفتقد من لذّةٍ؟!

أجابه (خرافة) وهو يناوله قدحًا آخر من الخمر:

- ما الحياة إلّا بعض التجارب!

ثم تظاهر بشرب الخمر من قدحٍ فارغٍ، قبل أن يقول في نفسه وهو يرمي ببصره عبر النافذة إلى الأفق، حيث يوشك الفجر أن يبزغ: "كم قدحًا عليه أن يحتسي قبل أن يفقد الوعي؟! قد أفرغ قنّينةً، والآن يكاد يفرغ الثانية!!".

- إنك تتحدّث بصورةٍ عجيبةٍ يا (خرافة)؛ هذا لأنك حديثُ عهدٍ بالخمر، تعلَّمْ مثلي كيفية السعي في الحفاظ على ثباتك، سأنهض وأُريك ذلك، إنني أتحدّى أن يلاحظ أحدٌ كوني احتسيتُ الخمر.

بالكاد تمكّن (عبد الله) من الاعتدال واقفًا، ليسير مطوّحًا فاقد التوازن قبل أن يسأل:

- ما بِكَ يا (خرافة)؟! إنك عاجزٌ عن الثبات في موضعك.

أجابه متّكئًا على النمرقة مفتعلًا الضحك:

- أنت تعلم... كوني حديث عهدٍ بالخمر.

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ، حتى رمى (عبد الله) نفسه بجواره بعد أن اختلّ توازنه، وبدا وكأن النعاس قد غشاه، حتى غاب تمامًا عن الوعي، هنا تسلّل (خرافة) حاملًا عصاه؛ كي يغادر حجرة أخيه، وما إن دنا من الباب، حتى سمعه يناديه قائلًا بلسانٍ أثقله السُّكْرُ:

- أخي! لا تقل لي إنك ذاهبٌ وحدك لصيد تلك الوحوش، سأصحبك الآن، انتظرني.

سعى جاهدًا إلى الوقوف على قدميه، لكن الوقت لم يعد في صالح (خرافة) الذي دنا من أخيه، ولم يجد إلّا أن يضربه _بالعصا على رأسه بشدّةٍ_ ضربةً تفقدته الوعي، ثم غمغم قائلًا _بأسفٍ_ ومتأملًا جسد (عبد الله) المسجيّ أرضًا:

- المعذرة يا أخي، فلن أسمح بأيّ ضررٍ يمسّ أفراد قبيلتي منذ اللحظة.

ثم سار متّجهًا صوب باب الحجرة، قبل أن يتشبّث به أحدهم من خلفه، ليلتفت، فإذ به (عبد الله) هاتفًا، وقد استشاط غضبًا:

- أهذا صنيعٌ تصنعه بأخيك أيها الـ...؟!

وهنا.. ابيضّت عيناه، وغاب تمامًا عن الوعي، وسقط أرضًا.

فتركه (خرافة) على حاله، ورحل عن الدار حاملًا أمتعته، ومتّجهًا صوب تلك الفرجة قبل أن يردمها القوم.

***

زحف إلى داخل الفرجة... يشقّ طريقه ناحية البوابة، ولفت نظره الظلمة المعتمة بين ثنايا الفرجة، ولم يجد لها تفسيرًا، وتابع سيره في توجّسٍ وقلقٍ، حتى انتهى به المطاف إلى طريقٍ مسدودةٍ، حينها أدرك أن البوابة لم يعد لها

أيّ وجود، كاد أن يجنّ جنونه، أهي فرجةٌ أخرى غيرها؟! لذلك عاد أدراجه إلى الخارج، وسار هائمًا في الصحراء يتحسّس طريقه؛ على أمل أن يكون قد أخطأ الفرجة، رغم ثقته بألّا وجود لغيرها بالجوار، وبينما هو هائمًا في الصحراء يرمي ببصره يمنةً ويسرةً، حتى سمع صوتًا غليظًا يسأله بنبرةٍ قاسيةٍ:

- أأنت مَن تجرّأ وفتح البوابة؟

التفت إلى مصدر الصوت، لتقع عيناه على ثلاثة مُلثّمين، قد لمح بين ثنايا أعينهم غضبًا شديدًا، ومن نبرة صوتهم بدا وكأنهم أغرابٌ لم يلتق بهم من قبل، ومن ناحيةٍ أخرى بدت ثيابهم نظيفةً، ولا يُرى عليها أيّ أثرٍ للسفر، إذًا مَن هؤلاء القوم؟! وما علاقتهم بالبوابة؟

أجابهم وهو في حيرةٍ من أمره:

- لست أنا مَن فتحها!

ردّ أحدهم بالنبرة القاسية ذاتها:

- كاذب! إنك مَن قام بفتحها، قد أبصرناك تلج وتخرج من بين ثنايا الفرجة، ثم تهيم في الأرض وتبحث عن البوابة.

ثم أشار إلى أمتعته قائلًا بنبرةٍ منتصرةٍ:

- كما أن وجود هذه الأمتعة بحوزتك تفصح على نيتك للسفر، ومع ذلك ظللت هائمًا بجوار قبيلتك تبحث عن شيءٍ ما، ممّا يشي بأنك كنت تبحث عن البوابة التي أغلقناها.

ردّ (خرافة) محتجًّا:

- لم أزعم بعدم معرفتي بالبوابة، وإنما قلتُ إنني لم أفتحها.

ثم قصّ عليهم نبأ تلك الدوابّ العجيبة، والتي هاجمت زوجته، وأنها هي مَن فتحت البوابة، ليقول أحد الرجال الملثّمين بنبرةٍ متجهمةٍ:

- هراء! لا أحد بوسعه فتحها إلّا العاقل فقط، ولم نسمع قطّ عن دوابٍّ تتوافق هيئتها مع ما وصفت لنا، ولا نرى أحدًا يُثير الريبة عداك، لذلك سنأسرك.

وقبل أن يستوعب ما قيل، انقضّ عليه الرجال، وسعى جاهدًا لينجو منهم، ولكن دون جدوى، وقد وقعت عيناه على سيقانهم، ليجدها أدنى لقوائم الثيران، وما إن تمكّنوا من أسره، حتى تشاوروا في أمره، ليقول أحدهم مقترحًا أن يقتلوه، بينما اقترح ثانٍ أن يستعبدوه، غير أن الثالث مال إلى أن يُعتقوه، ليلتفت إليه الرجلان الملثّمان مستنكريْن، فيقول موضّحًا:

- ما الذي بوسع كتلةٍ من الطين فعله من أعمالٍ؟! إنهم الأبخس ثمناً بين العبيد؛ نظرًا لضعف بنيتهم الجسدية، كما أن بيننا عهدًا وبين الملك (سليمان)، بألّا نأسر أيٍّ من بني جنسه أبدًا.

- لكن (آوي بن آوى) يدفع بسخاءٍ لكل مَن يأتيه بإنسيٍّ، لن تجد أحدًا يضاهيه مقتاً لهم، ولا أحد يستمتع بقتلهم مثله، ولن يأبه بأيّ عهدٍ مع الإنس.

وهنا... مرّ بهم رجلٌ لم يتبيّنه الفتى؛ بسبب عتمة الليل، قبل أن ينجلي بضوء الفجر الخافت، فيسألهم بنبرةٍ شابها الفضول عن أمرهم، ميّز (خرافة) نبرة صوته، ليدرك أنه العمّ (خزاعة) راعي الإبل، في حين لمعت عينا واحدٍ من الجنّ بنظرةٍ لم تكن مطمئنةً، ثم أخرج من كمّه كتابًا عتيقًا، وشرع يتلو منه، ليهتف (خرافة):

- اهرب يا عمّ (خزاعة)! إنهم قاتلوك!

اضطرب الكهل رعبًا، قبل أن يولي ظهره ويركض هاربًا، إلّا أن الجنّيّ بمجرّد أن انتهى من تلاوة تلك التعويذة، حتى عمّت النار بجسد (خزاعة)، ليهلك متفحّمًا، فيهتف (خرافة) متجهّمًا:

- كان الأوْلى بكم لو أسرتموه، لا أن تقتلوا الكهل البائس!

أجابه القاتل بنبرةٍ ساخرةٍ:

- لعلّك لم تَعِ بعد ما يجري، إننا نأسرك عقابًا لك لفتح البوابة، بينما قتْلنا لكُتلة الطين تلك، كان بداعي التخلّص من شاهدٍ! والآن... أَلْقِ نظرةً أخيرةً إلى عالمك؛ فلن تقع عيناك عليه مجدّدًا منذ اللحظة.

وتَلا تعويذةً بلغةٍ غير مفهومةٍ من الكتاب ذاته، حتى تكوّنت البوابة ذاتها أمامهم، ثم جذبوه معهم، وعبروها، وبدا لـ (خرافة) حينها أن الأرض قد انقلبت رأسًا على عقبٍ، وأحسّ بألمٍ شديدٍ يغمر جسده، وكأن روحه قد انتزعت من جسده، ثم عادت مرّةً أخرى، ليغيب بعدها عن الوعي.

***

الفصل الرابع:

غابة (مِرثَار)

ما إن عاد إلى الفتى وعيه، حتى وجد أنه مستلقٍ على أرضٍ طينيةٍ رطبةٍ، والضباب يزحف متخلّلًا لأشجارٍ شاهقة الارتفاع قد غطّت السماء فوقه، سعى يغوص بين ثنايا ذاكرته؛ علّها تنبّئه بما كان وما يكون.

حتى وقعت عيناه على قوائم الثيران ذاتها تحيط به، وتذكّر أمر الجنّ، ليعتدل واقفًا بفزعٍ، فيبصرهم، وقد تبدّلت أشكالهم، وبدوا أضخم حجمًا ممّا كانوا عليه، بوجوهٍ كوجوه الثيران، ولفت نظره كذلك الصدمة التي اعترتهم وهم يطالعون الموضع من حولهم، قبل أن يخترق أحدهم حاجز الصمت قائلًا:

- إنني واثقٌ من كوني حوّلت وجهتنا إلى ديارنا، فكيف جيء بنا إلى غابة (مِرْثَار)؟!

ليردّ آخر قد لاحت عليه أمارات التوتّر، فيأمره أن يعيد الكرّة، ويسعى لفتح البوابة؛ لينفّذ أمره، وتَلا التعويذة، ولم يبرز أيّ بابٍ، ليكرّرها مجدّدًا، ولكن دون فائدةٍ، فيلتفت ناحيتهم قائلًا بنبرةٍ قلقةٍ:

- إننا محبوسون هنا! والأدهى من ذلك هو ألّا أحد بوسعه فتح بوابةٍ تنقل إلى الغابة أبدًا!

وبغضبٍ سأله واحدٌ من الجنّ:

- إذًا... كيف انتهى بنا المطاف إلى هنا؟!

- لا تفسير لذلك سوى أن هنالك قوى عاقلةً تفوق الجنّ ذاتها، وهي التي قادتنا إلى هنا، ولا نيّة لها سوى هلاكنا.

حينئذٍ... سرت رعدةٌ داخلهم، وعجزوا عن الحديث؛ من شدّة الهلع، حتى قال (خرافة) متسائلًا:

- إذًا... ماذا لو سعينا إلى مغادرتها بأنفسنا؟

التفتوا إليه، قبل أن يُجيبه أحدهم:

- ليس لهذه الغابة أيّ مخرجٍ، ومصير كل مَن يلجها هو الموت.

هنا... أدرك سبب القلق الذي اعتراهم، وقد سبق أن قال (فارع) القول ذاته، ليعود فيسألهم:

- ألم يقدر أيّ أحدٍ من مغادرتها؟

أجابه متوجّسًا وعيناه تراقبان المكان من حوله:

- شخصٌ واحدٌ وسعه ذلك.

تهلّلت أساريره، وهَمَّ أن يتفوّه بأمرٍ ما، لولا أن قاطعه الجنّيّ قائلًا بصرامةٍ:

- قبل أن تتفوّه بأيّ هراءٍ! فإنه كان من قومٍ قد تواجدوا قبل الجنّ، ووفقًا لما ورد لنا من أنبائه، فإنه...

قاطعه أحدهم هامسًا بنبرةٍ متجهّمةٍ:

- اصمتوا يا حمقى! أتسمعون ما أسمع؟!

أرهف جميعهم السمع، وقد بدا وكأن هنالك صوتًا يدبّ في الأرض، ويزداد ارتفاعًا ودنوًّا منهم، ليتواروا خلف صخرةٍ ضخمة الحجم، وشرعوا يبصرونه متوجسين، فظهر أنه غولٌ غزير الشعر أسوده، أقرع الرأس، ودون عينين وفمٍ، بل كانت في رأسه فجوتان للأنف، وفجوتان بموضع الأذنين، شاقاً طريقه بخطواتٍ شابها البطء الشديد، ويده اليمنى تتقدّمه، ويحرّكها في مختلف النواحي والاتجاهات، مواصلاً سيره، ليهمس أحد الجنّ:

- إنه (الأهلب)، وهو غولٌ تتوسّط يده اليمنى عينٌ، إن التقت عيناك بعينه، أُصيب نصفك السفلي بشللٍ مؤقّتٍ، أما يده اليسرى فبها فمٌ، إن صاح مباشرةً صوب أذنك، فسيُصاب نصفك الأعلى بشللٍ مؤقّتٍ، وإن كنتَ مصابًا بالشلل في أحد جزأي جسدك، وتمكّن من إصابة الجزء الآخر، فسيعمّ جسدك شللٌ دائمٌ، لذلك... فالحذر... الحذر!

شحبت وجوههم وهم يحدّقون بأعينٍ حذرةٍ قد امتلأت برعبٍ شديدٍ صوب ذلك الكائن العجيب، قبل أن يخترق (خرافة) حاجز الصمت متسائلًا عن كيفية النجاة منه، ليُجيبه الجنّيّ:

- على الرغم من الهبات التي يتمتّع بها، إلّا أنه بطيء الحركة، ولا يلتهم إلّا مَن أصابهم بشللٍ دائمٍ، كما أنه لكي يُصيبك بالشلل، فلا بدّ أن تلتقي عيناك بعينه مباشرةً، ولا يكفي أن تسمع صياحه، بل لا بدّ أن يصل الصوت إلى أذنك مباشرةً، لذلك... فالحلّ الأمثل له هو أن توليه ظهرك، وتركض مبتعدًا.

همّ أن يسأله... لولا أن سمعوا صيحة (الأهلب)، لتتحول الأعين نحوه متوجّسةً، فيروه وقد سبّب الشلل لدابّةٍ أشبه بالخروف، يتوسّط رأسها قرنٌ أسود رفيعٌ، ليتحرّك (الأهلب) ناحية ضحيّته المشلولة بخطواتٍ بطيئةٍ، قبل

أن يسمعوا صيحةً مختلفةً برز من بعدها طائرٌ عملاقٌ يكسوه ريشٌ أحمر، بدا وكأنه فاقد السيطرة على اتّزانه، ليسأله (خرافة) عنه، فيُجيبه الجنّيّ:

- إنه (المهواج)، طائرٌ أحمقٌ وكسولٌ، لا يُجيد صيد فرائسه، لذلك يسرق صيد (الأهلب).

وتمكّن (المهواج) بعد جهدٍ جهيدٍ من السيطرة على توازنه، واقتناص الدابّة المشلولة، وبمجرّد أن ارتفع بها، حتى أصابه (الأهلب) بالشلل المؤقّت، وذلك بعد أن التقت عينه بعين الطائر، فأُصيبت قدماه بالشلل، وسقطت منه الدابّة الشبيهة بالخروف.

فيشتعل (المهواج) غضبًا، وينقضّ على الذراع اليمنى لدى (الأهلب)، فينقرها عدّة نقراتٍ، حتى تمكّن من اقتلاعها، فتسقط أرضًا، ويفقد على أثرها (الأهلب) مقدرته على الإبصار، ويحرّك ذراعه اليسرى؛ ينوي الإمساك بالطائر، ولكن دون هدى، بينما سرت الحياة داخل ذراعه المسجيّة أرضًا، لتزحف نحو جسد (الأهلب)، وتتعلق به، وتصعد حتى موضعها السابق، وتندمج بالجسد، لتعود إلى سيرتها الأولى، ويعود قادرًا على الإبصار.

وفي الوقت ذاته، جذب واحدٌ من الجنّ (خرافة) من ذراعه؛ كي يفرّ معهم عن هذا الموضع، وأثناء متابعتهم للركض ناحية الشمال، إذ اعترضت طريقهم مجموعةٌ من دوابٍّ هي أدنى إلى الضباع، وإن كانت ضعفيّ حجمها، تحيط بها نارٌ سوداء، تهاجمهم بشراسةٍ، ليجد الجنّ أنفسهم في مواجهةٍ معها، وتصاعَدَ القتال!

ظل (خرافة) متواريًا خلف واحدٍ من الجنّ، ومتسائلًا في نفسه في أسى... كيف تسبّب في جلب (فارع) ورفاقه إلى هذا الجحيم؟! حتى مع هؤلاء الجنّ، حيث إن

الواحد منهم يعدل ألف فارسٍ، ومع ذلك وجدوا مشقّةً في قتل أشباه الضباع كلها، ليغمغم في محاولةٍ منه لإقناع نفسه قبل إقناعهم:

- لا بدّ من مخرجٍ من هذه الغابة؛ فلا يعقل أن يوجد مكانٌ بلا مخرجٍ.

التفت إليه واحدٌ من الجنّ قائلًا بنبرةٍ صارمةٍ، وهو لا يزال يلهث من شدّة الإعياء:

- وفّرْ هراءَك لنفسك يا كتلة الطين! فمنذ آلاف السنين ولم يَنْجُ أحدٌ من هذه الغابة، والحمقى أمثالك ممّن تصوّروا وجود مخرجٍ، والذين ولجوا الغابة على سبيل المغامرة والفضول، انتهى بهم الحال إلى التيه هنا، حتى الموت!

قال الفتى بتحدٍّ:

- إذًا... ما العمل؟ أنمكث هكذا نترقّب الموت، حتى يحلّ علينا؟!

أجابه ببساطةٍ:

- إنما ننجو لنحيا ليومٍ آخر!

سأله (خرافة) منزعجًا:

- ما الحكمة من النجاة اليوم، إن كان الموت يترقّبنا غدًا؟!

أجاب الجنّيّ بنفاذ صبرٍ، وهو يلحق رفيقيه:

- هكذا هي خلاصة الحياة يا (ابن آدم).

تابعهم السير... وهو في نفسه واثقٌ من وجود مخرجٍ ما من هذه الغابة الملعونة، ولن يبرح حتى يجده، وإلّا... لانتهى به الأمر إلى الهلاك.

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ، حتى اجتمعت فوقهم طيورٌ أدنى إلى الغربان، زرقاء اللون، كانت ترفرف بأجنحتها فوقهم، ليتناثر منها غبارٌ، فيهتف أحدهم بهم

بعدم استنشاق هذا الغبار؛ فربّما يكون سامًّا، أجابوه وشرعوا يركضون مُبتعدين، في حين أن اثنين منهما كانا يرميانها بالسهام؛ كي لا تتبعهم.

وبينما كانوا يتغلغلون داخل الغابة، إذ لمحوا أسفل شجرةٍ ما يشبه النمر، وإن كان يفوقه حجمًا، وأغزر منه شعرًا، وكان منهمكًا في الْتِهامِ شيءٍ ما، تجاهلوه وتابعوا سيرهم بحذرٍ متوارين بين الشجيرات.

وألقى (خرافة) نظرةً خاطفةً إليه، قبل أن يكرّر الالتفات مجدّدًا ناحيته، بعد أن لمح ما بدا مألوفًا له، وكم كان محقًّا حينها، فقد وقعت عيناه على قطع قماشٍ من رداء أحد أفراد قبيلته، بل حينما حدّق النظر، أدرك أن الوحش يلتهم بقايا جسمٍ آدميٍّ!

هنا تحرّك بلا وعيٍ، وهاجمه، وكان وقوده هو الغضب، وانقضّ عليه بعصاه، ليلتفت إليه شبيه النمر، ويطلق زئيرًا تتجمّد له الدماء، قبل أن يهجم تجاه الفتى الذي يركض نحوه، وما إن دنا منه، حتى هَبَّ بعصاه؛ ينوي ضربه، ليتلاشى من أمامه، فيضرب الفتى الهواء قبل أن يلمحه؛ فقد برز من خلفه بسرعةٍ لا تتناسب مع حجم جسده.

وهَمَّ أن يُصيبه بمخالبه، لولا أن تلقّى ركلةً من واحدٍ من الجنّ الذين أحاطوا به، وحينما لاحظ تفوّقهم العدديّ، زأر مجدّدًا، ليتساقط عن الشجرة العشرات من أمثاله، وأدرك حينها الجنّ أنهم في مأزقٍ، ليلتحموا معهم في قتالٍ.

و(خرافة) يتابعهم بعينين جاحظتين، وهو يرى تلك الوحوش الشرسة تقاتل بضراوةٍ، ليقول في نفسه مشدوهاً مضطربًا: "ويلي! ما الذي صنعته ببني قبيلتي؟!"، وبالكاد تمكّن الجنّ منهم، وذلك بعد أن تضرجت أجسادهم بالجراح.

ولم يشعر بالجنّيّ الذي لطمه بقوّةٍ، وهتف بحديثٍ لم يعهِ، وعيناه كانتا متجمّدتين على بقايا أجساد بعض أفراد قبيلته.

ولم ينتبه إليهم وهم يواصلون طريقهم بدونه، ولم ينتبه إلى صرخة (الأهلب)، لم ينتبه إلّا حينما التقت عيناه بعين الغول الواقعة وسط يده، ليُصاب الجانب السفلي من جسده بالشلل المؤقّت، فيقع أرضًا، في حين اتّجه (الأهلب) ناحيته بكل ثباتٍ.

والفتى قد عاد إليه وعيُه، ويحاول جاهدًا النهوض، إلّا أن قدماه لا يستجيبان له، والغول يدنو منه، ليدرك حينها ألا أمل له في النجاة!

وما هي إلّا لحظات، حتى برز الطائر العملاق المسمّى بـ (المهواج)، ليلتقط بمخالبه (خرافة)، غير أن الغول بادره بصيحةٍ مباشرةٍ بفجوة أذنه، ليقع الطائر أرضًا، وهو عاجزٌ عن تحريك جناحيه، ويحاول جاهدًا بقدميه أن ينهض، في حين رفعه الغول بلهفةٍ، ليُصدم بعدم وجود الفتى أسفل منه! فيبحث حوله، حتى عثر عليه يزحف معتمدًا على ذراعيه، فكانت لا تزال قدماه مصابتين بالشلل المؤقّت، ليصوّب بيده نحو أذن الفتى الزاحف على ذراعيه، بصيحةٍ إن ولجت فجوة أذن الفتى، لأُصيب بشللٍ دائمٍ.

لذلك لم يتردّد في أن يصيح صيحةً مزعجةً، غير أن الفتى تابع زحفه، لتعتري (الأهلب) الصدمة؛ فهي المرّةُ الأولى التي لا يُصيبُ الصوتُ أحدًا بالشلل، وتصوّر أنه لم يحسن التصويب إلى فجوة أذنه، ليُعيد الكرّة مرّةً أخرى... وثالثة...

ولكن دون جدوى، حتى اعتراه الإجهاد، وعينه تراقب الفتى زاحفاً مبتعدًا عنه، فلم يجد إلّا أن يلحق به بخطواته البطيئة.

وفي تلك الأثناء... عاد (خرافة) يشعر بقدميه، وبدأ أثر الشلل يتلاشى، وحاول النهوض، غير أنه شعر بالعجز؛ فالجزء السفلي لم يُشفَ تمامًا، وواصل الزحف مبتعدًا ومستعينًا بقدميه رغم ضعفهما، لتزداد سرعة زحفة وتتسع معها المسافة بينه وبين (الأهلب).

ودون أن يلاحظ... فقد انقضّ عليه الطيرُ مجدّدًا، وحمله وحلّق به مسرعًا، قبل أن يطلق (الأهلب) صيحته، إلّا أن الطائر ارتفع حاملًا الفتى، والذي عجز عن منع أمتعته من السقوط منه، لتقع أرضًا بين ناظريه وهو يرتفع مبتعدًا، ولم يجد إلّا أن يضرب أرجل الطائر بعصاه بكل ما أوتي من قوّةٍ، ولفت نظره أنه في كل مرّةٍ عندما يضرب فيها أرجل الطائر، كان يُغيّر وِجهته! وزاد من ضربه جاهدًا؛ سعيًا منه للانفكاك منه، وبعد عدّة ضرباتٍ، انخلع من أثرها مخلب الطائر، ليصدر صيحة ألمٍ.

ويفلت (خرافة)... الذي هوى من ارتفاعٍ شاهقٍ على مجموعةٍ من الأشجار، وأخذ يسعى بضراوةٍ في التعلّق بأحدها، ولكن دون جدوى؛ حيث تحطّمت الأغصان _وإن ساعدت في تخفيف حدّة سقوطه بعض الشيء_ حتى ارتطم أرضًا، وغاب عن الوعي.

***

أفاق (خرافة) من غفوته، ليجد نفسه متّكئًا على جذع شجرةٍ، ووجد أخاه (عبد الله) أمامه يضمّد ذراعه، وأول ما لفت انتباهه هو العمامة التي تعلو رأس أخيه، والذي تحدّث بكلامٍ لم يسمعه (خرافة)، وظنّ لوهلةٍ أنه فقد السمع، قبل أن يتجلّى السبب بثنايا عقله، فينزع بيده اليسرى السليمة قماشتين صغيرتين قد دسّهما بفجوتي أذنيه، ليقول (عبد الله) بنبرة شابها الإعجاب:

- الحمد لله على سلامتك يا أخي، إذًا هكذا حميت أذنيك من صيحة (الأهلب).
كان لا يزال يشعر بدوارٍ؛ بسبب السقوط، إضافةً إلى الألم الذي ألمّ به في عدّة مواضع من جسده، غير أنه كبح جماحه، وهتف بأخيه متجهّمًا:
- أجُنُنْتَ؟! ما كان لك أن تلحقني إلى هذه الغابة المشؤومة، ثم أنّى لك أن تفيق من تلك الضربة على رأسك؟! إضافةً إلى ما احتسيت من خمرٍ!
أشار (عبد الله) إلى رأسه، مُجيباً بنبرةٍ فخورةٍ:
- إنني أملك رأسًا أكثر صلابةً ممّا تتصوّر!
سأله الفتى بفضولٍ عن كيفية لحاقه به إلى براثن هذه الغابة الملعونة، ليُجيبه (عبد الله):
- بعد أن أبصرتُ الجنّ الذين وجوههم كوجوه الثيران، وهم يقودونك عبر البوابة، لحقت بكم على الفور، إلّا أنني _ومنذ أن ولجت هنا_ لم يسعني العثور عليك، إلّا بعد أن شاهدتك تسقط من الأعلى.
سعى (خرافة) إلى النهوض متوجّعًا، فأعانه أخوه، والذي أشار له أن يتبعه؛ فقد اختار الطريق ناحية الغرب، ليسأله بفضولٍ:
- أرأيت أولئك الجنّ الثلاثة؟ إنني قلقٌ بشأنهم!
أجابه (عبد الله) مواصلًا طريقه دون أن يلتفت إليه:
- منذ أن ولجت هذه الغابة، لم تقع عيناي على أحدهم أبدًا، وإنك لأول شخصٍ أراه.
وهنا... ضربه (خرافة) بعصاه على رأسه من الخلف، ليسقط أرضًا، متوجّعًا، قبل أن يسأله حانقاً:
- أتضرب أخاك مجدّدًا يا أخ السوء؟!

هتف (خرافة) ملوّحًا بعصاه:

- وسأوجعك ضربًا إن لم تطلعني عن حقيقتك، ولماذا تتخفّى بهيئة أخي؟!

اعتدل واقفًا، وهو لا يزال يتحسّس رأسه من شدّة الألم، قائلًا بتجهّمٍ:

- لعلّ السقطة أثّرت على عقلك! فلم تعد تفرّق بين الأخ والعدوّ!

ردّ بتجهّمٍ مماثلٍ:

- سبق أن أنبأتني كونك أبصرت الجنّ وهم يقودونني ناحية البوابة، وأنبأتني كذلك أنك لم ترهم أبدًا داخل هذه الغابة، فأنّى لك بمعرفة كون وجوههم كوجوه الثيران؟! وقد كانوا ملثّمين لحظة ما أسروني!

وتابع قائلًا:

- لا أجد تبريرًا لذلك... سوى أن هذه هي الهيئة التي انطبعت بعقلي، وليست هيئتهم السابقة، وما أنت سوى الذي بوسعه التغلغل داخل العقل، ومطالعة ما بداخله!

صاح (عبد الله) من شدّة الألم، وبدأ جسده يتقلّص قليلًا، وهَمَّ أن يتفوّه بأمرٍ ما، لولا أن بادره (خرافة) مُتابعًا:

- ثم... من أين لك أن تُحيط علمًا باسم (الأهلب)؟ هل أنبأك باسمه؟

ومجدّدًا... صاح الكائن، وجسده يتقلّص، ليدرك أن مع كل كشفٍ لحقيقته، يتقلّص حجمه، فعاد يكشف خداعه قائلًا:

- كما أنك استهللت حديثك بحمد الله... جاهلًا بحقيقة كون أخي لا يؤمن به!

ازداد صراخ الكائن؛ من شدّة الألم والتقلّص، حتى ظهر بمظهره الحقيقيّ، بجسده الهزيل، وبجلده الرماديّ الملتصق بعظمه، وبوجهٍ أشبه بوجه فأرٍ،

وبأذنين كبيرتين كأذني الفيل، تكاد الواحدة منهما أن تعمّ جسده بأسره، ليصيح متوسّلًا:

- كفى! أرجوك! حقيقة أخرى وسأموت محترقًا، أريد عهدًا بألّا تقتلني.

قال له (خرافة) بنبرةٍ قاسيةٍ:

- لك عهدي، غير أنني أودّ أن أعرف سبب تخفّيك بهيئة أخي!

- إن بيني وبين الوحوش بالجانب الغربي عهدًا، وهو أن أجلب لهم ضحيّةً؛ حتى لا يتعرّضوا لي إن ولجت أرضهم؛ كي أقطف فاكهة (النارجسيل).

فكّر (خرافة) قليلًا، قبل أن يسأله:

- إنه الموضع الذي جئت منه، أليس كذلك؟

أجابه:

- بلى، إنه الموضع الأشدّ خطرًا، وأنت لم ترَ إلّا عُشْر ما يعجّ به من الوحوش التي لا يتخيّلها عقلٌ، ولا يتحمّلها قلب أشجع الخلق.

قال له (خرافة) موبّخًا:

- وتجيء لهم بكائناتٍ بريئةٍ؛ ليأكلوها، ثم تنعم أنت بتلك الفاكهة! لولا أن أعطيتك عهدي، لكنتُ الآن قاتلك.

وتابع قائلًا وهو ينزع الضمادة عن ذراعه اليمنى:

- كما أن أسلوبك واضحٌ، وقد بدا جليًّا منذ أن وقعت عيناي عليك، قد نسجت نسيجًا يعجّ بالفجوات، بل إن الفجوة منه تسع لجملٍ! إنك _وبكل جدارةٍ_ تستحقّ لقب أحمق شخصٍ صادفته.

اعترى الجنّيّ الحرج من نفسه، وعيناه تتابعان الفتى، وقد ولّى وِجهته ناحية المشرق، ثم تذكّر أمرًا، ليسأله بفضولٍ:

- هل لي من سؤالٍ يا (ابن آدم)؟

توقّفَ، والتفت إليه متسائلًا، ليسأله الجنّيّ:

- قلتَ إنك كشفتَ خدعتي منذ الوهلة الأولى، كيف كان ذلك؟

أجابه ببساطةٍ:

- من العمامة التي تعلو رأسك، فإن أخي لا يطيقها، غير أنني لا أراه في مخيّلتي إلّا وهو مرتديها، حينها أدركت أنك ترى ما يظنّه المرء، لا حقيقة ما رآه!

وما إن أنهى عبارته، حتى اتّسعت عيناه بعد إدراكه نتيجة ما قاله، في حين أن الجنّيّ الأحمق لم يدرك إلّا متأخّرًا بعد أن تسعّر جسده نارًا، ليصيح من شدّة الألم والحنق:

- اللعنة عليك أيها الإنسيّ أبد الدهر!

واحترق جسده بأسره، ولم يبقَ منه سوى الرماد، ليغمغم (خرافة): "تُرى... أيكون أول شخصٍ أقتله؟ أم أن حماقته هي التي قتلته؟!"

تابع طريقه ناحية المشرق بحذرٍ، متوارياً بين الشجيرات؛ كي لا تلمحه أيٌّ من الوحوش القابعة بهذه الغابة اللعينة، فكونه بمفرده، هذا سيسهّل ذلك عليه الاختباء، مقارنةً بوضعه مع الجنّ ضخام الحجم، والذين جذبوا انتباه أعدادٍ من الوحوش.

إن وقع صدى كلمة (النارجسيل) يزيده جوعًا، خاصةً وأنه لم يَذُقْ طعامًا منذ أن وطأت قدماه هذه البقعة اللعينة، إضافةً إلى فقده لأمتعته، فالآن بات عليه إضافة إلى النجاة، هو العثور على طعام أيضًا!

شقّ طريقه بين الشجيرات زاحفًا بحذرٍ... وعيناه تجوبان المكان، وقد عَمَّ سُكونٌ مريبٌ بأرجاء الغابة، لا يسمع سوى صوت أنفاسه الذي تزامن مع نبضات قلبه، وكأن قرعها ينبعث من أذنيه.

واصل طريقه يجرّ قدميه بحذرٍ... وعيناه تترقّبان المشهد؛ تحسباً لأيّ خطرٍ قد يحيق به، قبل أن يقتحم أذنيه صوتٌ، فيسكن تمامًا عن الحركة، ومنع نفسه عن إصدار أيّ صوتٍ، ولبث على هذه الحال برهةً من الزمن، ولكن دون أن يلمح أيّة حركةٍ، ليتابع سيره.

وما هي إلّا لحظات... حتى انقضّ عليه شيءٌ ما، ليخرجه من بين الشجرات، ويسقطه أرضًا، فيجد دابّةً أدنى إلى الذئب، بلا عيونٍ، تنوي نشب أنيابها في رقبته، وتمكّن من أن يحول بينه وبينها بعصاه التي يخنقها بها، حتى خارت قوى الشبيه بالذئب.

ليدفعها (خرافة) بعيدًا عنه، ويعتدل واقفًا، إذ تقع عيناه على الدابة، التي لا تشبه الذئب إلّا في وجهه فقط، أمّا جسدها، فكان أقرب لجسد البشر _وإن كانت تسير على أربعة قوائم_ ولم يلبث إلّا أن عاودت الهجوم على الفتى، ليعاجلها بضربةٍ قويّةٍ على رأسها بعصاه فتبعدها عنه، لتهدّده تلك الدابّة بزمجرةٍ قبل أن تعوي، وما هي إلّا دقائق، حتى انضمّ إليها جمعٌ من نظائرها.

هنا... أدرك (خرافة) يقيناً أنها معركةٌ غير متكافئةٍ، ليفرّ مسرعًا، فيركضوا خلفه، وأيقن أنهم مدركوه لا محالة؛ نظرًا لسرعتهم، لذلك تعلّق بإحدى الشجرات، ولم يلاحظ اليد التي تعلّقت بساقه وتحاول جذبه، ليركل وجه تلك الدابّة بقدمه الأخرى، حتى انفكّت منه.

وواصل تسلّق الشجرة، وتمكّن من الوصول إلى أحد الأغصان، فارتاح عندها وهو يراقب أشباه الذئاب وهي قابعةٌ أسفل الشجرة، وما أن لاحت تباشير نجاته منها، حتى شاهدها وهي تتسلّق الشجرة، ولم يجد حينها إلّا أن يضرب بعصاه رأسَ كل واحدةٍ تدنو منه، لتكرّر الصعود مجدّدًا، فيكرّر ضربها، حتى أضناها اليأس، لتغادر الموضع موليةً الأدبار.

راقبها لوهلةٍ من الزمن؛ فقد توقّع عودتها في أيّة لحظةٍ، لكنه _وبغفلة منه_ قد غطّ في النوم من شدّة الإعياء، ولم يستغرق وقتًا طويلًا من الزمن، حتى اتّسعت فجوةٌ من جذع الشجرة وراءه، وامتدّت أيادٍ بيضاء شاحبةٌ تشبثّت به، قبل أن تجذبه بشدّةٍ داخل الشجرة، ليفيق بسرعةٍ، ويتعلّق بجذعها؛ ليمنع جذبها له بداخلها، حتى فقد توازنه، وسقط عن الشجرة.

وما إن دقّق النظر إلى الفجوة، حتى شاهدها وهي تنغلق مجدّدًا، ليتجاهل أمرها ويواصل طريقه ناحية المشرق.

عاد يسير بهدوءٍ وسط الشجيرات بحذرٍ، تزامنًا مع حلول الليل، وغشى سواده أرجاء الغابة، ولم يكن ذلك عصيًّا على الفتى، إذ اعتمد على الضوء المنعكس على أعين الوحوش في معرفة مواضعها، فيتجنّبها ويشقّ طريقه زحفًا بين الشجيرات.

كاد الخوف يقتله، تزامنًا مع أصواتٍ بدت كالزئير أو العويل، باتت تعمّ أرجاء الغابة، يسعى جاهدًا للحفاظ على رباطة جأشه وسط هذا الجحيم.

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ، حتى شعر بالأرض تتحرّك أسفله، وقبل أن يستوعب ما يحدث، إذ برزت من الأرض يدٌ شاحبةٌ مضيئةٌ، وتعلّقت بساقه، ليهمَّ بعصاه ويضرب اليد ضربةً أوجعت صاحبها.

وتدحرج إلى خارج الشجيرات بعد شعوره بحركةٍ أسفله، لتبرز عدّة أيادٍ تريد الإمساك به، فاعتدل واقفًا، وأسرع مبتعدًا، وكانت الأرض تحته تتحرّك، وبرزت إحدى الأيادي، وكادت تتعلّق بساقه، ليختلّ توازن الفتى ويسقط، قبل أن يهبّ واقفًا على الفور.

فيُفاجَأ أنه محاطٌ بهذه الوحوش المضيئة، وبتلك الرؤوس الصلعاء، لا آذان لها، ولا أنف، ولا حتى عيون، بل توجد هالتان سوداوتان موضعهما، تعلو رؤوسهم قرنيّ استشعارٍ كقرون الحشرات.

كان متحفّزًا باحثًا عن وسيلةٍ للخلاص من هذا المأزق، وشعر أن هذه الكائنات لا تبدو أنها تراه، لذلك التقط بعض الحصيّ، وقذف بها على وجه واحدةٍ منها تفادتها بمهارة وما إن أحسّوا بصوت ارتطام الحصيّ بشيءٍ ما، حتى غاصوا مجدّدًا داخل الأرض متّجهين صوب تلك الحصيّ، ليدرك (خرافة) أنهم حقًّا يعتمدون على حركة مَن حولهم، لذلك كلما أراد السير، ألقى بحصيٍّ في الجهة المقابلة؛ كي تلفت انتباه الوحوش، فيكونَ في مأمنٍ منها.

وسار الوضع بسلاسةٍ، وكاد أن يتمّ الأمر كما ينبغي، لولا أن إحدى الحصوات التي ألقاها قد ارتطمت برأس أفعى، والتي استشاطت غيظًا، لتسعى زاحفةً تجاهه؛ راغبةً في الاقتصاص منه، ليدرك أنه قد وقع في مأزقٍ، خاصةً مع دنوّ الأفعى منه، وكان يخطو على أطراف أصابع قدميه، وهي تدنو أكثر فأكثر.

وشعر أن تلك الوحوش المضيئة أحسّت به وعرفت مكانه، وما إن وقعت عيناه على الأفعى مجدّدًا، حتى شاهدها تنفث نارًا عند ساقيه، ليثب مبتعدًا، وقد أدرك أن الوحوش المضيئة قد علمت بموضعه، وغاصت داخل الأرض، ليهرع مسرعًا، وكادت أن تصل إليه، لولا أن عزفت عن متابعته فجأةً، ولم

يشغل باله طويلًا، حيث تابع ركضه نحو فجوةٍ هي أدنى إلى الكهف، قد صنعتْها مجموعةٌ من الأشجار المتجمّعة بينها.

وما إن ولج تلك الفجوة، حتى تعلّقت بساقيه أغصانٌ نحيلةٌ أشبه بالحِبال، قد قيّدته في موضعه، وأضحى عاجزًا عن الحركة.

جال بنظره أرجاء حجرةٍ تلتمع فيها أحجارٌ مثبّتةٌ أعلى الأغصان، وعلى مسافة عشرة أذرع شاهد جنياً قصيرًا ظنّه _لوهلةٍ_ جذعًا مقطوعًا من شجرةٍ، وكان متّكئًا على شجرةٍ، غارقًا في أعماق نومه، وسمع عن يمينه مَن يسأله:

- أتودُ النجاة؟!

تحوّل نظره ناحية يمينه، ليجد شجرةً تتوسّطها عينان صفراوتان مضيئتان، ليُجيبها:

- بالطبع أريد النجاة، لكن ما الذي يسعني فعله؟

- كل ما عليك هو أن تلتقط القوس والسهم المعلّقين على الشجرة على يسارك، وإن أصبتَ الجني أمامك، فستنجو.

التفت يساره، ليجد القوس المعلّق، فتهفت شجرةٌ أخرى بعد أن كاد يمسك بالقوس:

- بل عليك قتله بالخنجر الكامن داخل الشجرة عن يمينك، إنها سبيل نجاتك.

بدا في حيرةٍ من أمره، فأيّة شجرةٍ من الشجرتين تصدقه القول؟! لتكرّر الشجرتان النصيحتين المتخالفتين، فيدرك حينها أنه أمام شجرتين إحداهما تقول الصدق، والأخرى كاذبة، لذلك سأل ببساطةٍ:

- أأنا حيٌّ أم ميتٌ؟

لم تجبه الشجرتان، بل ظلّتا صامتتين كالقبر، ليقول في نفسه محبطًا: "إذًا... لن يغدو الأمر يسيرًا"

هنا استيقظ الجني الشبيه بجذع الشجرة المقطوع، وفي أعلاه قد برزت عينان صفراوتان مضيئتان، وبمجرّد أن اعتدل واقفًا، حتى أولج يده داخل الشجرة عن يمينه، واستلّ خنجرًا لامعَ النصل، وكأنه لم يُستعمل من قبل، وأخذ يجرّ قدميه بخطواتٍ بطيئةٍ كالسلحفاة نحو (خرافة)، في حين هتفت الشجرة على اليسار:

- إليك بالقوس! ارْمِهِ بالسهم؛ حتى لا تهلك.

لتهتف الشجرة على اليمين:

- بل اطعنه بالخنجر حين يدنو منك، وإلّا هلكت.

ولوهلةٍ... سكن الكائن عن الحركة، وبدا عليه الارتباك، وانطفأ ضوء عينيه، وكذلك عينيّ الشجرتين، قبل أن تضيء جميعها مجدّدًا، ليواصل سيره ناحية الفتى.

شرع يدنو أكثر من الفتى، والسهام أسفله تحطمت بقدميه، ومع كل خطوةٍ يخطوها، تزداد حيرة الفتى أكثر، فأيّ السلاحين يختار؟

تعود الشجرة على اليسار إلى الهتاف:

- اطعنه بالخنجر؛ كي لا تهلك.

وتردّ الشجرة اليمنى:

- بل بالقوس والسهم؛ هما سبيل نجاتك.

تصبّب الفتى عرقًا، والجني يزداد دنوًّا، حتى صار على مقربةٍ منه، هنا... مدّ (خرافة) يده وأولجها داخل الشجرة اليمنى، ليتّضح له أن الخناجر جميعها

التي بداخلها صدئةً ومعوجّةً، ثم اختار واحدًا بصورةٍ عشوائيةٍ، ولمح الكائن قد تحفّز لطعنه بخنجره اللامع، وهَمَّ الطرفان بالطعن، إلّا أن نصل الشبيه بالجذع قد سبق واخترق جسد الفتى، والذي _لسببٍ ما_ امتنع عن طعن الجني في الوهلة الأخيرة، وما هي إلّا لحظات، حتى تصاعد دخانٌ، ثم نارٌ تسعّرت بجسد الشبيه بالجذع، ليسأله بفضولٍ والنار تعمّ جسده:

- أنّى لك إدراك حيلتي؟!

أجابه (خرافة) ببساطةٍ:

- لم يكن بالأمر الهيّن في أوله، شجرتان متخالفتان في النصيحة، ويوجد صنفان من الأسلحة، أحدهما هو سبيل النجاة، وجسدك محاطٌ بالسهام المتناثرة، ممّا يشير إلى أن هنالك محاولات قتلك بها، وقد باءت بمقتل أصحابها، ممّا يدل على أن النجاة كانت تكمن بالخنجر، لولا وجود خطأين ساذجين، أولهما أن الشجرة اليمنى تسعى لإقناعي باستعمال القوس، والشجرة اليسرى تنصحني بالخنجر، بيد أن الشجرتين أخطأتا في ذكر موضع السلاحين لوهلةٍ، وأدّى ذلك إلى ارتباكك، ممّا يشي أنك كنتَ تخاطبني عبر الشجرتين، وقد أخطأتَ ذكر موضع السلاحين.

ثم تابع قائلًا:

- أضِفْ إلى ذلك أن نصلَ خنجرك لامعٌ، في حين أن الخناجر جميعها التي بداخل الشجرة كانت صدئةً ومنبعجةً، وتيقّنت أنه قد تمّ طعنك بها، وقد هلك أصحابها، ثم طالما يكمن بأحد السلاحين سببُ هلاكك، إذًا فلماذا لم تتخلّص منها؟ ومَن يحرص على إعادتها إلى موضعها؟

قال الجنّيّ بنبرةٍ باردةٍ، وجسده لا يزال يتسعّر نارًا:

- إذًا... فبسبب أخطاءٍ ساذجةٍ، فقدتُ عشائي، بل وسأفقد حياتي!

وانتشرت النار... لتعمّ أرجاء الحجرة، حتى تحوّلت جميعها _خلال سويعاتٍ_ إلى رمادٍ، ولحقه خنجره، والذي لم يترك أيّ أثرٍ على جسد الفتى، لتتحرّر قدماه، وينفرج أمامه طريقٌ جديدةٌ من خلف حجرة الشبيه بالجذع، ليواصل طريقه ناحية المشرق، مدركاً أن النهار قد انبلج مع تسلُّل ضيائه بين أشجار الغابة.

قد مضى يومٌ كاملٌ منذ ولوجه هذه الغابة الملعونة، ورأى من الكائنات العجيبة ما لم يخطر على باله، وتمنّى ألّا يصادف المزيدَ منها خلال رحلته، لكن لحسن حظه فقد بدت المنطقة آمنةً.

كاد الجوع يهلكه، فهو لم يَذُقْ طعامًا منذ البارحة، يبحث حوله؛ آملاً العثور على ما يسدّ به جوعه ورمقه، حتى وقعت عيناه على شجرةٍ، تتساقط منها فاكهةٌ أشبه بتفاحٍ لونها يجمع بين الأخضر والأحمر، تلألأت عليها قطراتُ الندى، ليهرع نحوها، وينقضّ عليها ويلتهمها؛ من شدّة جوعه، ليُفاجَأ أن طعمها حلو المذاق، والذي يجمع بين عدّة فواكه، تمكّن من التعرّف على بعضها.

أراح ظهره إلى جذع الشجرة، وطفق يلتهم الفواكه الواحدة تلو الأخرى، والشجرة تغدق عليه بالمزيد منها كلما أوشكت على النفاذ، وظل يأكل بنَهَمٍ، في حين اعترته الحيرة من كونه لا يشبع رغم كثرة ما أكل منها! بل إن جوعه يزداد! ومع ازدياد جوعه، عاد يلهتم أكثر وأكثر، حتى خارت قواه، وبعدها أغشي عليه بجوار الشجرة.

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ، حتى تحرّك غُصنا الشجرة، وانقضّا على الفتى المسجيّ بجوارها، فرفعاه إلى أعلى الشجرة، والتي انقسم جذعها إلى نصفين، ليبرز فمٌ عظيم الحجم، ينوي ابتلاع الفتى!

***

مجرة الفاضلي الإلكترونية

الفصل الخامس:

يخالف ذاته!

انطلق سهمان مستعران بنارٍ زرقاء اللون صوب غصنيّ الشجرة، وبمجرّد أن اخترقهما، حتى مزّق الغصنين، ليهوي معهما (خرافة) أرضًا، ثم تبعهما سهمان آخران مشتعلان، قد أصابا جذع الشجرة، لتعمّها النار الزرقاء، وتحرقها بأسرها، وامتدّت يدٌ لتتعلّق بالفتى المسجيّ أرضًا، وتجذبه بعيدًا عن النار.

وما هي إلّا سويعات، حتى أفاق الفتى، ليجد نفسه مستلقيًا إلى جذع شجرةٍ بجوار نهرٍ يغلي ماؤه، وتبرز منه بضعة رؤوسٍ شيطانيةٍ تراقبه، حاول جاهدًا تذكُّر ما حدث، فكان آخر ما خطر على باله هو أكله من فاكهة حلوة المذاق، بيد أنه لا يذكر ما جرى بعد ذلك، وأثناء غرقه بين ثنايا أفكاره، إذ امتدت يدٌ أمامه تحمل فاكهةً، وسمع مَن يقول متهكّمًا:

- تصوّرتك حذقًا نبيهًا حينما تسنى لك كشف اللثام عن خدعة (الدُجَيل)، بيد أن رأيي حولك قد تبدّل بمجرّد أن خدعتك تلك الشجرةُ، وكادت أن تلتهمك.

التفت إلى مصدر الصوت، فوقعت عيناه على شابٍّ شاحبٍ، فيروزي اللون، نحيل الجسد، يعلو رأسه شعر أبيض طويل، عقصه ناحية الخلف، وتحوّل بصر (خرافة) إلى يده الممدودة بالفاكهة، ولم يتناولها منه، لترتسم ابتسامةٌ بثغر الشابّ، قبل أن يقول:

- أتفهّم ردّة فعلك، وسأبرهن لك أنني لا أنوي خداعك، رغم كوني لست في حاجةٍ إلى الغذاء كي أعيش.

استلّ خنجرًا ذا نصلٍ لامعٍ، وقطّع الفاكهة نصفين، ودسّ أحدهما داخل فمه، وقام بمضغه بتلذّذٍ، حتى ابتلعه، وكان (خرافة) يراقبه، وبعد أن اطمأن إلى أن الشابّ لا ينوي به شرًّا، سأله بفضولٍ:

- وأنّى يسعك العيش دون غذاءٍ؟

- إنني أتمتّع بقدراتٍ مذهلةٍ، من بينها أنني لا يعتريني الجوع، ولا حاجة لي بالطعام.

وحرص على إعلامه بضرورة الاحتفاظ ببذور الفاكهة، في حين امتدت يد الفتى نحو الفاكهة وأضحى يتأمّلها، قد بدت لامعةً شفّافةً، وكأنها مصنوعةٌ من قوارير يبرز من بين ثناياها اللون الأخضر والأصفر، ويجري فيها سائلٌ ذهبي اللون، أثقل من الماء، وأخفّ من العسل، ثم قضم قضمةً منها، وكاد أن يجنّ جنونه من طعمها، والذي عجز عن تمييزه من بين ما التهم من فواكه في عالمه، فكان الطعم يجمع بين الحلو والمرّ، في حين تابع الشابّ قائلًا:

- وعدم حاجتي للغذاء أعانتني على تخطّي الصعاب هنا، خلال المائتي عامٍ التي أمضيتها بالغابة، فبالكاد تجد ما يصلح للأكل.

تفاجأ واضطرب (خرافة) من هول ما سمع، وسعل لوهلةٍ، فيناوله الشابّ قدحًا من الماء، قد تمّ صنعه من خشب الغابة، ليتجرّع الفتى ما يحتويه، قبل أن يهتف بصوتٍ مختنقٍ:

- منذ مائتي عام!! وما الذي كنت تصنعه خلال هذا الردح من الزمن؟!

- إنني هنا في سبيل البحث عن (تاجلنار)، وهو حجر لا وجود له إلّا داخل هذه الغابة؛ من أجل (إينار).

سأله عن هويّة هذه المدعوّة (إينار)، فهمّ أن يُجيبه، لولا أن غمرته الحيرة، وبدا له وكأنه عاجزٌ عن تذكّرها، إذًا... كيف له أن يجيء بحجرٍ إلى شخصٍ لا يذكره؟!

هذا ما خطر على بال الفتى متأمّلًا الشابّ فيروزي اللون، بل اتّضح أنه لا يذكر حتى اسمه، ممّا بدا واضحًا جليًّا لدى (خرافة) أن هذا الشابّ الماثل أمامه مصابٌ بعطبٍ بالذاكرة، قبل أن يلتفت فاقد الذاكرة ناحيته متسائلًا عن هويّته، وعن سبب ولوجه الغابة، ليُجيبه الفتى:

- ادعَى (خرافة)، وأتيت إلى هنا؛ للبحث عن علاجٍ لزوجتي المصابة بعارضٍ لا علاج له في أرضي.

لاحت على الشابّ _فاقد الذاكرة_ أمارات التذكّر، ليقول:

- سبق أن أنبأني أحدهم _بدا موشكًا على الهلاك_ بالأمر ذاته، قبل أن أخرجه عبر بوابةٍ عجيب أمرها، وكدت أن أعيدك إلى عالمك عبر ذات البوابة، لولا أنها قد تلاشت تمامًا.

لوهلةٍ... لم يَعِ ما يقصد، قبل أن يسأله بلهفةٍ إن كان قد التقى بـ (فارع)، فيُجيبه الشابّ فاقد الذاكرة:

- لا أذكر أن قال لي اسمه، غير أنه سألني حول دواءٍ لعلاج عارضٍ يسبّب غياب الوعي حتى الموت، وكذلك سألني عن أيّة مدينةٍ قريبةٍ، إلّا أنني أجبته بالنفي على السؤالين، فلا يوجد مخرجٌ من هذه الغابة أبدًا.

بدت خيبة الأمل تحتلّ قسمات (خرافة)، ليقول في نفسه: "إذًا... فلا علاج لـ (غزالة)، ولا مخرج من هذه الغابة، تمامًا كما قال (فارع)".

ثم خطر على باله أمرٌ، ليقول محتجًّا:

- مهلًا... سبق أن أخبرتني بأمر الحجر الذي أردت العودة به إلى (إينار)، مما يعني أن هنالك عالم قابع خلف هذه الغابة، ألا ترى أنك تخالف ذاتك؟!

بدت الحيرة على الشابّ الشاحب، ليسأل بنبرةٍ شابها الفضول حول هويّة (إينار)، ليُجيبه (خرافة) وقد اعتراه الانزعاج:

- هذا ما أودّ معرفته منك، أنبأتني باسمها، ولم تخبرني عن علاقتها بك، ولا عن سبب رغبتها في الحصول على حجر (تاجلنار)، كما أنك لم تخبرني باسمك!

بدا واضحًا جليًّا للفتى أن هذا الشابّ شاحب الوجه لن يتذكّرها، في حين اعتدل الأخير واقفًا، وهو يقول:

- هيّا... هلمّ معي... أصحبك إلى خارج الغابة.

هنا... هتف (خرافة) بلهفةٍ:

- إذًا... فهنالك مخرج منها!

- بالطبع هنالك مخرجٌ، مَن ذا الأحمق الذي زعم خلاف هذا القول؟!

كاد أن يطلعه بهويّة الأحمق الذي أنكر _منذ لحظاتٍ_ وجود مخرجٍ، إلّا أنه آثر الصمت، وقال مقترحًا:

- قبل أن أغادر الغابة... أودّ معاونتك في الحصول على حجر (تاجلنار)، وبعدها نغادر الغابة سويةً.

التفت فاقد الذاكرة ناحيته، وسأله عن الداعي الذي يجعله يرغب في معاونته في العثور على الحجر، ليُجيبه الفتى:

- لأنك أنقذت حياة أحد أفراد قبيلتي، إضافةً إلى إنقاذك لحياتي، فأودّ ردّ الديْن لك.

- لكم يغمرني ذلك غبطةً! فإنه أول يومٍ لي داخل الغابة، وكلما دنوت من الموضع بجوار حجر (تاجلنار)، يعتريني الرهاب الذي يحول بيني وبينه، وهكذا الحال خلال المائتي عامٍ التي أمضيتها هنا!

استشاط (خرافة) غضبًا، وانفجر فيه قائلًا:

- كيف يمكن للمرء أن يخالف ذاته في عبارةٍ واحدة؟! أهذا هو أولٍ يوم لك هنا؟ أم أنك أمضيت مائتي عامٍ هنا؟! أم ماذا؟!

احتلّت الحيرة قسمات وجه الشابّ فاقد الذاكرة، لا يدري ما يقول، في حين شعر (خرافة) بالحرج من نفسه؛ فقد أفقده أعصابه، وصاح فيه.

قد سبق له أن سمع عن هذا الداء من قبل، لكن ليس إلى هذا الحدّ، إنه يخالف ذاته بصورةٍ غير معقولةٍ، تُرى... ما سرّ هذا العارض؟!

ثم سأله _بعد أن هدأت ثورة غضبه_ عن الموضع الذي يقع به الحجر المنشود، ليُجيبه الشابّ فيروزي اللون أنه يقبع بالجانب الجنوبيّ من الغابة، أمّا المخرج من الغابة، فموضعه هو الجانب الشمال الغربيّ منها، وقد حرص

على وضع علاماتٍ على كل موضعٍ مر به؛ كي يرشده إلى ناحية المخرج، لتغمر السعادة قلب الفتى، ويهتف مبتهجًا:

- ما إن نظفر بحجر (تاجلنار)، حتى نغادر هذه الغابة اللعينة.

غمرت الحيرة وجه الشابّ فاقد الذاكرة، والذي سأل:

- أقلت نغادرها؟! كيف ذاك؟! ولا يوجد لها مخرجٌ أبدًا؟!

ردّ الفتى، وهو يكابد نفسه في كظم الغيظ:

- لا تلقِ بالًا لحماقاتي، وممّا أتفوّه به من قولٍ يخالف العقل، تظاهرْ وكأنك تستمع لأشدّ الناس حماقةً!

هزّ كتفيه بلا مبالاةٍ، ولم يعلّقْ! ثم اتّجها ناحية الجنوب؛ حيث يتواجد حجر (تاجلنار)، ولحسن الحظ... أن هذا الشابّ لم يفقد ذاكرته في رمي السهام، بل إنه موهوبٌ بصورةٍ أذهلت الفتى، فكان قادرًا على رمي أكثر من سهمٍ واحدٍ في اللحظة ذاتها، إضافةً إلى قدرته على جعلها تشتعل بنارٍ زرقاء اللون، إنه بالكاد أحسّ بأيّ خطرٍ داخل هذه الغابة منذ أن صحبه.

وما إن أمضيا نصف المسافة، حتى فضّلا الخلود للراحة، وقد اختار الشابّ الشاحب موضعًا بعيدًا عن الوحوش، وناول (خرافة) واحدةً من تلك الفواكه، والتي التهمها في تلذّذٍ، وقد علم من فاقد الذاكرة أن اسمها هو (النارجسيل)، وهو الاسم ذاته الذي تفوّه به ذلك الجنّيّ الأحمق، وأخبره أن القوم سيجنّ جنونهم حينما تقع بأيديهم بذور هذه الفاكهة؛ وذلك لما حازت عليه من شعبيةٍ لدى أجدادهم، قبل أن تنقرض لمئاتٍ من الأعوام، وأدرك حينها الدافع الذي أدّى بذلك الجنّيّ إلى السعي في خداعه للحصول على هذه الفاكهة في الناحية الغربية من الغابة، ثم سأله بنبرةٍ شابها الفضول:

- طالما أنك تملك بذور هذه الفاكهة، أما خطر على بالك زراعتها في شتّى أنحاء الغابة؟

- سبق أن حاولت ذلك، غير أنها لا تنبت إلّا في موضعٍ واحدٍ داخلها.

عاد فسأله:

- إنك ماهرٌ بحقٍّ في رمي السهام، من أين تعلّمت هذا الأسلوب؟ وكيف بوسعك تحويلها إلى سهامٍ مشتعلةٍ؟ ثم أنّى لسهامك ألّا تنضب؟!

أجابه بفخرٍ:

- إنني منذ الصغر وأنا أعلّم نفسي الرماية، حتى غدوت الأفضل في قريتي، أمّا كيفية جعلها تشتعل ولا تنضب، فهي أمورٌ اكتسبتها خلال إقامتي داخل هذه الغابة، وما إن تعلم عنها (إينار)، حتى تتباهى بها أمام نظيراتها من النساء.

بدا له أن الشابّ قد لاحت عليه أمارات عودة ذاكرته، ليسأله بنبرةٍ شابها الفضول:

- وتدري مَن هي (إينار)؟

أجابه بالفخر ذاته:

- بكل تأكيدٍ.

- مَن إذًا؟

- أنا (إينار).

همّ الفتى أن يتفوّه بحرفٍ ما! لولا أن اقتحم أذنيه صوتُ قهقهةٍ تتبعها قهقهاتٌ! ليقول الشابّ فاقد الذاكرة:

- إنهم (اليراسيع).

ردّد (خرافة) الاسم بفضولٍ وتوجّسٍ، قبل أن تبرز فوقهم مجموعةٌ هي أقرب إلى الوطاويط رمادية اللون طولها يصل إلى نصف الذراع، وذات سيقان متدلّيةٍ، ويعلو رأسها قرنٌ أبيض صغيرٌ، ليقول فاقد الذاكرة:

- إنها لا تؤذي، غير أنها تتغذّى على الغضب، لذلك ستسعى جاهدةً كي تثير غضبك، وإن لم تكترث لها، فإنها تملّ وتدعك وشأنك.

سأله الفتى، والكائنات تدنو منه:

- وماذا لو غضِبْتُ، وتغذّتْ من غضبي، ورحلت؟

أجابه ببساطةٍ:

- حينها... سيضعف جسدك، وربما ينتهي الأمر بك إلى الموت، هذا يتوقّف على مدى غضبك!

شرعت (اليراسيع) في ركل (خرافة) على وجهه، وأخذت تجذب شعره ولحيته وكذلك عمامته بأقدامها، وهو ثابتٌ يكابد نفسه على ألّا يغضب، فإن صوتها الشبيه بالقهقهات وحده كفيلٌ بإثارة غيظه، حتى علقت قدما إحداها بعصاه، وبحركةٍ لا إرادية جذبها، لتدرك (اليراسيع) مدى أهمية عصاه بالنسبة إليه، فانقضّت عليها وحاولت حملها بأقدامها، إلّا أن الفتى تشبّث بها كالمتشبّث بحبل النجاة، ليرتفع معها.

فيهتف الشابّ الشاحب أن يدعها، غير أن الفتى أصرّ على التعلّق بها، وارتفع عاليًا، وقد حلّقت (اليراسيع) به مرتفعةً؛ تسعى بشتّى السبل لإسقاطه منها، وذلك عن طريق ركل يده وعضّها، حتى تمكّن من الإمساك بأحدها، والذي سعى جاهدًا للانفكاك منه، قبل أن يدسّه في حزامه، ليبدو كخنجرٍ يسعى للخروج من الحزام، بدأ الارتفاع ينخفض، وخاصةً بعد نقص عدد (اليراسيع).

وفي ظلّ انهماك (خرافة) بالإمساك بأحدها، وفي ظلّ سعي الكائنات إلى حمل العصا، غفلوا عن أمر بناءٍ عتيقٍ ومتهالكٍ، ليصطدموا به ويتحطّم جداره الهشّ، وسقطوا جميعهم على أرضية الطابق الخامس من البناء _والتي كانت متهالكةً_ ولمح الفتى العصا بجواره، ليمدّ يده تجاهها، لتبعدها أطراف أنامل يده دون قصدٍ نحو فجوةٍ تؤدّي الى الطابق السفلي.

مد ذراعه بحركة سريعة؛ كي يلتقطها، إلّا أن أرضية الطابق الضعيفة لم تتحمّله، لتتحطّم، ويتجاوز الطابق الرابع _والذي اتّضح أنه بلا أرضيةٍ_ ليسقط إلى الطابق الثالث الذي بالكاد قد تحمله، قال في نفسه بوهنٍ: "تُرى... متى تمّ تشييد هذا البناء؟ أمِنْ آلاف السنين؟"

جالت عيناه حوله؛ بحثًا عن العصا، إلّا أنه لم يعثر عليها، قبل أن يسمع صوتًا أدنى إلى صوت فأرٍ، لتجول عيناه أرجاء الحجرة، فتقع على أحد (اليراسيع) متعلّقٌ بشِباكٍ أشبه بشباك عنكبوتٍ يكابد؛ كي ينفكّ منها، ليهرع الفتى نحوه، وشرع يمزّق الشباك اللزجة، و(اليرسوع) غمرته سعادةٌ لوهلةٍ، قبل أن تتحوّل إلى الصدمة!

هذا بعد أن شاهد الفتى، وقد أخرج العصا من بين قدميه، متجاهلًا له تمامًا، ليصيح طالبًا النجاة، بيد أن صياحه لم يخلف أثرًا داخل طيّات (خرافة)، والذي لم يعره اهتمامًا، وواصل سيره إلى خارج البناء، مزيحًا بعض الشباك التي علقت بعصاه.

ومع تصاعد وتيرة الصياح... بدأ قلبه يرقّ، وتمنّى لو بإمكانه أن يحبس ضميره بين براثن شباك العنكبوت بصحبة ذلك (اليرسوع)، وبعد صراعٍ طويلٍ مع ضميرٍ يستمدّ قواه بصياح ذلك الكائن المزعج، استسلم وعاد يقطع الشباك،

حتى تحرّر (اليرسوع) محلّقًا إلى خارج البناء، وأثناء سعيه للمغادرة خلفه، إذ تعلّقت ساقه بخيطٍ أبيض اللون، ينتهي إلى ذيل عقربٍ هائل الحجم، ذا قوائم شديدة النحولة، ساعياً لجذبه برفقٍ؛ خشية أن يتهالك البناء، في حين سعى الفتى جاهدًا لقطع الخيط متراجعًا إلى الخلف واثبًا على ساقٍ واحدةٍ، لينتبه أن الأرضية بدأت تتهالك، فيتوقّف عن الحركة مترنّحًا، بيد أنه كان متأخّرًا، إذ تهالكت الأرضية، وسقط من طابقٍ لآخر، حتى وقع داخل فجوةٍ أسفل البناء المتهالك، وفقد على إثرها الوعي.

***

لم يمضِ الكثير من الوقت... حتى أفاق من إغماءته، ليفطن أنه داخل حجرةٍ معتمةٍ، يحلّق داخلها ما هو أشبه بأقمارٍ ضئيلة الحجم، قبل أن تُضاء الحجرة بنورٍ يكاد يُغشي البصر، تتوسّطه امرأةٌ ذهبيّة الشعر والعينين، بالكاد يسعه تمييز ملامح وجهها وثغرها الباسم وهي تمدّ له عصاه.

وبتردّدٍ... امتدّت يده نحو العصا متوجساً، وما إن أمسك بها، حتى برزت صورٌ متعدّدةٌ بين ثنايا رأسه، ليرى شمسًا فضية اللون، يتوسّطها قرصٌ ذهبيٌّ يوشك ضياؤه أن يخفت، أجسادٌ تتهاوى أرضًا، وشمسٌ مستعرةٌ بنارٍ سوداء، وأجسامٌ هائلة الحجم لم يتبين هيئتها تحلّق في السماء، وتحيط بممالك عظيمةٍ.

وما إن تلاشت الصور، حتى لاحظ الحجرة تمتدّ من أمامه، ثم شاهد _على مرمى بصره_ المرأة ذاتها متّكئةً على عصاه، في حين برزت نارٌ سوداء، قد تكوّنت بيده اليمنى، حتى تشكّلت على هيئة سيفٍ يشتعل بذات النار، وتحرّك حينها جسدُه نحوها بصورةٍ لاإراديّةٍ.

وما إن دنا منها، حتى رفعت عصاه، ليجد أعلاها قرصَ شمسٍ فضية اللون، تدور حولها ثلاثة أقمارٍ سوداء، وما إن أوشك على طعنها بسيفه، حتى قَرَبَتْ العصا من وجهه، وانبعث منها ضوءٌ أغشى بصره، وأضحى عاجزاً عن الرؤية، يعتريه ألمٌ لا يُطاق، وكأن نارًا تشتعل داخل عينيه.

طفق يهوى بسيفه _بعشوائيةٍ_ ولكن دون جدوى، حتى أفاق مجدّدًا داخل الحجرة الصغيرة، والأقمار ضئيلة الحجم تطوف فوقه، لينهض وقد أضناه الإعياء متسائلًا عمّا رآه، ومَن تكون تلك المرأة؟ وما هذه الأقمار الصغيرة التي تطفو بأرجاء الحجرة وتُنيرها؟

ثم وثب؛ محاولًا الإمساك بأحدها، إلّا أنها تفادت يده _بسلاسةٍ_ مبتعدةً عنه، ثم سمع بعدها صوتَ ارتطامٍ خلفه، ليلتفت، فيجد العقرب ذاته وهو عاجزٌ عن عبور باب الحجرة؛ حيث إنها لا تتّسع لحجمه.

ليتراجع (خرافة) إلى الخلف متفاديًا قواطعه، وقد جالت عيناه حوله، ولم يعثر على أيّ مخرجٍ من هذه الحجرة، سوى الباب الماثل أمامه.

والآن... ما الحلّ إذًا؟! أيلبث حبيسًا هنا حتى يعتري العقرب اليأس؟

برزت أعين العقرب من باب الحجرة، فيطلّ بها على الفتى، قبل أن يفتح فمه، ليدرك (خرافة) ما يودّ أن يصنع، فوثب مبتعدًا، ليرمي العقرب شبكةً من فمه، كادت أن تُصيب الفتى، والذي زحف إلى ركن الحجرة الأيسر؛ محاولًا ألّا يقع تحت مرمى ذلك العقرب، ولفت نظره لمعانٌ يعلو عصاه، لتقع عيناه على قرص شمسٍ فضية اللون، يذكر أن شاهدها من قبل!

وهنا... لاح سؤالٌ بين طيّات عقله... ماذا لو واطأ صنيع المرأة ذاته؟ التي سبق أن أصابت عينيه؛ علّه ينجو من هذا العقرب المتحمّس! لذلك تسلّل بمحاذاة

الحائط، وشرع يخطو بحذرٍ وظهره ملتصقًا به، وما إن دنا من باب الحجرة، حتى هَمَّ ليفاجئ العقرب بضوء العصا، لولا أن انقضّ عليه ذلك (اليرسوع) الذي أنقذه مسبقًا، ليتعلّق برأسه، وشرع يعضّه ويركله، حتى اختلّ توازن الفتى من وقع المفاجأة، فيسقط أرضًا أمام مرمى العقرب، وتسقط العصا إلى جواره، ووجدها الأخير فرصةً سانحةً.

لذلك قذفه بشبكةٍ عبر فمه، ليتدحرج الفتى؛ ساعيًا إلى تفاديها، إلّا أنه كان متأخّرًا، إذ تعلّقت الشبكة بذراعه اليسرى، وحالت بينه وبين العصا، والتي بالكاد تمكّن من ملامستها بأنامل يده اليمنى، لتستقر بين بضعة حصواتٍ، فيعود العقرب ويشرع بتكوين شبكةٍ جديدةٍ داخل فمه.

سعى الفتى جاهدًا للوصول إلى العصا، حتى برز مجدّدًا (اليرسوع) ذاته، لينتشل العصا بقدميه، ويرتفع محلّقًا مبتعدًا؛ كي يمنع الفتى من الوصول إليها، والذي تعلّق بصره بها مدركًا فقدانه لأمله الوحيد في النجاة من العقرب الموشك على إفراز شبكةٍ بفمه، إنها إن أصابته، لحبسته هنا داخل الحجرة حتى يهلك.

وهَمَّ العقرب أن يلقي بالشبكة على الفتى، و(اليرسوع) يعلو مرتفعًا، يقهقه ضاحكًا مزهوًّا بنفسه دون أن يلاحظ الحصوة التي ألقاها الفتى، لترتطم برأسه، فتوجعه، وتسقط منه العصا، فيتلقّفها (خرافة)، ويوجهها صوب العقرب في اللحظة نفسها التي رمى فيها بشبكته، ليخترقها ضوء الشمس، فيحرقها ويشقّ طريقه إلى أعين العقرب الذي أصدر صيحةَ ألمٍ أدنى إلى صوت خوار الثور، وشرع يتحرّك بعشوائيةٍ مبتعدًا عن الحجرة، متخبّطٌ عاجزٌ عن كبح ألم اعترى أعينه.

لم يكن غريباً على الفتى مدى الألم الذي يُقاسيه العقرب في أعينه، فقد جرّبه منذ لحظاتٍ، ولم يغفل أمرَ حرقِ الشبكة المتعلّقة بذراعه اليسرى، فيتحرّر وعيناه لا تبعتدان عن الشمس التي تطفو فوق عصاه.

وتزاحمت الأسئلة داخل رأسه... حول سبب هذا التغير الذي طرأ بها، إلّا أنه كان واثقًا من أن ما رآه لم يكن خيالًا أو وهمًا، وأن تلك المرأة هي مَن أمدّت عصاه بهذه القدرة.

لكن... مَن تكون؟ ولماذا صنعت صنيعها ذلك؟!

***

الفصل السادس:

حجرة المعرفة

بمجرّد أن صعد إلى الطابق الأرضي متسلّلًا بحذرٍ عبر الفجوة التي تقع أسفل البناء المتهالك، حتى وقعت عيناه العقرب ذاته يهيم في الطرقات عاجزٌ عن الرؤية، قبل أن يلمح حفنةً من السهام المشتعلة بنارٍ زرقاء اندفعت نحو العقرب، لتُصيبه، فيقع على ظهره ويشتعل، حتى تحوّل إلى رمادٍ.

وبالطبع لم يكن (خرافة) في حاجةٍ للتفكير مليًّا حول صاحب هذه السهام، والذي برز أمامه، ولم يكن سوى صديقه فاقد الذاكرة، ليجده يقول، وهو في حيرةٍ من أمره:

- عجبًا! هذا (العرفوج)! ما الذي دهاه؟ قد بدا لي وكأن جنونًا اعتراه!

قال (خرافة) مرحّبًا:

- صديقنا فاقد الذاكرة... تصوّرت أنني لن ألقاك مجدّدًا.

- ومَن زعم أنني فاقدٌ للذاكرة؟

- إذًا... ما هو اسمك؟

عادت الحيرة تحوم حول الشابّ، فلا دراية له عن اسمه! وإن كان واثقًا أنه يعرفه، ثم قال مشيرًا ناحية عصا (خرافة)؛ في محاولةٍ لتحويل دفّة الحديث:

- أرى أنك قد استعدتَ عصاك.

تعجّب من قوله هذا، ألم ينتبه إلى الشمس التي تطفو أعلاها؟ بيد أنه ما إن التفت إلى العصا، حتى أدرك أن الشمس فوقها قد تلاشت، تُرى... أهي تظهر بصورةٍ موقّتةٍ؟ أم هي...؟

قاطع تسلسل أفكاره رفيقه متسائلًا:

- لا أدري السبب الذي دفعك إلى المجازفة بحياتك من أجل عصا قديمةٍ، كدت أن تهلك بسببها!

ردّ (خرافة) بفخرٍ:

- إنها غالية جدًّا بالنسبة لي، قد أهداني إياها شخصٌ عزيزٌ عليَّ.

ثم قال في محاولةٍ لتغيير دفّة الحديث:

- هلا واصلنا طريقنا، حيث يقبع (تاجلنار).

سأله الشابّ بفضولٍ:

- أهو صديقٌ لك؟

ردّ (خرافة) محبطًا:

- اتبعني يا (يخالف ذاته) فقط إلى ناحية الجنوب؛ لعلّك تتذكّر الحجر أثناء طريقنا!

سأله بلهفةٍ:

- أهذا هو اسمي؟

أجابه ببساطةٍ:

- أجل، قد أضحى منذ اللحظة اسمًا لك!

قال (يخالف ذاته) مفكّرًا:

- ما أحسنه من اسمٍ! إنه يشي بالقوّة!

تمتم (خرافة):

- وبضعف الذاكرة كذلك!

واصلا طريقهما ناحية الجنوب، حيث يتواجد ذلك الحجر، أخذا يسيران في الممرّات، ويعاونان بعضهما في مواجهة الوحوش التي تعترض طريقهما، وقد لفت نظر (يخالف ذاته) مقدرة صديقه على إصابة أهدافه بالعمى المؤقّت، ممّا سهّل له أمر القضاء عليها ببساطةٍ، يذكر أنه رآه يُصيب سربًا من الطيور بالعمى المؤقّت، حتى تساقط عددٌ كبيرٌ منها، بعد أن اصطدمت ببعضها وبالأشجار حولها.

وكانا بين الحين والآخر يختاران موضعًا يجلسان فيه معًا؛ من أجل الراحة، ويلتهم (خرافة) المزيد من فاكهة (النارجسيل)، ولحسن حظه... فإن (يخالف ذاته) جلب معه المزيد منها، والذي سأله بفضولٍ:

- لاحظت أن عصاك ينبعث منها ضوءٌ يُصيب الناظر إليه، ولا أذكر أنها كانت تتمتّع بهذه المقدرة من قبل، بل لا أذكر أن شاهدت شمسًا ضئيلةً فوقها، فمن أين حصلت عليها؟

حكى له (خرافة) ما مرّ به منذ أن تعلّق بالعصا، حتى التقى به مجدّدًا، لتحتلّ الحيرة قسمات وجه (يخالف ذاته)، قبل أن يقول:

- لا أجد سوى شخصٍ واحدٍ يسعه فعل ما رويت لي، ومن المؤكّد أنك التقيت بجزءٍ من ذاكرتها! مع الأسف لا أذكر اسمها، بيد أن هنالك طوائفَ منّا تعبدها.

سأله (خرافة) متعجّبًا:

- وهل يخلف المرء أجزاءً من ذاكرته؟

أجابه (يخالف ذاته) ببساطةٍ:

- أجل، إن الذين تواجدوا قبلنا قد توصّلوا إلى وسيلةٍ لترك أجزاءٍ من ذاكرتهم أو مشاعرهم، يحتفظ بها الموضع الذي خلفوها به.

قال (خرافة) مستنكرًا:

- أنا واثقٌ أنني التقيت بها، بل وتجاوبت معي، ولم تكن ذاكرة.

ردّ موضحًا له:

- هكذا هي الذاكرة... حين يحتفظ بها الموضع، تكون قادرةً على التجاوب مع البيئة المحيطة بها، بل ومنها ما بوسعه القتل! لكن لحسن حظك... فإن التي التقيتَ بها، لم تقتل كائنًا خلال عمرها، والذي امتدّ إلى مئاتٍ من الأعوام.

أطرق الفتى رأسه متفكّرًا متسائلًا في نفسه... مَن تكون تلك المرأة؟ وما السرّ الكامن خلفها؟ ولماذا التقى بجزءٍ من ذاكرتها؟

ثم خطر على باله أمرٌ، ليقول له:

- سبق أن قال لي الجنّ الثلاثة إن هنالك مَن نجا من هذه الغابة.

- أصابوا القول، وقد حدث ذلك منذ آلافٍ من السنين.

- لكن (فارع) تمكّن بمساعدتك من النجاة منها، ألا يُعد ناجيًا هو أيضًا؟

- إن النجاة لا تتحقّق إلّا بالمرور عبر مخرجها فقط، حيث يتكفّل تمثالٌ سحريٌّ بتدوين اسم الناجي، كما أنه لا أحد بوسعه فتح بوابةٍ تؤدّي إلى هذه الغابة أبدًا.

سأله الفتى عن تفسيرٍ لفتحها داخل الغابة طالما هو أمرٌ يعدّ من المحال، ليُجيبه (يخالف ذاته) قائلًا:

- لا تفسير لديَّ سوى أن مَن قام بذلك هو شخصٌ أشدّ بأسًا من الجنّ، وهو أمرٌ لا يُعقل، فلم يعد هنالك مَن يفوقهم بأسًا.

تفاجأ من هذا الفيض من المعلومات! وفضّل تجاهلها؛ نظرًا لما يعتري هذا الشابّ من خللٍ عقليٍّ.

استسلم للنوم... في حين ظلّ (يخالف ذاته) يحرسه، خاصةً وأنه _كما يزعم_ لم يعد بحاجةٍ إلى الخلود إلى نومٍ أبدًا، وهذه المرّة عاد إلى الموضع ذاته الذي التقى فيه تلك المرأة ذهبيّة الشعر، والواقفة تحمل عصا، ولكن ليست بعصاه، وإنما على الأغلب عصاها هي، ولم تكن من خشبٍ، بل من معدنيّ الذهب والفضّة، يعلوها قرص الشمس باللون الفضّيّ ذاته، وتطوف حوله ثلاثة أقمارٍ سوداء.

هَمَّ أن يهتف سائلًا عن هويّتها... إلّا أن فمه لم يطاوعه، بل تحرّك جسده دون إرادةٍ منه، واندفع ينوي ضرب المرأة القابعة في موضعها بسكونٍ، وما إن دنا منها، حتى رفعت عصاها مسافة نصف الذراع، قبل أن تضرب الأرض بها بسلاسةٍ ورفقٍ، ليصطدم (خرافة) بحاجزٍ غير مرئيٍّ، ويندفع إلى الخلف؛ من هول الصدمة، ثم تلاشت المرأة، ووجد أنه محاطٌ بأربعة ذئابٍ حاصرته من الجهات الأربعة، وهي متحفّزةٌ لتنقضّ عليه.

فكّر أن يُصيبها بالضوء، بيد أن ذلك سيتسبّب في إصابة واحدةٍ أو ربما اثنتين منها بالعمى، في حين سيغدو هدفًا سهلًا لغير المصابين منها، تصبّب العرق من جبينه، والقلق يعتصره، وعيناه تراقبانها، وهي تدنو منه، ولكن لا سبيل إلى النجاة.

ما الذي تنويه تلك المرأة على وجه التحديد؟!

خطر على باله أن لعلّها تحثّه على أن يحاكي ما صنعته منذ لحظاتٍ! لم يجد تفسيرًا آخر سوى ذلك، إن الذئاب توشك أن تنقضّ عليه، ليضطر حينها إلى رفع عصاه وغرسها بالأرض مترقّبًا بروز تلك الحواجز الخفية لتحميه.

غير أن ظنّه قد خاب، إذ لم يحدث ما تصوّر، وانقضّت عليه الذئاب، فوقع أرضًا، قبل أن تتلاشى وتبرز مجدّدًا، وهي محيطةٌ به، ليدرك حينها أنها مجرّد وهمٍ، لا دور له سوى مضاهاة الواقع.

كرّرت الذئاب هجومها عليه، ليعيد الكرّة مجدّدًا، ويضرب الأرض بعصاه بقوّةٍ، وللمرّة الثانية لا تبرز تلك الحواجز، فتنقضّ عليه الذئاب، قبل أن تتلاشى مجدّدًا.

أعاد المحاولة عدّة مرّاتٍ، ودون جدوى، ويكاد يفقد عقله من شدّة الحيرة.

تُرى...

ما الذي ينقصه من فعلٍ حتى يصنع تلك الحواجز الخفية؟! وأين يكمن الخطأ؟

عاد بعقله لصنيع المرأة، ولم يجد هنالك اختلافًا، أو ربما هذا ما تصوّره، فقد خطرت على باله خاطرةٌ، تذكّر أنها ضربت الأرض ببساطةٍ ورفقٍ، لذلك قرّر أن يحاكي صنيعها، وما إن أعادت الذئاب محاصرته والهجوم عليه، إذ هَمَّ يضرب الأرض بعصاه برفقٍ، بيد أنه فقد هدوءه.

ومجدّدًا... ضربها بقوّةٍ، لتنقضّ عليه الذئاب، فاستشاط غضبًا؛ بسبب تسرّعه وفقدان السيطرة على هدوئه، إن النظرية يسيرةٌ، لكن تنفيذها _على الوجه الصحيح_ أشبه بالمُحال مع هذه الذئاب الشرسة، وأيضًا لما يعتريه من توتّر بسببها.

أعاد الكرّة لعشرات المحاولات، حتى تمكّن أخيرًا_ من السيطرة على مشاعره، وأخذ يضرب الأرض بعصاه برفقٍ، لتصطدم الذئاب الأربعة بحواجز خفيّةٍ، ويتيقّن حينها من الحيلة في الأمر.

لكن... مَن ذا الذي يملك هذا الفيض من هدوء وبرود الأعصاب في أن يضرب الأرض برفقٍ وتأنٍّ لحظة الخطر؟!

برزت فجوةٌ من نورٍ، بدت وكأنها مخرجٌ من هذه الحجرة، إلّا أنه تجاهلها، وقرّر أن يعيد الكرة عشرات المرّات؛ حتى يعتاد هذا الأسلوب الهادئ البارد ساعة الخطر.

***

ما إن أفاق الفتى من غفوته، حتى واصلا طريقهما متّجهين ناحية الجنوب، وما إن دَنَوا من الموضع الخاصّ بالحجر، حتى انتفض جسد (يخالف ذاته) رعبًا، وعجز عن متابعة السير، ليجده (خرافة) منتفضًا من شدّة الذعر قائلًا:

- لا أجد نفسي قادرًا على المضي قُدمًا؛ هنالك شيءٌ ما يمنعني من الدنوّ من ذلك الموضع، إنني خلال مائتي عامٍ وأنا على هذه الحال، ولا دراية لي عن السبب!

ربت (خرافة) على كتفه قائلًا:

- هَدِّئ من روعك! سأواصل أنا المضيّ، ولن أبرح حتى أجيء لك بحجر (تاجلنار)، فقط نبّئني عن المخاطر التي سأجابهها بالداخل؟

كان هنالك صراعٌ داخله... بدا وكأنه يتذكّر أمرًا ما، ولكن سرعان ما ينساه أو يحاول نسيانه، ليردّ بصوتٍ خافتٍ:

- كلّا... لا يسعني معاونتك، كل ما في الأمر أنه خلف هذه الأشجار الواقعة أمامنا، ستجد بناءً عتيقًا داخله يقبع حجر (تاجلنار).

لم يجد الفتى إلّا أن يواصل طريقه بمفرده نحو المبنى، وذلك كما وصف له (يخالف ذاته) الذي أشار له بيده مودّعًا، في حين ارتسمت ابتسامةٌ مصطنعةٌ من الأخير والخوف يعتصره.

***

بمجرّد أن تخطّى الأشجار، حتى لاح أمامه بناءٌ عتيقٌ مكوّنٌ من أحجارٍ كبيرةٍ متراصّةٍ على صورة قرص شمس، تقع بمنتصفه بالأسفل بوابةٌ، ما إن عبرها، حتى وجد أنه داخل حجرةٍ واسعةٍ معتمةٍ، تحسّس خطاه معتمدًا على الإضاءة الخافتة المنبعثة من شمسٍ فضيةٍ تعلو عصاه، وأحسّ بحركةٍ ما تصدر حوله، ليتحفّز مستعدًّا لأيّ هجومٍ.

حتى أبصر تلك الأقمار الصغيرة، وقد عمّت أرجاء الحجرة، تنبعث منها إضاءةٌ خافتةٌ، بيد أنها كانت كفيلةً لتسمح له برؤية ما حوله، ليُفاجَأ بعددٍ من الأصنام، إلّا أنه _وبعد التمعّن فيها_ أدرك أنها لم تكن مصنوعةً باليد، وإنما بدت وكأنها أجسادٌ متحجّرةٌ، ليتساءل في نفسه عن سبب تحجّرها.

واصل سيره بحذرٍ ناحية الباب المؤدّي إلى الحجرة التالية، حتى سمع صوتًا غليظًا يقول له:

- توقّفْ عندك!

لتتجمّد قدماه قبل أن يجد الأرضية أمامه، وقد تبدّلت إلى رقعةٍ مكوّنةٍ من مجموعةٍ من الأحجار مربعة الهيئة، كل حجرٍ منها قد تزيّن برمزٍ بدا كحرفٍ من لغةٍ ما!

قطع حبل أفكاره مَن يقول له بالصوت الغليظ نفسه:

- عجبًا! إنها أول مرّةٍ يخطو فيها أحدُ (أبناء آدم) حجرة المعرفة.

اتّجه بصره ناحية الصوت، ليجده وجهًا من حجرٍ أسود اللون، ذو لحية حجرية بيضاء تلمع كالألماس، وكان الوجه مثبّتًا على الجدار أمامه أعلى الباب، ليسأله (خرافة) بنبرةٍ شابها الفضول والفزع:

- ويحك! مَن أنت؟

لاحت ابتسامة ودودة على الوجه الحجريّ قبل أن يجيبه ببساطةٍ:

- أنا حارس المعرفة، مهمّتي تتمحور حول ألّا أسمح لأحدٍ بالمرور عبر هذا الباب الواقع أسفل منّي، إلّا مَن يستحق عبوره.

- وكيف ذلك؟

هنا... تحدّث وجهٌ لصبيٍّ من حجرٍ واقعًا بجوار حارس المعرفة، قائلًا بنبرةٍ ساخرةٍ:

- هكذا هم (أبناء آدم)! لا ينفكّون عن التعجّل أبدًا، سأنبّئك بخبره يا إنسيّ، إذ يتوجّب عليك حلّ الأحجية الواقعة أمامك على الأحجار، وإن استعصى عليك أمرها، فستصير حجرًا كبقية الأحجار خلفك!

تأمّل (خرافة) الأحجار ورموزها، وبدا في حيرةٍ من أمره، ليقول لهما:

- إنني عاجزٌ عن فهم هذه اللغة.

أجابه حارس المعرفة:

- مَرِّر العصا التي بحوزتك، وستتبدّل الحروف.

وبالفعل... نفّذ ما قال، لتُضيء العصا أعلى الرقعة، فتتبدّل الحروف أمامه إلى حروفٍ مألوفةٍ، كانت حروفًا عربيةً، وكاد أن يرقص طربًا، لولا تذكّره لمسألةٍ غاية في الأهمية، وهي أنه لا يُجيد القراءة، لذلك توتّر محرجًا:

- المعذرة! فأنا أمّيٌّ، ولا أجيد...

قاطعه وجه الصبيّ الحجريّ قائلًا:

- أقلتَ إنك أمك؟! وكيف يكون المرء أمه؟!

كاد أن يوضح له حقيقة ما قصد، لولا أن قال حارس المعرفة بضجرٍ:

- دعك من دعابات معاوني السخيفة، فإننا نعي ما تقصده، بل ونحيط علمًا بأخبار الإنس، خاصةً فإن إحدى حجرات (دلنارن) واقعةٌ بأرضكم، وإن حارس تلك الحجرة يمدّنا بكل ما يعرفه عن ذلك العالم.

سأله (خرافة) بفضولٍ:

- (دلنارن)! مَن يكون هو؟

هتف وجه الصبيّ الحجريّ متجهّمًا:

- بل هي السيدة العظيمة (دلنارن) يا إنسيّ!

قال حارس المعرفة في محاولةٍ منه لتهدئة الأجواء:

- مهلًا... مهلًا يا غلام، ليس هكذا نخاطب ضيوفنا.

ثم تابع موجّهًا حديثه ناحية الفتى:

- إن السيدة (دلنارن) قد برعت في أمورٍ عدّةٍ لا يمكن حصرها، وهي مَن وهبت عصاك قدراتٍ، ومنحت أحجارًا مثلنا القدرة على النطق، وآتتنا المعرفة، لكن مع الأسف هنالك مَن تصورها إلهًا، لذلك فتجد طوائفَ من الجنّ _حتى هذه

اللحظة_ تعبدها وتمجّدها، وعلى الرغم ممّا أمضته من مئات السنين، ومع ذلك لم تقتل نفسًا.

سأله الفتى مستنكرًا:

- إذًا... ماذا عن المتحجّرين خلفي؟

أجابه:

- ذلك من صنع أحد تلامذتها، وما فعله إلّا لحماية أسرارها من تدميرها بعد أن...

لم يرد أن يتابع، ليستحثّه (خرافة) قائلًا:

- بعد أن... ماذا؟ ما الذي حلّ بها؟!

قال حارس المعرفة، وقد اعتراه الانزعاج لسببٍ ما:

- هنالك أمورٌ من الأسلم عدم التطرّق لها، وأنت هنا من أجل الحجر الكامن بداخل الحجرة التالية، وطالما لا تجيد القراءة، لذلك سنعدّ لك أحاجيًّا، فإن تسنّى لك حلّها، فستنجو، أمّا إن فشلت في حلّها، ستنضم إلى مجموعة المتحجّرين في الخلف.

وبمجرّد أن أنهى عبارته، حتى هبطت الأرضية أمامه، ثم تراصّت أحجارٌ مربّعة الهيئة، لتتشكّل بصورة سلّمٍ، وبعد تردّدٍ... نزل من خلاله، حتى انتهى إلى الأرضية، وتراصّت أمامه أحجارٌ، فيحتار أين يبدأ من بينها... حتى اختار أحدها، ليطأه بقدمه، فيضيء الحجر أسفله، ويسمعه يقول له بصوتٍ غليظٍ:

- عينٌ ثالثةٌ! تَرى ولا تُرى، إن فقدتها، ضللت السبيل، فما هي؟

انتابه القلق، فقد بدت إجابة الأحجيّة أسهل ممّا تصوّر، ليعتريه التوجّس من أنه مجرّد فخٍّ نُصب له قبل أن يغمغم مُجيبًا:

- البصيرة؟

سأله الحجر بقسوةٍ:

- أتسألني؟!

أجاب (خرافة) محرجًا:

- بل هي الإجابة.

صمت الحجر لوهلةٍ بدت كالدهر، وساد الصمت أرجاء الحجرة، حتى لم يعد الفتى يسمع سوى صوت نبضات قلبه المتسارعة، الهدوء يعمّ المكان، والفتى يكاد يفقد أعصابه؛ من شدّة القلق، المزيد من الصمت... لدرجة ظنّ أنه قد تحجّر دون أن يعي، حتى سمع الحجر الذي بالأسفل يقول:

- أصبت الإجابة، انتقل إلى الحجر التالي.

أُضيئت أمامه ثلاثة أحجارٍ بخفوتٍ، ممّا جعله يدرك أن المسموح له الوقوف على أحدها، لذلك وطأت قدمه على الحجر بالجانب الأيمن، ليُضيء إضاءةً أشد، فيقول:

- ضوءٌ يسير على خيطٍ لا ينتهي، تحيط به العتمة من شتّى النواحي، يطمح للحفاظ على توازنه في ظلّ وجود رياحٍ تسعى لدفعه عن يمينه وعن يساره، إن سقط، انطفأ، وإن انطفأ، ساد الظلام، فما هو؟

فكّر قليلًا، فقد بدت الأحجيّة أصعب من سابقتها، أيكون العلم؟ "أجل، لعلّه كذلك"، قالها في نفسه بيقينٍ، قبل أن يعاوده التردّدُ مجدّدًا، ولسببٍ ما شعر أنه أمرٌ آخر، لكن ما هو؟ ليقول الحجر بنبرةٍ صارمةٍ:

- لا أزال أترقّب إجابتك!

الوقت يمضي، والعرق يكاد ينهمر من جبينه، إلّا أنه في النهاية أجاب:

- إنه العلم.

- أهذه إجابتك؟

قالها الحجر متسائلًا بصوته الغليظ، وكاد خرافة أن يؤكّد إجابته، لولا أن اعتراه هاجسٌ أنه تسرّع في الإجابة، ليقول مصحّحًا:

- مهلًا... بل هو العدل.

سأله الحجر متجهّمًا:

- العلم أم العدل؟ سأمنحك فرصةً أخيرةً.

أجاب (خرافة) وقد اعتراه التوتّر:

- العدل.

ساد صمتٌ بدا كدهورٍ! يتصاعد خلاله صوتُ نبضات القلب، ويرتدّ صداه داخل أعماق الفتى، والذي يكاد يقتله التوجّس، ثم شعر مجدّدًا أنه تسرّع في الإجابة، واعتراه الشكّ أن الإجابة الأولى كانت هي الصحيحة.

تُرى... أيحقّ له العدول عن إجابته الأخيرة؟ اعترته الحيرة، وقبل أن يفرط الحجر، عقد أفكاره قائلًا:

- أصبت الإجابة، انتقل إلى الحجر التالي.

تهلّلت أساريره، وكاد يرقص طربًا، لولا هيبة المكان، لذلك عدل عن قراره، واختار هذه المرّة الحجر الواقع أمامه في المنتصف، ليكتمل ضياؤه، ويسمعه يسأله:

- موجودٌ منذ الأزل، بوسعي التواجد في أيّ مكانٍ وفي كل مكانٍ، لا تقتلني الأسلحة، ومع ذلك فإن همسةً واحدةً يسعها قتلي! فمَن أكون؟

مجدّدًا... تفكّر بالأحجيّة، وتعجّب من سهولة إجابتها، ممّا شابه التردّد مجدّدًا؛ خشية أن يكون ذلك فخًّا قد نُصب له، قبل أن يحسم أمره ويُجيب:

- الصمت.

ترقّب ردًّا من الحجر بفارغ الصبر، وقد بدأ ينتابه الشك في أن هذه الأحجار تعزف على أوتار أعصابه، إنّ المرء إنْ نجا من التحوّل لحجرٍ، فهل يضمن ألّا يفقد عقله ممّا يعتريه من التوجّس بسبب هذه الأحجار؟! ظلّ يترقّب مصيره، حتى أجابه الحجر:

- أصبت الإجابة، انتقل إلى الحجر التالي.

اختار هذه المرّة الحجر على الناحية اليسرى، ليكتمل ضياؤه، ويسمعه يقول له:

- لنفترض أنك حاكم إحدى الممالك لدى عالمك، وعلمت بوجود ذئابٍ تخطف مواشي رعيّتك، فما أنت فاعلٌ حيال ذلك؟

عاد العرق ليتصبّب من جبينه، وهو يفكّر في الإجابة... لماذا ينتابه الشعور أنها أشد صعوبةً ممّا يتصوّر؟ كانت هنالك إجابةٌ قد لمعت بين ثنايا عقله، لكنها بدت سخيفةً، ولا يدري ما الذي أقحمها في رأسه! قبل أن يقطع سلسلة أفكاره صوتُ الحجر أسفل منه قائلًا بقسوةٍ:

- لا أزال أترقّب إجابتك!

ليست هنالك سوى إجابةٍ واحدةٍ، هي لا تخالف المنطق، لذلك أجابه:

- أخرجُ مع قومٍ أشدّاء؛ للعثور عليها، ومن ثم قتلها.

ساد الصمت برهةً من الزمن، وقد زادت من توتّر (خرافة)، بدا الصمت سرمديًّا لا نهاية له، قد أدرك يقينًا أنه إن لن يُصاب بالجنون، فسيموت همًّا وقلقًا، ليصدمه الحجر أسفله قائلًا بقسوةٍ:

- أخطأت الإجابة!

شرع ينطفئ ضوؤه، ويقتحم أذنيه صوتُ (حارس المعرفة) يقول بنبرةٍ اعتراها الأسى:

- المعذرة يا فتى! لكنّنا مضطرّون إلى تحويلك إلى حجرٍ!

لتتجمّد الدماء بعروق الفتى!

***

جزيرة الناجي الثالث

الفصل السابع:

خيبة رجاء

هتف (خرافة) جزعًا:

- مهلًا... هذا ليس عدلًا!

لم يجبه (حارس المعرفة)، وإنما لبث صامتًا مترقّبًا ما يودّ الفتى قوله، والذي استطرد حديثه ملوّحًا بيده إلى الأحجار الثلاثة المضيئة خلفه:

- قد أصبتُ الإجابة ثلاث مرّاتٍ، وأخطأت في واحدةٍ فقط، فهل من المعقول أن أتحوّل إلى حجرٍ بسبب خطأٍ في إجابةٍ واحدةٍ فقط؟!

أجابه (حارس المعرفة) متجهّمًا:

- إن الاتفاق فيما بيننا يحتّم أن تتحوّل إلى حجرٍ عند أيّ خطأٍ في الإجابات.

ردّ (خرافة) موضّحًا:

- لم أكن على علمٍ بذلك سوى اللحظة! فهل يتوجّب عليَّ تخمين الشروط وحدي؟! وفيما يبدو لي... فإنه قد بقي حجرٌ خامسٌ، لذلك أرى أن تمنحني فرصةً أخيرةً.

سأل الحجرُ معاونَه قائلًا:

- هل أنبأناه بقواعد الأحجيّات؟

اعترى التردّد معاونه قبل أن يُجيب حرجًا:

- لعلّنا نسينا، فإن آخر مرّةٍ زارنا فيها ضيفٌ قد كان منذ مئات السنين.

صمت (حارس المعرفة) برهةً من الزمن بدت كألف دهرٍ، والعرق يتصبّب من جبين (خرافة) كنهرٍ منهمرٍ؛ إنه إن لم يقتنع بما أبدى من رأيٍ، فسيهلك لا محالة، لذلك عليه أن يتشبّث برأيه كالمتشبث بجذعٍ يطفو على بحرٍ ثائرٍ، وبعد ترقّبٍ وانتظارٍ، أجاب الحارس قائلًا:

- سأمنحك فرصًة أخيرةً، لكن إن أخطأت الإجابة، فلا مزيد من الألاعيب.

شعر (خرافة) شعورَ مَن عثر على بئر مياهٍ بعد أيام تيهٍ وظمأٍ بين طيّات صحراء مترامية الأطراف، أحسّ وكأن الحياة قد عادت إليه، وقد أُضيئت ثلاثة أحجار أمامه إضاءةً خافتةً، وبعد تردّدٍ، اختار الحجر الأوسط منها، ليسمعه يقول له:

- نصفي الأعلى ثلجٌ، ونصفي السفليّ نارٌ، أبرز ليلًا أثناء النهار، تتناقص منّي السنون والأعمار، لا يحكمني زمانٌ، ولا تحكمني الأقدار، خفيٌّ لا تعمى عنه الأنظار، جليٌّ لا تدركه الأبصار، الكون خالقي، وأنا خالق كل ظاهرٍ ومكنونٍ، حيٌّ لا يموت، وميتٌ لا يعتريه السكون، فمن تراني أكون؟

كانت أحجيّةً عسيرةً بحقٍّ، بل بدت مستحيلةً، في البدء كاد أن يُجيب بأنه الله، لولا العديد من الصفات التي لا تُناسبه، فجالَ بعقله بين الكائنات والأشياء كلها التي عرفها وسمع عنها، لكن ما قيل لا يُناسبها تمامًا، إذًا... ما الحلّ؟!

قال الحجر القابع أسفله بقسوةٍ:

- لا أزال أترقّب إجابتك.

تبًّا... إن الوقت يمضي، ولم يُعثر على إجابةٍ، أنى له من إجابة على هذه الأحجيّة؟ نبضات قلبه بات يشعر بها، وكأن وقْعَها ينبعث من بين ثنايا أذنيه، الأرض تمتدّ من أمامه، الحجر يقول متجهّمًا:

- إن لم تُجِب الآن، ستتبدّل إلى هيئةٍ متحجّرةٍ.

أطلق سُبّةً في نفسه؛ جراء هذا المأزق، قد أشكلت عليه هذه الأحجيّة، والأدهى من ذلك أن الوقت ليس في صالحه، لذلك أجاب مستسلمًا:

- لا أجد لها إجابة.

- أهذه إجابتك؟

ردّ متجهّمًا:

- إن كل ما ذكرته لي هو نقيضٌ داخل نقيضٍ! من فوقه أجد نقيضًا، ومن تحته يتجلّى نقيضٌ! إن الثلج سيذوب، فيطفئ النار، لا ليل في النهار، إن مَن لا يحكمه الزمان، لا تتناقص سنونه، أهو خفيٌّ أم جليٌّ؟ أهو خالقٌ أم مخلوقٌ؟ أهو حيٌّ أم ميتٌ؟ لذلك لا أجد إجابةً لسؤالك؛ لأنه لا يوجد شيءٌ تتحقّق فيه هذه الصفات جميعها، لكن إن أردتَ إجابةً، فهاك إجابتي: إنه المحال.

سأله الحجر بفضولٍ:

- إذًا... فهو المحال... أليس كذلك؟

ردّ (خرافة) موافقًا:

- بلى، هذه هي إجابتي.

ساد الصمت برهةً من الزمن، لكن هذه المرّة لم يقلق الفتى، بل كان يستشيط غضبًا؛ جراء تلك الأحجيّة السخيفة، وقد شعر وكأنهم أرادوا التهكّم منه، ظلّ الوقت يمضي والصمت عنوانه، حتى أجاب الحجر القابع أسفله:

- أصبت الإجابة، وإنك الآن جديرٌ بتجاوز الحجرة.

فتشكّلت الأحجار أمامه إلى سلّمٍ متّجهٍ ناحية الباب إلى الأعلى، ليصعده مباشرةً وبلا تردّدٍ، وما إن انتهى إلى السطح، حتى سمع (حارس المعرفة) يقول له بنبرةٍ محبطةٍ:

- وددت لو أبارك لك تجاوزك الأحاجيّ، لولا أن اعتراني الانزعاج؛ من تردّدك في الإجابة، وقد بدا لي وكأنك ضعيف الثقة بحواسك، وكذلك فشلك في إجابة إحدى الأحاجيّ، لو أن أيّ ناشدٍ من ناشدي معرفة (دلنارن) مكانك، لأجابها جميعها وعلى الفور.

واستطرد قائلًا، وقد شعر أنه بدا قاسيًا:

- ربما تملك بعضًا من الفطنة، لكن طبيعتك الإنسيّة المتعطّشة للدماء ستغدو عائقًا بينك وبين جدارتك للقب ناشدٍ.

أثارت لفظة (ناشد) فضول الفتى، وبدت أجنبيّةً عنه، ليسأله عن كنهها، فيُجيبه الحارس:

- إن الشمس التي تعلو عصاك هي دليل أنك ناشدٌ لعلوم (دلنارن)، وإن كنت لا أرى سببًا لاختيارها لك، لعلّه عطبٌ أصاب إحدى الذكريات التي خلفتها في عالم الجنّ، وفي رأيي... فإنني أشكّ أن تسعك النجاة في العالم القابع خلف غابة (مرثار).

مجدّدًا سأله الفتى بفضولٍ:

- إذًا... فهنالك مخرجٌ من هذه الغابة الملعونة! أليس كذلك؟

أجابه (حارس المعرفة) بضجرٍ:

- إجابة هذا السؤال تتوقّف عليك أنت، الآن واصِلْ طريقك نحو حجرة المعرفة.

كاد يعبر البوابة نحو الحجرة التالية، لولا أن تذكّر أمرًا ما، ليسأله:

- إن زوجتي قد ألمّ بها عارضٌ يُدعى في عالمي بـ (حمى همود)، فهل أجد أيّ علاجٍ له؟

صمت الحارس مفكّرًا، قبل أن يُجيبه بنبرةٍ محبطةٍ:

- إن ذلك العارض محاطٌ بهالةٍ من الغموض، وإن معرفتي عنه ضئيلةٌ جدًّا، ولم يعثر أحدٌ على دواءٍ له خلال مئاتٍ من الأعوام، وكل ما يسعني إفادتك به أنه لن يقتلها إلّا بعد مضي قرابة عشرة أعوامٍ من يوم إصابتها به.

قال (خرافة) في نفسه: "إذًا... فإنني أملك من الوقت ما يسمح لي أن أجوب ممالك الجنّ، حتى أجد علاجًا لدائها، ولن أبرح حتى أعثر عليه أو أموت دون ذلك".

ثم سمع معاون (حارس المعرفة) يقول متهكّمًا:

- حسنًا الآن... فارقْ هذه الحجرة! إلّا إذا كنت تنوي التحوّل إلى حجرٍ!

ولم يجادله الفتى، وعَبَرَ البوابة نحو الحجرة التالية، والتي بدت مظلمةً معتمةً، حتى وقعت عيناه على مجموعةٍ من الأقمار الصغيرة تنتشر بأرجاء الحجرة، وتمدّها بضوئها.

ووجد أمامه سلّمًا، فصعده، حتى انتهى إلى حجرةٍ صغيرةٍ لم يكن بها ما يثير الاهتمام سوى بمنتصفها، حيث وقع نظره على ضوءٍ عموديٍّ، يتوسّطه حجرٌ أحمر اللون شديد الحُمْرة متعلّقٌ بالهواء، دنا منه وتأمّله؛ حيث بدا كتاجٍ يشتعل، أو ربما كعُرْفِ ديكٍ!

لعلّه إذًا حجر (تاجلنار)... قالها في نفسه متحسّسًا طريقه ناحية الحجر، وما إن أضحى قاب قوسين منه، حتى مدّ يده؛ كي يلتقطه، قبل أن يشعر بحركةٍ

بجواره، فوثب مبتعدًا، إلّا أنه كان متأخّرًا، ليتلقّى ضربةً من عصا على كتفه أوجعته.

جالت عيناه أرجاء الحجرة؛ بحثًا عن مهاجِمه، قبل أن يشعر بحركةٍ أخرى، ليلامس الأرض بعصاه، فيُحاط بحواجز خفيّةٍ قد حمته من الضربة، ولمح عصا أشبه بعصا تلك المرأة التي تُدعى (دلنارن)، في البدء تصوّرها هي، لولا أن سمع صوتًا ذكوريًّا يقول شيئًا ما بلغةٍ غير مفهومةٍ، ثم رآه يرفع عصاه، ويتركها معلّقةً في الهواء، وبعدها انقسمت إلى ثلاث عصيٍّ، اتّجهت صوب (خرافة)، وأحاطت به بسرعةٍ لم يحسب لها حسابًا، وتسبّبت في شلله التام عن الحركة.

***

تأمّل (خرافة) الشابّ الواقع أمامه، كان شبيهًا بتلك المرأة (دلنارن) ذات العينين الذهبيّتين، وإن كان حليق الرأس، يرتدي الرداء ذاته، أبيض اللون، والمطعّم برموزٍ فضيةٍ وذهبيةٍ، والذي قال بنبرةٍ قاسيةٍ، وبلُغَةٍ بدا وقعها أجنبيًّا على سمع الفتى، والذي أجابه بهدوءٍ:

- يا هذا... إنني لا أعي حرفًا ممّا تتفوّه به من حديثٍ!

صمت الشابّ لوهلةٍ... قبل أن يتردّد صوته منبعثًا بين ثنايا عقل (خرافة) مباشرةً:

- مَن أنت أيها المجهول؟

أجابه الفتى مندهشًا:

- أُدعى (خرافة)، لكن كيف _بالله عليك_ تحدثّني دون التفوّه بحرفٍ؟!

ابتسم الشابّ، وقال عبر عقله:

- هكذا نخاطب مَن يجهل لغتنا، في حين أن بوسعنا فهم أيّة لغةٍ يتمّ التلفّظ بها، وهو كذلك نهجنا في الحديث إلى الأنعام!

ولسببٍ ما... أحسّ الفتى بالإهانة؛ فقد بدا وكأنه تعمّد احتقاره، في حين تحرّر جسده من العصيّ المحيطة به، قبل أن يسمعه يقول له عبر عقله:

- اعذرني... فلم أعرّفك بنفسي، إنني أُدعى (آرات)، لكن من أيّ الجنّ أنت؟

- إنني من الإنس، من (أبناء آدم).

بدت الحيرة تحتلّ ملامح الشابّ، ليسأله مجدّدًا:

- أتعني أنكم قومٌ ظهرتم بعد الجانّ؟

أشار الفتى برأسه إيجابًا، ليعتري (آرات) الإحباط وخيبة الأمل، لدرجة أنه أغفل أمر الفتى، وأخذ يغمغم بشيءٍ ما بلُغَتِه، قبل أن يتذكّر أمر الفتى، فيسأله مجدّدًا:

- ولا علم لديك عما حلّ بقومي؟

- لا علم لي بقومك، ولا علم لي بغير قومك! إن كل عهدي بهذا العالم هو هذه الغابة الملعونة.

- إذًا... ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أهو الطمع لنيْل شرف لقب ناشد علوم (دلنارن)؟

- ما لي حاجة لهذا الشرف! وإنما جئت بحثًا عن علاجٍ _لا وجود له في عالمي_ لعارضٍ ألمّ بزوجتي، وفيما يبدو لي ألّا وجود له داخل هذا العالم أيضًا.

فكّر الشابّ لوهلةٍ، قبل أن يقول له:

- إذًا... لعلّ هذا هو سبب وقوع الاختيار عليك! إذ لم ينتشرْ داءٌ، إلّا ووجدتْ معلّمتنا له دواءً.

هتف (خرافة) بلهفةٍ:

- أتعني أن الحلّ بيدها؟ إذًا... فلماذا لا تمنحني إياه؟

قهقه الشابّ، قبل أن يقول له عبر عقله:

- إنكم قومٌ متعجّلون، حينما تحين اللحظة، ستعثر على سرّ العلاج، لا تزال ضعيفًا لتحمل سرًّا كهذا.

بدا عليه التذمّر، وإن شعر أن هنالك خدعةً ما، لكن الشابّ بدا صادقًا، ثم عاد يقول له عبر عقله:

- احتفظْ بحجر المعرفة؛ لعلّه يوصلك إلى العلاج، ولا أحد يعرف سرّه سوى معلّمتنا.

سأله الفتى إن كان يعني حجر (تاجلنار)، فيُجيبه (آرات) قائلًا:

- لعلّه الاسم الذي يطلقه عليه قومك، إنه مفتاح وصولك إلى الحجرات السرية الأخرى، والتي من خلالها قد تصل إلى العلاج المنشود.

سأل (خرافة) بضجرٍ:

- أيعني ذلك أن أطوف العالم بأسره لجمع الأحجار؟!

ابتسم (آرات) من وقع سخافة سؤاله! ليُجيب:

- بالطبع لا، إن سائر الحجرات قد أشرفتُ على بنائها بنفسي، وأخفيت بين ثناياها أسرار معلّمتنا، فكل حجرةٍ يكمن داخلها سرٌّ، لعلّ أحدها يخفي بداخله العلاج، لذلك احتفظْ بحجر المعرفة؛ كي أعاونك على العثور على الحجرات السرية الأخرى، إضافةً إلى أنه مفتاح سائر الحجرات.

تذكّر الفتى أمرًا، ليقول محبطًا:

- لكنني وعدتُ شابًّا أن آتيه بهذا الحجر، فهو في أمسّ الحاجة إليه.

بدا الأسى يحتلّ قسمات (آرات)، والذي قال:

- "إن الوعد كالقيد"، كما قالت (دلنارن)، لذلك أتصوّر أن عليك تنفيذ وعدك.

- لكن... ماذا عن علاج زوجتي؟

- هذا يتوقّف على قرارك، أيهما أوْلى بالنسبة إليك؟ حياة زوجتك أم تنفيذ وعدك؟

اعترته الحيرة، إنها حقًّا معضلةٌ! لم يتخيّل أن يتطوّر الأمر إلى أن يغدو أشدّ حاجةٍ الى الحجر، بل أشدّ حاجةٍ إليه من طالبه.

اتّجه _على مضضٍ_ ناحية الحجر المعلّق في الهواء بعقلٍ مهمومٍ، وامتدّت يده ليلتقطه، وهَمَّ في مغادرة الحجرة، لولا أن استوقفه (آرات)، ليلتفت إليه الفتى متسائلًا، فيتابع قائلًا بنبرةٍ اعتراها الحزن:

- أنبِئْ مَن بخارج هذه الغابة أن (دلنارن) لم تَخُنْ قومها، وألّا يصدّقوا كل ما نقل عنها من ترهاتٍ.

أومأ برأسه إيجابًا، قبل أن ينتبه إلى أمرٍ ما، فيسأله:

- ألن تصحبني إلى الخارج؟

ابتسم ابتسامةً شابها الأسى، قبل أن يُجيبه:

- لعلّك لم تفطن بعد إلى أنني لا أعدو عن كوني مجرّد ذاكرة (آرات)، وقد احتفظت بها هذه الحجرة.

اتّسعت عينا الفتى دهشةً، قبل أن يقول متسائلًا:

- أمعنى ذلك أنك ميتٌ؟!

أومأ الشابّ برأسه إيجابًا، وعلى ثغره قد برزت الابتسامة نفسها، ليسأله (خرافة):

- إذًا... لماذا لم تغادر هذه الغابة؟ ألم تعثر على مخرجٍ منها؟

علم منه أن العالم حينها أضحى أشدّ خطورةٍ من الغابة ذاتها، فقد انقلب القوم على ناشدي علوم (دلنارن)، وتمّ ائتمان (آرات) _من قبل سائر الناشدين_ بالحفاظ على إرثها؛ نظرًا لكونه آخر الناشدين والمفضّل لدى معلّمتهم، وحرص حينها على إخفاء علومها كلها بين طيّات حجراتٍ كهذه الحجرة، ولبث ما تبقّى من عمره بين براثن هذه الغابة.

وقبل أن يغادر (آرات) الحجرة... حرص على إخبار الفتى ألّا يتعجّل في اتّخاذه لقراره، وإن كان الأوْلى له هو أن يفي بوعده لرفيقه.

وتلاشى من بعدها، تاركًا الفتى في حيرةٍ من أمره، ليغادر الحجرة شاقًّا طريقه ناحية بوابة الخروج من المبنى، وأخذ الصراع يدور ويدور في عقله، أيسلّم الحجر إلى الجنّيّ؟ أم ينقذ حياة زوجته؟ أَيَفي بوعده؟ أم يحقّق ما جاء لأجله؟

إنه إن أوْفى بوعده، فقد فَقَدَ فرصته في الحصول على علاجٍ للعارض الذي اعترى زوجته، وإن احتفظ به لنفسه، يكون قد نكث بوعده للجنّيّ!

إذًا... ما العمل؟!

أسئلةٌ تتعاقب... وحيرةٌ تحتدّ... وطريقٌ تمتدّ أمامه وكأنها بلا نهايةٍ!

واصل طريقه مغمومًا مهمومًا... لدرجة أنه غفل عمّا قاله له (حارس المعرفة)، حينما عبر من أمامه متّجهًا صوب المخرج من هذه الحجرة، وبمجرّد أن غادر البناء، حتى وجد (يخالف ذاته) قابعًا أمامه وسط الشجيرات قائلًا بنبرةٍ مرحّبةٍ:

- إنك حيٌّ! أيعني ذلك أن الحجر بحوزتك؟!

تردّد (خرافة) في الإجابة، واشتدّ تمسّكه بالحجر، كأنه لا يريد مفارقته، لم ينتبهْ إلى أنه لا يزال عاجزًا على اتّخاذ قرارٍ، وقد شعر بذلك (يخالف ذاته)، ليقول بنبرةٍ بدت قاسيةً:

- أعطني الحجر! إنه بحوزتك! قد أنبأتني (إينار) بخبره.

هَمَّ أن يستنكر ما تفوّه به للتوّ، لولا أن تذكّر كونه مختلّ العقل، ليخفي الحجر وراء ظهره قائلًا:

- سأمنحك إياه بشرطٍ واحدٍ، أن تصحبني إلى حجراتٍ سريةٍ تقع في أنحاءٍ شتّى.

رفض (يخالف ذاته) شرطه، وهدّده بالقتل إن تقاعس في تسليمه الحجر، وعاد يهذي بأمر (إينار) وتحذيرها له عن طمع الفتى بالحجر، ليستلّ خنجره مهدّدًا إياه، في حين قال له الفتى متحيّرًا من تبدُّل مزاج صديقه:

- إن حياة زوجتي متوقّفةٌ على هذا الحجر، ولولاي... لما تسنّى لك الحصول عليه.

- ولولاي أيضًا... لمّا ظللت حيًّا! لذلك أعطني الحجر فورًا، إنه تحذيري الأخير.

امتنع الفتى عن منحه الحجر، لينقضّ (يخالف ذاته) عليه بلا تردّدٍ مستلًّا خنجره، فيبادره الفتى بضرب عصاه بقوّةٍ على الأرض، حتى كادت تغرسها، ولم يظهر الحاجز الخفيّ، ليتيقن أنه أخطأ الطريقة، وذلك نتيجة فرط تسرّعه، ليوقعه الجنّيّ أرضًا؛ ينوي طعنه بالخنجر، والفتى يمنعه بيديه، وقد غفل عن تصرّف الجنّيّ الذي مدّ يده واختطف الحجر من قبضة يد (خرافة)، ليبتسم ابتسامةً منتصرةً، قبل أن يعاود سعيه في طعن الفتى، والذي مدّ يده ليجمع

حفنةً من الرمال؛ كي يقذفها في وجهه، لولا أن رآه، وقد تبدّلت حاله، وهتف مشدوهاً:

- (إينار) قد عثرت على الحجر أخيرًا.

ثم هَبَّ واقفًا، وركض ناحية البناء الذي يخشاه، في حين ألقى الفتى نظرةً إلى حيث تتواجد (إينار)، ولم يجد أحدًا، ليشرع في الركض خلفه شاعرًا بوجود فخٍّ هناك قد نُصب للشابّ الأحمق.

ظلّ يلاحقه... حتى لمحه يتّجه داخل البناء، هتف به محذّرًا، غير أن (يخالف ذاته) تجاهله راكضًا ناحية البوابة، والفتى يسعى للحاق به قائلًا في نفسه بتجهّمٍ: "الأحمق! إنه إن فقد حذره، سيصير حجرًا!"، وما إن دنا من البناء، حتى سمع صيحةَ فزعٍ تصدر من (يخالف ذاته)، ليجري إلى المبنى هلعًا.

ولوهلةٍ... تصوّر أنه قد شاهده متحجّرًا، وذلك قبل أن يراه واقفًا أمام الجسد المتحجّر يتأمّله، وكان ذلك الجسد يماثله بصورةٍ متقنةٍ، وكأنه أخوه!

وبخطواتٍ حذرةٍ... سار متّجهًا نحو (يخالف ذاته)، والذي ما إن شعر بوجوده، حتى التفت إليه يرمقه بنظرةٍ حزينةٍ يائسةٍ، وقال له:

- هذا... إنه... إنه أنا!

في البدء... لم يَعِ (خرافة) ما تفوّه به، حتى اتّسعت عيناه، وأدرك ما يعنيه، ليسأله ملوّحًا بيده ناحية الجسد المتحجّر:

- أتعني أنك ولجت هذا البناء من قبل وتحوّلت إلى حجرٍ؟

بدا وكأنه لم يسمعه، ليغمغم بنبرةٍ محطّمةٍ:

- منذ ما يزيد عن المائتي عامٍ ولجت هذا البناء، وعجزت عن حلّ إحدى الأحاجيّ، لأتحوّل إلى جسدٍ متحجّرٍ، لكن... لماذا انتهت بي الحال هكذا؟ لماذا

ظللت حيًّا على الرغم من موتي؟! وإن كان هذا الجسد المتحجّر ليس أنا، فمَن يكون؟ وإن كنت أنا لست أنا، فمَن أكون إذًا؟

سأله الفتى إن تذكّر اسمه، ليُجيبه (يخالف ذاته):

- أذكره الآن... إنه (أرغد بن شمشيق)، سبق أن ولجت هذه الغابة بناءً على طلبٍ من زوجتي (إينار)؛ لأحضر لها الكنز من داخل براثنها.

ثم أردف بنبرةٍ شابها الأسى:

- عِدْني أن تعيده إليها.

- كلّا... إن هذا أمرٌ محالٌ! فحياة زوجتي متوقّفة على هذا الحجر.

شرع جسد الجنّيّ في التلاشي رويداً رويداً، ليهتف حانقًا:

- اللعنة عليك أيها الإنسيّ سائر العمر!

وما إن تلاشى تمامًا، حتى دنا منه (خرافة)، وحرص على التقاط الحجر، وكذلك خنجره الملقى أرضًا، ليدسّه بحقيبةٍ يوجد داخلها بعضٌ من فاكهة (النارجسيل)، وصرّةٌ تحتوي على بذورها، وعلى حبلٍ، قبل أن يغادر المبنى عاقدًا العزم على النجاة من هذه الغابة، لم يعد بحاجةٍ إليها، وعقله قد أضناه التفكير في أمر ذلك الجنّيّ.

وقد اتّضح كل شيء بالنسبة له، فإن سبب حياته داخل هذه الغابة كان لعدم اقتناعه بموته، لذلك ظلَّ يرتعد خوفًا كلما دنا من ذلك البناء، إذ سيزيح اللثام عن مصيره، بل وتناسى اسمه؛ حتى لا يتذكّر هويّته التي إن تذكّرها، فسيدرك أنه ميتٌ، وحينها يتقبّل فكرة الموت!

لكن... أنّى لعارضٍ كهذا أن يحدث؟

ألهذه الغابة اللعينة دورٌ فيما اعتراه من جنونٍ؟

أهي تلعب بعقولنا؟
أهي مَن أوهمته بوجود (إينار) داخلها؟
ثم ماذا لو أن تلك الفتاة لا وجود لها سوى بعقله؟!
اعترته الحيرة الشديدة... لذلك نحّى هذه الأفكار جانبًا، فلم يلج هذا العالم لكشف أسراره، ولم يكن يدرك حينها الصدمة التي ستعتريه حالما يزيح اللثام عن السرّ الكامن بين جنبات الحقيقة.

***

شقّ طريقه ناحية الشمال الغربيّ... متتبّعًا العلامات ذات البريق اللامع التي خلفها المدعوّ (أرغد) معتمداً على عصاه في إزاحة الوحوش عن طريقه، وقد كانت خيرَ رفيقٍ له في هذه الرحلة التي لا تخلو من المخاطر.
وأثناء سيره... إذ وقعت عيناه على أحد المباني العتيقة، وفكّر أن يقيم داخله برهةً من الزمن؛ يستعيد فيها عافيته بعد أن أضناه الإعياء، فتجوّل في البناء؛ تحسّبًا لوجود شيءٍ قد يشكّل خطرًا عليه، وما إن تيقّن من خلوّ المبنى من أيّ ضررٍ، أغلق بابه، وسار متحسّسًا طريقه، خاصةً وأن الأرضية ليست متينةً.
واختار أحد الأركان ليأخذ قسطًا من النوم، ولم تمضِ لحظاتٌ، إلّا ويجد أنه انتقل إلى حجرة (دلنارن)، ويراها واقفةً أمامه على بعد عشرات الأذرع.
في البدء... تصوّر أنها ستعلّمه حيلةً جديدةً، غير أنه أحسّ بغضبها، فقد بدت متجهّمةً، لكن... لماذا؟! ما الذي اقترفه من فعلٍ؟!
خطى نحوها ببضع خطواتٍ، حتى رآها ترجع إلى الخلف.
ثم تذكّر نكثه لوعده لـ (أرغد)، وكذلك رفض تسليم حجر المعرفة إلى (إينار)، ليهتف حانقًا:

- لِمَ هذا الغضب كله؟! ألأنني لم ألتزم بوعدي لذلك المعتوه؟ لم أكن على درايةٍ بأهمية الحجر، فأنا لم أغادر أرض آبائي وأجدادي من أجل التنزّه هنا!

لم ترد! وإنما أشارت بيدها ناحية عصاه، حينها انطفأت الشمس الفضية التي تطفو فوقها، وتلاشت تمامًا، ليقول لها متجهّمًا:

- أتتصوّرين أنكِ _بذلك_ ستعيقينني عن تحقيق غايتي؟! لم أطلب شرف الانضمام إلى ناشدي علومك، ولن أكترث لفقدان عصاي لقواها، فأنا قادرٌ على الخروج من هذه الغابة اللعينة وحدي، وبدون حيلك عديمة النفع.

مجدّدًا... لم ترد! وإنما شرعت تتلاشى، وقد لمح حزنًا يحتلّ قسمات وجهها، قد امتزج بخيبة أملٍ، أراد أن يتفوّه بقولٍ، لولا أن تلاشت الحجرة من أمامه، ثم دخل في دوّامةٍ من أضغاث أحلامٍ قد نسيها بمجرّد أن فتح عينيه، ليلقيَ نظرةً إلى العصا التي بجواره، فيجدها عادت إلى سيرتها الأولى، وتيقّن أنه لم يكن يتوهّم، لقد فقدت قواها.

ليدرك حينها أن عليه مواصلة طريقه وسط غابةٍ تعجّ بالوحوش دون معاونةٍ من الجنّ، ولا من (أرغد) أيضًا، ولا حتى قدرات عصاه.

***

الفصل الثامن:

بين براثن الضباب

غادر (خرافة) البناء، يتردّد بين ثنايا عقله صدى ما قاله لـ (دلنارن)، تُرى... أتقبل الاعتذار؟ كما أن فكرة دعوتها لوليمةٍ لدى قبيلته غير واردةٍ؛ لكونها توفّيت منذ آلاف السنين.

إذًا... ما الحلّ الآن؟

لم يجد إلّا أن يواصل سيره بحذرٍ، ليعود مجدّدًا ويتّجه بطريقه ناحية الشمال الغربيّ، معتمدًا على العلامات التي تركها خلفه (أرغد)، متواريًا بين الشجيرات، يزحف بحذرٍ، وعيناه تجولان الغابة حوله؛ تربّصًا من أيّ خطرٍ قد يهدّده.

وبينما هو يواصل طريقه، إذ سمع صيحةً ليست غريبةٍ عليه، حينها لمح (الأهلب) يجرّ قدميه؛ باحثًا عن غذاءٍ، هَمَّ أن يفرّ مبتعدًا، لولا أن خطرت على باله فكرةٌ علها تغدو سبيله إلى الخروج من هذه الغابة الملعونة، لذلك مزّق قطعتين صغيرتين من قماش عمامته، ودسّهما داخل أذنيه، ووثب خارج الشجيرات معترضًا طريق (الأهلب)، فاردًا ذراعيه هاتفًا:

- ها أنا ذا أيها (الأهلب)!

ليجدها العملاق فرصةً سانحةً كي يوجّه عينه الواقعة وسط يده نحو الفتى المتهوّر؛ كي يشلّه، والذي ظلّ ثابتًا في موضعه دون حراكٍ، وما إن تيقّن من إصابته بالشلل، حتى ولّى وِجهته ناحية الفتى بخطواته الثقيلة، تتضاءل المسافة بينهما شيئًا فشيئًا.

وبعد برهةٍ من الوقت... أحس الفتى بحركةٍ من خلفه، ليلتفت إلى حيث وجد الطائر الأحمق ينوي التقاطه، وهنا... وثب الفتى صوب قدمه، وسمع صيحة اعتراضٍ، وتعجّب من (الأهلب)، ليُجيبه بوقاحةٍ وهو يخرج حبلًا من حقيبة (أرغد)، رابطاً جسده بقدم الطائر:

- لا يسعك إصابة شخصٍ مغمض العينين بالشلل، أيها العملاق الأحمق!

صاح (الأهلب) صيحةَ غضبٍ، وقد بدا وكأنه أدرك ما يعنيه الفتى، والذي وجّه حديثه ناحية (المهواج) قائلًا:

- وأنت... ارتفعْ بنا عاليًا.

وبمجرّد أن قالها... حتى ضرب قدمه بعصاه؛ ليرتفع مسرعًا قبل أن يلحق بهما (الأهلب)، والذي استشاط غضبًا، وهما يرتفعان أمام بصره ويبتعدان عنه، ولبث (خرافة) يتابع بعينيه موضع العلامات التي نحتها (أرغد)، ثم يضرب مخلب الطائر بعصاه، ليحول وِجهته مع كل ضربةٍ، حتى اتّجه ناحية الجهة التي يبغيها، وحلّق صوبها، والفتى سعيدًا مزهوًّا بنفسه، مدركًا أن الطائر _حقًّا_ يغيّر وِجهته حيث يشاء بمجرّد ضربه لقدمه.

وبينما هو يتابع العلامات بالأسفل، إذ لمح مجموعةً من الوحوش التي نجا من مجابهتها، ليهتف فيها بوقاحةٍ من فوقها:

- نجوت منكم يا حمقى! لن ينال منّي أحدكم أبدًا! ولتحتفظ تلك المرأة بشمسها السخيفة، فأنا وحدي يسعني مغادرة هذه الغابة اللعينة، دون معاونةٍ من أحدٍ.

ظل يقهقه بجنونٍ غير مصدّقٍ كونه سينجو أخيرًا، فاردًا ذراعيه وكأنه يحلّق في السماء، في حين طفق الطائر يتفادى جذوع الأشجار.

واصلا طريقهما... والفتى لا يزال يتابع بعينيه العلامات دون أن يلاحظ ولوجهما داخل ضبابٍ كثيفٍ، بالكاد وسعه رؤية يديه، وما هي إلّا لحظات، حتى ارتطم الطائر بشيءٍ ما، قبل أن يهوي ناحية الأرض، في الوقت ذاته استحالت الحبال التي تربط (خرافة) بقدم الطائر إلى أفعى، لتهاجم الفتى، فيخنقها بيدٍ، واليد الأخرى امتدّت داخل الحقيبة، حتى جذب خنجر (أرغد)، وشرع يمزّق به الأفعى، وما إن انتهى منها، حتى خطا عدّة خطواتٍ مبتعدًا عن الطائر، والذي بدا وكأنه قد فارق الحياة، وتابع خطاه متحسّسًا طريقه، يسمع أصواتًا مبهمةً، عاجزٌ عن تبيّنها.

يلتفت حوله باحثًا عن وِجهةٍ يهتدي إليها، يبرز بجوارهِ طيفٌ يقول بنبرةٍ يائسةٍ:

- صدق القوم! لا أجد أثراً لمخرج من هذه الغابة، إن هذه الطريق لا نهاية لها، إن هو إلا سباقٌ بين الجنون والموت! ولا علم عندي أيهما سيسبق الآخر.

خاطبه الفتى... إلّا أن الطيف لم يجبه، بل تلاشى، يواصل طريقه بلا هدى، الضباب يشتدّ كثافةً، وهو يزداد إعياءً، وبين الحينة والأخرى تظهر أطيافٌ لأقوامٍ لا ينفكون عن الحديث بنبراتٍ يائسةٍ.

تعلّق به شخصٌ ما، فالتفت إليه، فإذ به (صفوان) رفيق (فارع)، وبرز من خلفه بعض الرفاق، وقد غطّت أجسادهم الدماء، ومعظمهم قد فقد أجزاءً من جسده، وسمع (صفوان) يقول له حانقًا:

- اللعنة عليك! قد تسبّبت في هلاكنا، لن ترحل من هنا، حتى نقتصّ منك.

دفعه (خرافة)، ثم ركض مبتعدًا عنه، قبل أن يُفاجَأ بزوجته (غزالة) تعترض طريقه قائلةً بنبرةٍ معاتبةٍ:

- قد عجزت عن حمايتي! وها أنت تهاجر وتتركني وحدي أواجه مصيري المجهول!

كاد أن يردّ، لولا أن رأى طائرًا عملاقًا، قد التقطها وحلّق بها مبتعدًا، فسعى إلى إقناع ذاته أن كل ما يراه هو وهمٌ! وأنه لا غرض له سوى فقدانه لعقله!

وبينما هو هائم في طريقه وسط الضباب، إذ عاد إلى الحجرة ذاتها التي عثر فيها على حجر المعرفة، لتعتريه الصدمة ولا علم له عن كيفية وصوله إلى هنا، لتقع عيناه على (آرات)، فيهتف جزعًا:

- كيف انتهى بي المطاف إلى هذه الحجرة مجدّدًا؟!

- إنك لست داخل الحجرة! وإنما جذبت عقلك إلى عالم العدم.

ردّد الفتى العبارة الأخيرة مستنكرًا، ليُجيبه (آرات):

- لا تشغلْ بالك به؛ فهو مجرّد عالمٍ معزولٍ عن الزمان والمكان، تصوّرْه حلمًا عابرًا فحسب!

لم يَعِ ما تفوّه به، ولم يطيق صبرًا، ليسأله بنبرةٍ متوسّلةٍ:

- إنني عاجزٌ عن الاهتداء إلى مخرج الغابة، فهلا مددتَ لي يد العون بشأن استعادة عصاي قواها؟

أجاب متهكّمًا:

- ألم تقل إنك لست بحاجةٍ إليها؟

- كانت لحظةَ غضبٍ.

- وقولك: "ولتحتفظ تلك المرأة بشمسها السخيفة، فأنا وحدي يسعني مغادرة هذه الغابة اللعينة، دون معاونةٍ من أحدٍ"!

- كانت لحظةَ حماقةٍ منّي.

- من الواضح أنكم قومٌ سريعو الاغترار بما يقع بين يديكم.

ظلّ صامتًا لوهلةٍ، والفتى يترقّب ردّه، واللهفة تحتلّ قسمات وجهه، حتى قال (آرات) بنبرةٍ صارمةٍ:

- سأمنح عصاك بعضًا من قوى معلّمتنا.

سأله الفتى... إن كان يسعه ذلك، ليُجيبه (آرات) باعتزازٍ:

- بالطبع، فلم تتّخذني ناشدها الأخير والمفضّل من فراغٍ، لكن هذا يتوقّف على شرطٍ، وهو أن تعيد الحجر إلى زوجة ذلك الشابّ.

احتجّ (خرافة):

- لكنك تعلم مدى أهمية هذا الحجر بالنسبة لي!

- إذًا... فلتَنْسَ أمر استعادة عصاك قواها، والآن سأعيدك إلى عالم الواقع، حيث تواجه مصيرك.

استوقفه الفتى، قبل أن يقول له على مضضٍ:

- فليكن! سأعيد الحجر إلى زوجة ذلك الأحمق.

لاحت ابتسامة تنم عن ارتياحِ (آرات)، قبل أن يقول له:

- إذًا... ما إن تعود لعالم الواقع، حتى ترى عصاك وقد استعادت قواها، لكن حاولْ أن تسيطر على طبيعتك الحيوانية؛ فإنك لن تغدو ناشدًا لعلوم (دلنارن) بحقٍّ، إلّا إذا تحرّرت من تلك الخصلة، كما أنكم قومٌ ضعفاء، فلولا ذلك، لكنتُ علّمتك المزيد من مهاراتنا، بيد أنه أمرٌ سيتمّ تأجيله.

هتف (خرافة) بلهفةٍ:

- معنى ذلك أنك ستعلّمني كيفية رمي خصومي بكراتٍ ملتهبةٍ، وأن ألقي عليهم بسهامٍ مشتعلةٍ، أليس كذلك؟

ارتسمت ابتسامةٌ مشفقةٌ بثغر (آرات)، قبل أن يُجيبه بنبرةٍ لا تخلو من خيبة الأمل:

- لعلّك تجهل حقيقة (دانارن)، فهي لا تقتل أبدًا، ولا تطمح لناشدين قتلة، لذلك كل ما علّمتنا إياه هو مهارات تحميك وتحمي الغير.

قال (خرافة) بخيبة أملٍ وبنبرةٍ متذمّرةٍ بعد أن تحطّمت آماله:

- إن هذا مثيرٌ للضجر.

قال له مداعبًا:

- هل أفهم من ذلك أنك لست بحاجةٍ إلى مهاراتها؟

- قطعاً لا، فهذا الأمر أفضل من لا شيء.

- إذًا... عُد الآن، ولا تنسَ أن تعيد الحجر إلى زوجة صاحبك.

- مهلًا! ألن تخبرني كيفية النجاة من ذلك الضباب الذي لا ينتهي؟

- لعلّك غفلت كوني لم أغادر هذه الغابة قطّ، فمن البديهيّ ألّا علم عندي بكيفية مغادرتها، إن ذلك يتوقّف عليك أنت.

وبمجرّد أن أنهى عبارته، حتى تلاشى ما حوله، ليعود غارقًا وسط ضبابٍ، فيتابع طريقه بلا وِجهة، وتعاوده أصوات اليأس المنبعثة ممَّن فشل في النجاة من الغابة، ما الحلّ؟ أيظلّ يهيم هنا حتى الموت؟! تذكّر أمرَ عصاه، ورفعها أمامه، ليجد شمسًا بيضاء تعلوها، إذًا... فقد أوفى (آرات) بوعده، لكن ألم تكن فضية اللون من قبل؟!

وبينما هو يتأمّل الشمس البيضاء، إذ تلاشت دون سابقِ إنذارٍ، لتعتريه الدهشة، ويتساءل في نفسه: "ما بها؟!"، ثم تفحّصها بتمعّنٍ وسط ضبابٍ أحاط بها، وبدت وكأنها فقدت سحرها، ولم يجد إلّا أن يتابع طريقه بلا هدى بين براثن هذا الضباب الذي يزداد كثافةً.

شرع الضيق يتسلل إلى صدره، بالكاد غدا قادرًا على التقاط أنفاسه، بدا وكأنه يصّعد في السماء، الأطياف حوله تهمس بنبراتٍ يائسةٍ بأن لا مخرج من هذه الغابة، تجاهلها وواصل طريقه، وتمضي السويعات... ولا دراية له عن وِجهته!

عكف على المضي قُدُماً وسط هذا الضباب الأزليّ، ولسببٍ ما... اعتراه هاجسٌ أن هذا الموضع من الغابة بدا مألوفًا له، الأصوات اليائسة تطارده بألّا أمل في النجاة من هنا، ومجدّدًا يتجاهلها مواصلًا سيره، وما هي إلّا لحظات، حتى أوشك أن يرتطم ببناءٍ بالكاد تمكّن من رؤيته، قد برز وسط الضباب، ففكّر أن يصعده؛ لعلّ الضباب يغدو أقلّ كثافةً في الأعلى، فيرى موضعه على وجه التحديد، لذلك تحسّس طريقه بحثًا عن مدخلٍ للبناء، وكان لا يزال الهاجس بداخله الذي ينبّئه أنه سبق وقد زار هذا الموضع من قبل.

تجاوز باب البناء متحسّسًا طريقه نحو سلّم الصعود، وكان الضباب يزداد كثافةً، إنه يخنقه، إلّا أنه واصل صعوده حتى الطابق الخامس بخطواتٍ حذرةٍ،

يجرّ قدميه بوهنٍ، وكاد الإجهاد يقتله، ثم تعثّرت قدمه بفجوةٍ بأرضية الطابق، إنها الفجوة ذاتها التي سقطت داخلها عصاه من قبل، فاعتدل واقفًا وهو يرمي ببصره؛ محاولًا التعرّف على موضعه الآن في الغابة.

راوده خاطرٌ... أن هنالك خطأً ساذجًا قد غفل أمره لوهلةٍ، هنا فقط أدرك موضعه، وأدرك سرّ الحيلة التي انطلت عليه، حينها رفع عصاه وصوّبها أمامه، لينبعث منها ضوءٌ ساطعٌ، وما هي إلّا لحظات، حتى سمع صوت صرخة ألمٍ تزامن مع تلاشي الضباب، ويبرز من أمامه جنّيٌّ ضئيل الحجم كبير الأذنين، شبيهٌ بالجنّيّ الذي تنكّر في صورة أخيه، والذي قال متألّمًا فاقدًا القدرة على الرؤية:

- كيف فطنت لحيلتي؟

- لأنك لست على اطلاعٍ بما طرأ داخل الغابة، فالبناء الذي صعدت فوقه، قد تحطّمت أرضية بعض طوابقه، في حين أن ما أوهمتني به من بناءٍ، قد كانت طوابقه سليمةً، ممّا ألهمني به الإدراك حينها، أن هنالك مَن يلعب بعقلي، ويوهمني أنني تهتُ داخل الغابة وسط الضباب، بل وأوهمتني أن عصاي قد فقدت قواها.

قالها ببساطةٍ ووهنٍ، قبل أن يتابع بنبرة تهديدٍ:

- والآن! أرشدني إلى المخرج من هذه الغابة اللعينة.

ردّ الجنّيّ متوجّعًا، وهو لا يزال يفرك عينيه كأنه يسعى لكبح جماح ألمه:

- فيما يبدو لي أنك فاقدٌ للبصر، فإنه واقع أمامك.

جالت عينا الفتى حوله، ليدرك صدق ما تفوّه به الجنّيّ، فقد وقعت عيناه على المخرج، والذي لا يعدو عن أنه فجوةٌ تعانقت حولها أغصان الأشجار، بل ووجد

كذلك أنه محاطٌ بآلاف الجثث المتراكمة من أقوامٍ تعدّدت أجناسها، ليسوا سوى ضحايا هذا المخادع، غير أنه اتّجه بهدوءٍ صوب مخرج الغابة، قبل أن يستوقفه الجنّيّ قائلًا، وقد عاد له بصره:

- هل من خدمةٍ تقدّمها لنا أيها الإنسيّ؟!

التفت إليه دون أن يعقّب، ليستأنف الجنّيّ قائلًا:

- أرأيت إن أهلكتَ هذه الغابة؛ كي أتحرّر؟ إن بوسعي أن أعاونك على...

قاطعه الفتى بنفاذ صبرٍ:

- ولماذا لا تتحرّر بنفسك؟!

- لأنني جزءٌ من هذه الغابة، وحتى الموت... لا يمنعني من التحرّر!

- أسبق لك أن متّ؟!

- أجل، كان ذلك حينما حاولت التوغّل داخل عقل الناجي الأول، ولكنني عجزت، فمرّ من جواري متجاهلًا لي، بيد أنه كان محاطًا بهيبةٍ زرعت داخلي هلعًا قد انتهى بقتلي.

- قتلك الهلع من ذلك الشخص؟

قالها الفتى مستنكرًا، ليُجيبه الجنّيّ:

- أجل، وبعثت مجدّدًا من الرماد، ولا أمل لي في التحرّر، سوى بقتل الغابة، فهلا مددت لي يد العون؟

قال بلا مبالاةٍ:

- لَمْ آتِ إلى هنا بغرض التنزّه! بل جئت لهدفٍ واحدٍ، ولا وقت لديّ أضيعه في هذه المهاترات.

وبمجرّد أن أنهى عبارته، حتى عاد مجدّدًا بين طيات عالم العدم، لتقع عيناه على (آرات) أمامه، والذي قال له متأمّلًا:

- عليَّ أن أهنّئك بخروجك من الغابة، وبتمتّعك بلقب الناجي الثالث.

- الناجي الثالث؟! لا أجد أحدًا نجا قبلي سوى الناجي الأول.

- هنالك ناجٍ ثانٍ، بيد أنه لم يتمّ تدوين اسمه؛ لسبب غير معلومٍ.

لم يكن يدري إن كان جادًّا، أم أنه يعبث به! في حين قال (آرات):

- أرى أنك أجهدتَ نفسك باستعمال مهارات الشمس.

- لكنني لم أستعمل منها سوى القليل.

- بل أكثر ممّا تتصوّر، إلّا أنك غفلت؛ كونك تستعملها منذ أن أهديتك إياها، وكذلك لم تعمل بنصيحتي، وهي أن تعرّضها لضوء الشمس؛ كي تستعيد قواها، وإلّا عرّضت نفسك للخطر.

- مهلًا... إن مَن أهداني هذه الشمس هي معلّمتك ذاتها! لا أنت! كما أن لونها الفضي تبدل إلى اللون الأبيض، ولا أذكر أن حدّثني أحدٌ عن أمر استعادة الشمس قواها.

اكتست الحيرة والصدمة وجه (آرات)، والذي قال متسائلًا، وقد فَقَدَ هدوءه:

- أيّ هراءٍ هذا الذي تفوّهت به؟! محالٌ أن قابلت ذاكرتها أبدًا! ثم أنّى لك بدراية أمر الشمس فضية اللون؟!

وجد (خرافة) نفسه مجدّدًا أمام شخصٍ يعاني من عطبٍ في الذاكرة، ثم لماذا بدا حانقًا لأمرٍ لا يستحق هذا الغضب كله؟! لذلك سأله:

- ما لي أراك متجهّمًا هكذا؟ ثم لِمَ أنت واثقٌ من كوني لم ألتقِ بذاكرتها؟

- لأنها وببساطةٍ لم تلج هذه الغابة أبدًا، ولا يمكن للذاكرة أن تبرز في مكانٍ لم يتواجد به صاحبها.

هنا... بدا الأمر واضحًا جليًّا، وإن كان لم يفسّر بعد حقيقة التي التقى بها، إذًا... لذلك قال:

- لعلّ الغابة أرادت اللعب بعقلي.

- هذا محالٌ، لا أحد بوسعه العبث بالذاكرة، لذلك أتصوّر أن الأمر قد اختلط عليك.

- إذًا... لعلّها ولجت الغابة سرًّا.

- ولا ذاك أيضًا، فقد سبق أن عقدت العزم في صباها على دخولها لتدميرها، لولا أن منعها أبوها، وأخذ منها وعدًا على ألّا تلجها أبدًا.

اعترت الحيرة الفتى... وهو يحاول جاهدًا استيعاب ما يجري له، لا يجد تفسيرًا سوى أن الغابة تعبث بعقله، أو أن هذا المدعوّ (آرات) يعاني من داء (أرغد) نفسه، لذلك قرّر تغافل الأمر، وسأله:

- سبق أن قلت لي إنني إن لم أعرض العصا أمام الشمس، لكنت في خطرٍ، فما هو مصيري إن تجاهلت تعريضها إلى الشمس؟

- الموت! لهذا أخبرتك بأن جنسك أضعف من أن يتحلّى بمهارات معلّمتنا، ولا علم عندي إن كنت تذكر هذه العبارة، أم توهّمت كونها صدرت من معلّمتنا أيضًا!

بدا (آرات) غاضبًا على غير عادته، ليقول ضاغطاً بيده على رأسه، وكأنه يقاوم صداعًا يكاد يفلق رأسه:

- بوسعك العودة إلى موضعك، فإنني أودّ أن أخلو بنفسي لبعض الوقت.

وقبل أن يحتجّ (خرافة)، وجد ما حوله يتلاشى تدريجيًّا، وهو غارقٌ في أعماق حيرته؛ بسبب تعكّر مزاج (آرات)، واعتراه الهلع حينما تخللت لُبَهُ فكرة كونه كاد أن يموت؛ وذلك لتغافله عن نصيحةٍ هو واثقٌ أنه لم يسمعها من قبل!

وبمجرّد أن عاد إلى عالم الواقع، حتى سار متّجهًا صوب مخرج الغابة، واهنًا، بالكاد يسعه جرّ قدميه؛ فقد أعياه ذلك الضباب اللعين، وما إن غادر الغابة، حتى ملأ رئتيه بالهواء، وعيناه تحدّقان بالفجر البازغ في الأفق، بينما واصل طريقه ناحية المشرق بوَهَنٍ.

حتى انتهى به المطاف إلى تمثالٍ لصبيٍّ يحمل سيفًا، وباليد الأخرى يحمل شيئًا ما لم يتبيّنه، ولم يتحمّل جسده أكثر من ذلك، ليسقط الفتى مغشيًّا عليه أسفل قاعدة التمثال، والتي شرعت تدوّن اسمه، بينما انبعث منها قرع نواقيس؛ إيذانًا بظهور ناجٍ ثالثٍ، ولم يمضِ من الوقت الكثير، حتى برزت ظلال قومٍ تسير متّجهةً ناحية التمثال بتوجّسٍ وحذرٍ، وجسد الفتى مسجيًّا أسفل منه.

***

الفصل التاسع:

الأرض السابعة

على جبلٍ بجوار مملكة (بارانية)... والعتمة تكسو سماءً قد تناثرت بها نجومٌ متلألئةٌ بضوءٍ خافتٍ، ويسبح بين جنباتها قمران أوشكا على الاكتمال، هنالك يقف رجلٌ ثابت النظر على المملكة متأمّلًا لها، وخيط الفجر يبرز بحياءٍ قبل أن يسمع مَن يسأله:

- أتخال الجنّيّ يصدقنا العهد، ويطلعنا على هويّة الجاسوس؟

التفت إلى مصدر الصوت، فوجده شيخًا شاحب الوجه، وذا لحيةٍ بيضاء مهذّبةٍ، ليُجيبه:

- ليس من الحكمة يا أمير (ذهيل) أن نمنح ثقتنا لجنّيٍّ، غير أنني لم أجد سبيلًا آخر لمعرفة هويّته سوى عبر ذلك الخسيس! والذي زعم أن الجاسوس يقطن مملكة (بارانية).

قال (ذهيل) بنبرةٍ شابها الأسى:

- ألا تزال تراني أميرًا؟ قد ولّى ذلك الزمان!

- بلى، لا تزال أميرَ مملكة (عاس-قان) المحتلّة، وستعود إليها أميرًا حال تحريرها.

كاد يردّ (ذهيل)، لولا أن سمعا مَن يهتف قائلًا:

- (داهي)! قد ظهر الجنّيّ.

هرع كلٌّ منهما ناحية مصدر الصوت، ليجدا ثلاثةً من الرفاق بصحبةِ جَدْيٍ أسود اللون، والذي نطق متهكّمًا:

- لِمَ هذا الجمع كله؟ ألهذه الدرجة تخشى الجنّ يا نصف-طين؟!

تجاهله (داهي)، وسأله:

- أعرفت هويّة الجاسوس؟

- وهل جلبت المقابل؟

أبرز قنّينةً قد احتوت على سائلٍ قرمزيّ اللون، قائلًا:

- هي لك... إن زوّدتني باسمه.

- ماذا لو أخذتها منك عنوةً؟

قالها الجنّيّ بنبرته التهكّمية، قبل أن يبرز جنّيّان ضخمان، رأسهما رأس ثورٍ، واستلّ أحدهما سيفًا هائل الحجم، أمّا الثاني... فشرع يتلو من كتاب تعاويذ، وذلك في الوقت الذي استلّ فيه (داهي) سيفه وفأسه، وألقى بالأخير على كتاب الجنّيّ، فاخترقه، ليتجاوزه فيستقرّ بصدره، ويصدر خوارًا؛ من شدّة الألم، غطى صدره دم أسود اللون، بينما انقضّ عليه الجنّيّ الآخر بسيفه الضخم، فيصدّه (داهي) بسيفه، والجنّيّ يزيد من شدّته على السيف؛ ينوي الوصول إلى جسد الرجل، والذي حال دون ذلك بسيفه.

ولم يجد حلًّا سوى أن نزع خنجرًا من حزامه، وطعن فخذ الجنّيّ به، ليصدر منه خوارًا متألّمًا، قبل أن يخرسه، بأن فصل رأسه عن جسده بسيفه، وهَمَّ أن يقتل الجنّيّ الآخر، لولا أن رأى (ذهيل) وباقي الرفاق قد أجهزوا عليه، بينما اختفى ذلك الجنّيّ على هيئة الجَدْيِ.

فجالت عيناه تبحثان عنه، حتى لمحه يركض مبتعدًا، ليشير إلى (ذهيل) عن موضعه، فيرمي الأخير سهمًا اعترض طريق الجنّيّ، فاختلّ توازنه، ووقع أرضًا، وما إن عاد واقفًا على قوائمه، حتى أحاط به (داهي) ورفاقه، والذي قال له بنبرةٍ صارمةٍ:

- أريد اسم الجاسوس.

- أرجوك... اقطع لي عهدًا بألّا تقتلني.

استحثّه الرجل بأن استلّ سيفه، ليهتف الجنّيّ فزعًا:

- أقسم لك بالنار الأبدية ألّا علم لي عن اسمه، كل ما أعرفه أنه يقطن قرية (دارناج).

قطع (داهي) أحد قوائم الجنّيّ، ليصرخ متألّمًا، وقد سال دمٌ أسود نتن الرائحة، ليقول الجنّيّ:

- لو قطعت قوائمي جميعها، فإن ذلك لن يغيّر حقيقة كوني أجهل هويّة الجاسوس.

- سأتظاهر بتصديقك، وطالما لم تعد لي حاجةٌ بك، فالوداع إذًا.

وتأهّب لطعنه بسيفه، قبل أن يهتف الجني جزعًا:

- لكنك قطعت لي عهدًا بألّا تقتلني.

- لا أذكر أنني قطعت عهدًا لأمثالك، لكن إن أردت عهدًا، فإنني أعاهدك أن أطهّر الأرض السابعة منكم يا قطع النار! ولن أذر من أجسادكم سوى الرماد!

ما إن قالها، حتى اخترق نصلُ سيفه جسدَ الجنّيّ، والذي اشتعل محترقًا، حتى تحوّل إلى رمادٍ، ثم اعتدل بعدها واقفًا، فيسير بخطواتٍ ثابتةٍ متّجهًا إلى حافّة الجبل، يتبعه رفاقه.

"على الأقلّ... تمّ حصر البحث حول قرية (دارناج) فقط"، قالها في نفسه وعيناه تراقبان قريةً قد اكتست خضرةً، وتراصّت بين جنباتها مبانٍ متساوية الصفوف على هيئة جذوع الشجر، وإشراقة شمسٍ شديدة البياض قد عمّت أرجاء المملكة، وتزامن ذلك مع أصوات قرع نواقيس، تنبعث من ناحية القرية، معلنة عن ظهور ناجٍ ثالثٍ.

***

أمام قصر عظيم، يقع بالعاصمة الملكية لدى مملكة (بارانية)... إذ تجمّد حارسا بوابة القصر، بعد أن وقعت عيناهما على رجلٍ قاسي الملامح، فارع الطول، أسود الشعر ينسدل من خلفه، عبر الباب متّجهًا صوب عرش الملك، وما إن يلمحه أحد الحرس، حتى يتجمّد واقفًا، ليمرّ الرجل فارع الطول من بينهم يتابع طريقه، حتى انتهى به المطاف إلى قاعة الحكم، حيث سجد بين يديّ الملك قائلًا بتبجيلٍ وإجلالٍ:

- الملك المبجّل والمفدّى (أسْدان)، ملك مملكة (بارانية)، إن سيفك وخادمك المخلص (نِصَال) يمثل بين يديك.

هتف شابٌّ أشقر الشعر _يجلس بجوار الملك_ بنبرةٍ متجهّمةٍ لا تخلو من التعالي:

- لا تنسَ ابنه وولي عهده الأمير (سادان)، وحفيد سلسلةٍ من الملوك تنتهي بجدّي الأعظم والمؤسس (باران) يا خادم المملكة.

تجاهله الرجل... في حين رمق الملك (أسدان) ابنه بنظرةٍ متجهّمةٍ قبل أن يعود، فيلتفت إلى المكلّف (نصال)، ليقول _وقد ارتسمت بثغره ابتسامةٌ أبويّةٌ فخورةٌ_ للرجل الساجد بين يديه:

- (نصال بن يَحْيان)... (المكلّف بحماية الديار)... انهضْ وأنبئني بخبر تلك النواقيس التي اقتحمت آذاننا هذا الصباح.

اعتدل المكلّف واقفًا، وقال:

- أرسلت أحد أعيني إلى قرية (دارناج)؛ لتقصّي الحقيقة، وأنبأني أن هنالك ناجيًا من غابة (مرثار).

اتّسعت عينا الملك، وقال بنبرةٍ شابها الفضول، مداعبًا شاربه الأشقر الكثّ:

- أتعني أن هنالك ناجيًا ثالثًا؟! إن أمرًا كهذا، لم نعهده منذ آلاف السنين، يتوجّب علينا إرسال أحدٍ؛ للترحيب به.

- أيسمح لي الملك المبجّل أن أكون أنا ذلك الشخص؟

قالها (نصال)، في حين ردّ عليه الملك ببساطةٍ:

- كلّا... إنك قد تثير مخاوف أهل القرية؛ كونك قائد جنودي، ولا أرضى بهذا لرعيّتي، لذلك سآمر (المكلّف بالخير) أن يعرج إلى أهل القرية، ويغدق عليهم بالأعطيات؛ نظير هذه المناسبة.

أطلق الأمير (سادان) ضحكةً عاليةً، قبل أن يقول متهكّمًا:

- لعلّ خادمك أراد أن يزور صنم جدّه الشيطان اللعين (إيديموليست) الواقع ما بين الغابة وقرية (دارناج)!

رمقه (نصال) بنظرةٍ ناريةٍ بعينه فضية اللون، ليشحب وجه الأمير، وتتجمّد الدماء في عروقه، قبل أن يبتسم ابتسامةً متكلّفةً تخفي الهلع خلفها، ليقول الملك متجهّمًا:

- ألا انشغلنا لما هو في صالح المملكة؟!

في حين قال (المكلّف):

- أيسمح لي الملك المبجّل بالانصراف؟ إذا لم يكن هنالك أمرٌ آخر يسعني فيه خدمته.

أشار له الملك بالمغادرة، ليعود فيسجد له، قبل أن يعتدل واقفًا متّجهًا إلى خارج القصر، وما إن غاب عن ناظريهما، حتى قال الملك بنبرة غضبٍ، موجّهًا حديثه تجاه ابنه:

- ألن تكفّ عن مضايقة المكلّف (نصال)؟! كما أن نسب قومه إلى الملعون دائمًا (إيديموليست) لا يعدو عن كونه مجرّد إشاعةٍ لم تثبت صحّتها، وإن صحّت، فإنه سليل عائلةٍ خدمتنا، منذ جدّي الأعظم المؤسس (باران)، بل إن والده (يحيان) مات مقتولًا بيد غادرةٍ كادت أن تقتلني، وإن ابنه ذاك يحلم أن ينال شرف أبيه ذاته،

وصدّقني... لا أحد على استعدادٍ أن يفدي بروحه في سبيلي وسبيل مملكتنا العظيمة أكثر منه.

- أخشى أنه سينْحرك يومًا ما؛ جراء ثقتك الزائدة به!

قالها الأمير قبل أن يغمغم: "ما إن أتولّى مقاليد هذه الأرض الخربة، حتى أتخلّص من أعوان أبي جميعهم، وأوّلهم ذلك الحقير (نصال)، بل سأتكفّل بإعدامه بيدي!".

ثم انتبه إلى أن صوته قد وصل إلى مسامع الملك، ليُتابع محرجًا:

- بالطبع! بعد عمرٍ طويلٍ يا أبي الملك!

بدا الملك محبطًا من سخافة ابنه، فهو يعلم في نفسه مدى غيرته من (نصال)، فلا يوجد شخصٌ مقرّبٌ إلى أبيه الملك أكثر منه، ولو كان (نصال) ابنًا له، لغدا وليًّا للعهد بدلًا من ابنه الأحمق هذا، إنه لا يجد فرصةً إلّا ويسعى فيها لإثارة غيظه، بل وقد وصل به الأمر... أن ابتاع إحدى محظيّات القصر؛ فقط لعلمه أنها و(نصال) مغرمان ببعضهما!

ثم قال في نفسه: "إنه يسعى إلى هلاكه، ولن أتعجب إن انتهى به المطاف منحورًا على يد (نصال)؛ ذلك كله بسبب تدليل أمه الملكة له".

***

كان ذلك منذ خمس سنواتٍ... حينما بلغ من العمر ستّة عشر ربيعًا، حيث اندفعت أفواجٌ من أبناء سادات القبيلة والقبائل المجاورة لها يطرقون باب (غزالة)؛ لطلب يدها من أبيها، وكم تألّم حينها في قرارة نفسه! فمهما وصلت به الحال، فلن يعدو عن كونه مجرّد واحدٍ من رعاة الإبل.

في حين أنها ابنة سيدٍ من سادات (بني عذرة)، كان ليتقدم لها، لولا هذا الحاجز القابع بينهما، إن الوصول إلى نجمةٍ في السماء أيسر له من الوصول إليها، وبينما هو يهيم في الطرقات مهمومًا، إذ سمع (سعدون) يُناديه:

- هيه! أنت يا راعي الإبل! أقبِلْ إليَّ.

اتّجه نحوه _على مضضٍ_ وهو لا يدري ما يريده منه على وجه التحديد، وما إن دنا منه، حتى دسّ بيده رسالةً مطويةً، قائلًا:

- أودّ منك أن تسلّمها لشخصٍ بعينهِ.

ردّ (خرافة) له الرسالة، وسار في وِجهته صوب داره، قائلًا:

- لست عاملًا لديك، أو حتى عبدًا! كي ألبّي لك حاجتك.

قال له بخبثٍ:

- إنها موجّهةٌ إلى (غزالة).

وما إن لامس مسامعه اسمها، إلّا وعاد إليه، وتناول الرسالة منه دون جدالٍ، ثم اتّجه صوب دار (غزالة)، ليهتف الشابّ قائلًا بنبرةٍ متهكّمةٍ:

- مهما صعد الوضيع، فلن يرتقي إلى غير ما هو عليه!

لم يَعِ ما تفوّه به، ليتجاهله ويواصل طريقه نحو (غزالة)، والتي أحاطت بها صديقاتها؛ واللاتي قد انخرطن في الحديث داخل حديقة أبيها، وما إن شاهدنه مقبلًا إليهن، حتى ابتعدن يتهامسن ويتضاحكن، ليختلي بـ (غزالة)، والتي بمجرّد أن وقعت عيناها عليه، حتى أشرق وجهها ببسمةٍ رقيقةٍ، ورحّبت به بحياءٍ، ليردّ لها التحية، قبل أن يسلّمها الرسالة، لتسأله بفضولٍ عن صاحب هذه الرسالة.

ليُجيبها... بأنها من (سعدون)، فتقتحم قسمات وجهها خيبة الأمل، وتلقي بها بين حاجياتها، قبل أن تسأل:

- أعلمتَ بأمر المتقدّمين لخطبتي؟

أجابها بنبرةٍ شابها الأسى بـ نعم، لتعود فتسأله:

- وما رأيك؟! أتنصحني بقبول خطبة شخصٍ ما؟!

- لا أظنّ أن بوسعي إفادتك؛ فلست فتاةً.

- أمّا عنّي... فأنا فلم أَرْضَ بأيٍّ منهم؛ لأن هنالك مَن تعلّق به قلبي.

علت رأسه علامة استفهام هائلة الحجم!! يكابد ويحاول أن يعرف ذلك الشخص، في حين طرأ هاجسٌ بداخله يهتف: "أخبرها بمشاعرك تجاهها؛ إنها فرصتك الأخيرة"، غير أنه تجاهله، ويجدها تسأله:

- ألا تودّ أن تحيط علماً باسمه؟

مجدّدًا يعود الهاجس فيخبره: "أجبها بـ نعم، فأنت على أحرّ من الجمر، وتودّ معرفته"، أجابها ببساطةٍ:

- كلّا.

- لكن عينك تقول عكس ذلك، فمن الواضح أنك ترغب بشدّةٍ في معرفته، وبما أنك تهوى الأحاجيّ، لذلك سأمنحك بعض الإشارات، وعليك الاستنتاج! لكن لا تشغل بالك، فهو ليس بالعسير عليك معرفته، وأول إشارةٍ أنه لم يتقدّم لخطبتي حتى هذه اللحظة!

استبعد جميع مَن تقدّم لها، وعقله يعمل بسرعةٍ؛ لجمع كل مَن لم يتقدّم لها داخل خانةٍ واحدةٍ، في حين تابعت قائلةً:

- وهو يعمل في رعاية الإبل!

يعود فيستبعد عددًا من الرجال، ولا يزال العدد ليس بالقليل، لتُتابع قائلةً:

- وآخر إشارةٍ له هو أن اسمه يبدأ بحرف الخاء.

استبعد الجميع... ولم يبقَ سوى اسمٍ واحدٍ فقط، قد توافقت فيه الصفات جميعها! حينها اتّسعت عيناه من فرط الصدمة، وتراجع خطوةً إلى الخلف، في حين تورّد وجهها حينما لاحظت إدراكه أخيرًا هويّة مَن تعني، بيد أنه سألها، وقد لفتت نظره ملحوظةٌ مهمّةٌ:

- لكن... أليس هو بعمر أبيكِ؟!

مجرة الناجي الثالث

ردّت متسائلةً بصوتٍ مختنقٍ:

- مَن تعني؟

- العمّ (خزاعة) راعي الإبل.

انتفخت أوداجها! وهتفت! وقد تبدّل تورّد وجهها إلى الاحمرار؛ من شدّة الغضب:

- ليس العمّ (خزاعة) ما أعني.

- إذًا مَن؟

- إنه أنت أيها الأحمق!

- أنا؟ ولماذا أنا دوناً عن سواي؟!

- لأنني أضاهيك حماقةً.

ثم أولت له ظهرها، والتقطت نفسًا عميقًا، قبل أن تقول بنبرةٍ هادئةٍ:

- إن الفتاة الساذجة هي التي تميل إلى الرجل الثريّ أو القويّ أو جميل الصورة أو صاحب الحسب والنسب، إلى شخصٍ تتباهي به أمام نظيراتها، لكن الشخص الذي شغف قلبي حبًّا هو الذي لا ترى عيناه سوى وجهي، ولا يخفق قلبه لغيري، هو الشخص الذي يستعدّ لبذل حياته من أجلي.

هتف بحماسةٍ:

- وهو المستعدّ للموت في سبيلك.

ابتسمت، وهي تتابع قائلةً:

- إن المحيطين بي جميعهم قد انشغلوا بمظهري أو بوجاهة أبي، لكنك فقط الذي تغلغل داخل أعماقي، فحينما تغدو بجواري، أشعر ساعتها أننا معًا في سماءٍ منعزلةٍ عن الوجود.

***

أفاق (خرافة) داخل إحدى الحجرات، هو واثقٌ أنه لم يلجها قطّ من قبل، غمرته سعادةٌ؛ لأنه نجا _وأخيرًا_ من تلك الغابة اللعينة، جالت عيناه أرجاء الحجرة، والتي بدت مختلفةً عمّا عهده لدى قبيلته، جدرانها صفراء فاقع لونها، ذات نافذةٍ قد تسلّل منها ضوء الشمس شديد البياض، أغطية الفراش كهرمانية اللون، بدت وكأنها نُسجت من الحرير.

هَمَّ بالنهوض من الفراش، لولا أن أدرك كونه عاريًا تمامًا، ليُطلق سبّةً! قبل أن يعود متدثّرًا بغطاء الفراش، وعيناه تجولان بحثاً عن ردائه، ولم يتسنى له إلّا أن يجد عصاه التي تمّ إسنادها بجوار الباب، والذي فُتِحَ وولجت عبره امرأةٌ، كان من الممكن القول إنها بارعة الجمال، لولا وجود بروزٍ بأنفها وشَفَتِها العليا، لتبدو أقرب إلى أرنبةٍ منها إلى امرأةٍ! وقالت بنبرةٍ مرحةٍ:

- إذًا... فالناجي الثالث قد استيقظ أخيرًا... أعرّفك بنفسي... أُدعى (إلنا)، وقد تطوّعت...

قاطعها متشبّثًا بالغطاء؛ كأنه يخشى أن يسقط منه، وبدا بوجهٍ قد اشتعل احمرارًا؛ من فرط الخجل:

- أين ردائي؟ أخبريني يا امرأة!

- يا للشمس الأبدية! إن الإنس لا يحسنون الحديث بلباقةٍ!

قالتها بنبرةٍ محبطةٍ، قبل أن تُتابع:

- كانت ثيابك وسخةً وممزّقةً، لذلك خلعتها؛ كي أغسلها وأخيطها لك.

ازداد احمرار وجهه، وهو يهتف متجهّمًا:

- أنتِ؟! أما كان الأوْلى أن تتريّثي، حتى أستيقظ وأخلعها بنفسي، أو على الأقلّ... أن تخلعها امرأةٌ مسنّةٌ؟!

داعبت شعرها أحمر اللون، وهي في حيرةٍ من أمرها؛ فهي في البدء لم تفهم ما يعنيه، حتى قالت بعدما أدركت مغزى حديثه:

- لا تنخدع بمظهري! فإن عمري أكبر ممّا تتصوّر، فعمري يزيد عن المائة عامٍ!

- لا تكمن الإشكالية هنا!

- كما أن عمر أصغر أبنائي يفوق عمرك.

- صدّقيني، ولا هنا تكمن كذلك!

- لكن لا تشغل بالك، سأبعث عمّن يأتي لك ببعض ثياب زوجي؛ فإن مقاسه يقارب مقاسك جدًّا.

وهمَّت بمغادرةِ الحجرة، لولا أن أحيطت بجمعٍ من نسوة القرية، وقد ولجن دون إذنٍ، وهنّ يرددن مقولة (ديلوس)، وأعينهن مثبّتةً بالفتى، ممّا زاد وجهه احمرارًا، وزاد من تشبّثه بغطائه، خاصةً بعد أن امتدّت بعض الأيادي إلى غطاء الفراش! وبدا الأمر يفوق الاحتمال، لينفجر بهن غاضبًا:

- غادرن جميعكن الحجرة فورًا! وليأتني أحدٌ برداءٍ!

ارتعدت النسوة هلعًا، وغادرن الحجرة على الفور، وقد سمع منهن مَن تقول:

- حقًّا... إن الإنس متعكّرو المزاج!

ولم يمضِ كثيرٌ من الوقت... حتى جاءته (إلنا) برداءِ زوجها، والذي ما إن غادرت الحجرة، حتى شرع يرتديه بسرعةٍ، وكان لا يخفى عنه الإحباط، أين التقارب في المقاس بينه وبين زوجها؟! إن هذه الثياب تناسب عصاه أكثر منه! من الواضح أن زوجها نحيلٌ بصورةٍ مفرطةٍ.

حرص على أخذ عصاه والصرّة معه، وما إن غادر الحجرة، حتى وقعت عيناه على المرأة متّكئةٌ بأحد المقاعد، والتي اعتدلت واقفةً بمجرّد أن لاحظت وجوده، وأشارت إلى المائدة القابعة في منتصف الحجرة، قائلةً:

- قد أعددت لك طعامًا، ما الشراب الذي تفضّله؟

- اللبن أو الماء، لكن ألن يأتي صاحب الدار للغداء معي؟

- هذه الدار هي دار الناجي، أيّ أنها دارك أنت! ولم يسكنها قبلك سوى الناجي الأول فقط، أمّا زوجي، فيبدو أنه قد ولج تلك الغابة، ولم يعد حتى هذه اللحظة.

قالتها وقد امتلأ وجهها بأمارات المرارة واللوعة، وهمّت بمغادرة الدار، لولا أنه استوقفها مناديًا لها، لتلتفت إليه بوجهٍ متسائلٍ، فيُخرج صرّةً من جيبه، ويقدّمها لها، ليتحوّل وجهها المتسائل إلى خيبة أملٍ، وقالت:

- قد تطوّعت من بين عشرات النسوة؛ لخدمة الناجي الثالث، ليس طمعًا في أيّ مقابلٍ، سوى شرف هذا العمل.

- أعتذر إن تسبّبت في إهانتك، لكن هذه ليست صرّة نقودٍ، بل هي هديّةٌ! وهي بذور (النارجسيل).

لم يخفَ عليه مدى شغف قومها إلى الفاكهة، وأن وقع الاسم وحده قد يُصيبها بالجنون، وهذا ما حدث بالفعل، إذ انقضّت على الصرّة تفتحها بعينيها المتّسعتين، وتتحسّس البذور بيدها بشغفٍ! قبل أن تهتف باسم الفاكهة متسائلةً، ليُجيبها ببسمةٍ تنمّ عن صدق مزاعمه، عالماً مدى ولعهم بها، والتي لم يعد لها أيّ وجودٍ، وفقًا لما أنبأه به (يخالف ذاته).

وهنا... خطر على باله أمر ذلك الشابّ، ليسأل المرأة المنهمكة بالبذور:

- أتدرين أين كان يقطن (يخالف...)... أعني (أرغد بن شمشيق) وزوجته (إينار)؟

- سبق أن سمعت عنه _على ما أذكر_ فهو من بين المفقودين الذين ولجو الغابة ولم يخرجوا منها أبدًا، أمّا عن داره، فهي تقبع بالقرية المجاورة لنا.

- إذًا... سأزوره الآن فورًا.

- لكنك بالكاد لمست طعامك! كما أنك لا تزال بحاجةٍ للراحة!

- إنه ديْن، قد أثقل كاهلي، وعليَّ ردّه في أقرب وقتٍ ممكنٍ.

قالها (خرافة) وهو يبحث داخل جيوب ردائه، قبل أن يشحب وجهه، لقد فقد الحجر، قبل أن تفطن الفتاة عمّا كان يبحث، وتخرج من جيبها حجر المعرفة، ليلتقطه منها بلهفةٍ، قبل أن يسمعها وهي تقول له:

- إن كنت مصرًّا على الخروج إلى القرية المجاورة، فأنصحك أن تصحب معك (جَارِفْ)؛ فهو يعرف الطرق جيدًا، ويسره أن يمد يد العون لك، وسأصحبك بنفسي إليه.

***

الفصل العاشر:

مَن الذي أفزع (إينار)؟

ما إن غادر داره الجديدة، حتى استقبله ضياء شمسٍ، شديدة بياض اللون، تعانقه بدفئها، تتوسّط سماءً فيروزيةً، تناثرت بها سحبٌ بيضاء، واقتحمت أذناه أصوات معازف قد تخلّلت وجدانه، وتراقصت مع روحه، لتجول عيناه في أرجاء القرية؛ بحثًا عن مصدر هذه الموسيقى العذبة، وسط أراضٍ اكتست خضرةً، وهو أمرٌ لم يعتده؛ نظرًا للبيئة الصحراوية القادم منها.

ولفت نظره أن الديار مبنيّةٌ على هيئة جذوع أشجار، تعلّق بأغصان كل منها ما يشبه المشكاة، وسمع جمعًا من الصبية يتهامسون متوارين خلف الشجيرات، والتقط عبارة (ديلوس)، ولم يدرك معناها، حتى سمع مَن يقول له:

- إذًا... فقد أفاق الناجي الثالث.

التفت إلى مصدر الصوت، فوجده شابًّا ضيّق العينين، نحيل الجسد والرأس، شديد بياض الشعر، ارتسمت بثغره ابتسامةً هادئةً ومرحّبةً، قبل أن يردف:

- أُدعى (نَهَار بن سَعْفَان).

ثم أشار إلى شابٍّ أسود البشرة، غزير شعر الرأس، من الواضح أنه عبد هذا المدعوّ (نهار)، والذي أردف قائلًا:

- وهذا صديقي (هادِن بن يَرْبَح).

"صديقه!" قالها في نفسه متعجبًا! فمن الواضح أنه قد تمّ عتقه من العبودية، غير أنه نحى هذه الأفكار جانبًا، وأشار إلى صدره، وهَمَّ أن يُعرّف بنفسه، قبل أن يسبقه (هادن) قائلًا:

- (خرافة العذري).

غمرته الحيرة؛ بسبب معرفته لاسمه، وقد ابتسم الشابّان؛ وكأنهما توقّعا ردّة فعله، ليقول له (هادن):

- إنه مكتوبٌ على التمثال المقابل لغابة (مرثار).

كاد يسأله... أيّ تمثالٍ يقصد... لولا أن سمع (إلنا) _والتي غادرت الدار لتوّها_ ترحّب بـ (هادن) و(نهار)، فردّا تحيّتها، وسألها الأخير:

- أماضيان إلى مكانٍ ما؟

- إننا متّجهان صوب دار (جارف)؛ كي يصحب الناجي الثالث إلى قرية (بلنور).

سأل (نهار) بفضولٍ... موجّهًا حديثه إلى (خرافة)... إن كان على معرفةٍ بأحد قاطني القرية، ليُجيبه الفتى بأنه لقي أحدهم داخل الغابة، وينوي تنفيذ وصيّته، ليقول له (نهار):

- إنه عملٌ نبيلٌ منك، لكن دعْني أسألك، هل التقيت بـ...

قاطعه (هادن) بنبرةٍ معاتبةٍ:

- لا يتوجّب علينا إزعاج الناجي الثالث بالأسئلة حول أقاربنا المفقودين، فلنسأله لاحقًا، فإن تنفيذ الوصية واجبٌ عليه.

ابتسم (نهار) حرجًا، قبل أن يُتابعا طريقهما بعدما ودّعا الفتى و(إلنا)، وقد سارا في طريقهما متّجهين صوب دار (جَارِفْ)، ليقول لها (خرافة):

- إنه ليسعدني أن أرى عبدًا قد أُعتق من عبوديته.

توقّفت (إلنا) عن السير، وبدت في حيرةٍ من أمرها، فتسأله عن أيّ عبدٍ يعني، ليُجيبها بأنه يقصد (هادن)، لتقول:

- إنه لم يكن عبدًا أبدًا! كما أننا لا نستعبد أحدًا، ولا نفرّق بين ألوان البشرة، فالكل سواسية لدينا.

صمت مفكّرًا: "لعلّهم لا يستعبدون إلّا الأجناس الأخرى إذًا، وإلّا... فلماذا أولئك الجنّ الثلاثة أرادوا سبيه؟!"، ثم سألها وعيناه تجوبان حوله:

- لاحظت أن قريتكم تنتشر فيها صور رجلٍ، تبدو عليه أمارات الهيبة والوقار، فمَن يكون؟

- إنه المبجّل (أسدان)، ملك مملكة (بارانية)، لا أحد يعدله في حبها، وما يبذله من جهدٍ لصالحها وصالح رعيّتها، إنه لقلّما يجد وقتًا للنوم وسط مشاغله!

أطلق صفيرًا ينمّ عن التعجّب والانبهار! قبل أن تقتحم أذنيه بعض الأصوات التي صدرت من صبيةٍ بالجوار، ومجدّدًا يتكرّر لفظ (ديلوس)، ليلتفت إلى (إلنا)، ويسألها بفضولٍ أثناء سيرهما، حول معنى هذه الكلمة ذات الوقع الأجنبيّ، فتُجيبه:

- إنها كلمةٌ بلغة القدماء، وتعني (الناجي)، وهو اسمٌ اشتهر به (إيديموليست) الناجي الأول، وهو شخصٌ ممقوتٌ لدى العشائر جميعها، وإن كان هنالك مَن يعبده سرًّا، وهي تعدّ جريمةً، وإن ثبتت، فيتمّ قتل صاحبها فورًا.

بينما كان الفتى ينصت لحديثها، إذ اقتحم لبّه سؤالٌ: "ماذا عن الناجي الثاني؟!"، فلا أحد يذكر عنه خبرًا! بل حتى (إلنا) ذاتها قالت إنه لم يسكن أحدٌ بدار الناجي قبله، سوى الناجي الأول، إذًا... ماذا عن الثاني؟!

سألها عمّا يدور بخاطره، لتُجيبه بأن القوم الذين سكنوا قبلهم، لم يتكهّنوا لحقيقته، فقد قرعت نواقيس التمثال معلنةً عن نجاة شخصٍ ما، بل حتى التمثال ذاته المكلّف بتدوين اسم كل مَن ينجو من غابة (مرثار)، قد خلّف مساحةً فارغة لموضع اسم الناجي الثاني، وإلى يومنا هذا لا علم عن هويّة ذلك الشخص، ليسألها الفتى وهو في حيرةٍ من أمره:

- أيعرف التمثالُ أسماء الناجيين من الغابة؟

أجابته:

- بكل تأكيدٍ، إنه مسحورٌ، وبوسعه كشف هويّة أيّ شخصٍ، وإن الاسم الذي كتبه كان (خرافة العذري)، أليس هذا اسمك؟

إنه واثقٌ من كونه لم يذكر لهم اسمه، إذًا... فقد صدقه القول ذلك المسمى (هادن)، ولفت نظره لطف أهل القرية، خاصةً حينما تقع عيناه على أحدهم، فترتسم بشفاههم ابتساماتٌ متكلّفةٌ مصطنعةٌ وسط ملامح بؤسٍ وعناءٍ، لكن ما سرّ الغمّ الذي ألمّ بهم؟! كاد يسألها، لولا أن سبقته قائلةً:

- ها قد وصلنا إلى دار (جارف).

طرقت باب الدار بضع مرّاتٍ، لتفتح صبيّةٌ، يعلو رأسها شعرٌ برتقالي اللون، وقد فاجأها وجود شخصٍ غريبٍ، قبل أن يبرز من خلفها أبوها، مربوع الجسد والرأس، والذي ما إن وقعت عيناه على الإنسيّ، حتى هتف به مرحّبًا:

- يا للشمس الأبدية! إنه لشرف لي أن أستقبل الناجي الثالث بداري!

هَمَّ (خرافة) أن يتفوّه بحديثٍ ما، قبل أن تسبقه (إلنا)، وتنبّئ (جارف) بأمر ضيفهم الراغب في زيارة قرية (بلنور) على وجه السرعة.

ليسأله، وهو يحكّ فكّه العريض:

- إنه ليغمرني سعادةً بصحبتك إلى القرية، لكن... هل من سببٍ يدعوك إلى زيارتها؟

أجابه (خرافة):

- إن عليَّ ديْنًا لدى أحدٍ ممّن التقيت بهم داخل الغابة، واسمه (أرغد بن شمشيق)، وأرغب في ردّ هذا الديْن.

- لم ألتقِ به من قبل، وإن كنت أعرف أخاه، وسأوصلك إليه حالًا.

ودّعتْهم (إلنا)، قبل أن تتّجه صوب دار (ركن القرية)؛ لتبشّره بما تحمله من غنيمةٍ بين يديها، إن أهل القرية سيجنّ جنونهم إن علموا بأمر بذور (النارجسيل)، في حين لحق (خرافة) بـ (جارف)، حتى انتهى بهما المطاف إلى حديقةٍ تعجّ بما يشبه السحالي ضخمة الحجم مختلفة الألوان، يصل حجمها إلى حجم الجمل! وحيَّ (جارف) صاحب السحالي الضخمة، واكترى منه سحليتين، وشاهده (خرافة) وهو يمتطي أحدها بسلاسةٍ، ليكرّر فعله، والدهشة لا تفارقه، في حين ابتسم رفيقه قائلًا بفخرٍ:

- يبدو لي أنها أول مرّةٍ تقع فيها عيناك على (القرازيح)!

ردّ الفتى ساعيًا لمواراة انبهاره؛ كي لا يبدو صبيًّا ساذجًا:

- إن لدينا مثلها، وإن كانت صغيرة الحجم، وإن أكبرها هو بحجم الذراع، حقًّا إنك طالما تعيش، سترى العجب!

وسارت بهما السحالي الضخمة، في حين تكرّرت أصوات المعازف التي اقتحمت أذنيّ (خرافة)، الذي سأل بفضولٍ حول السرّ وراء سماعه لأصوات الموسيقى رغم عجزه عن رؤية مَن يعزف، ليُخبره (جارف) بأنها الأزهار.

ليتحوّل الفتى ببصره إليها، ولم يظهر عليها أيّ اختلافٍ عن مثيلاتها في عالمه، وتغلغل الضيق داخل صدره، وتساءل في نفسه: "أتراه يهزأ بي؟!"

ثم سمع (جارف) يقول:

- لحسن حظك... القرية ليست بعيدةً عنّا، وأرجو ألّا يزعجك فضولي، لكن ما هي قصّة الديْن الذي تنوي ردّه؟

حكى له (خرافة) قصّته كلها مع (أرغد)، ما عدا الخلاف الذي جرى بينهما، واستمع له ما بين مصدّقٍ ومشكّكٍ، قبل أن يقول له:

- إن هذا من أعجب ما سمعت، وإن قومي لفي شوقٍ لسماع حكايتك داخل الغابة الليلة، بل إن أفرادًا من القرى الأخرى قد وفدوا إلى قريتنا؛ بمجرّد أن علموا بظهور ناجٍ من الغابة.

بدا الانزعاج يحتلّ قسمات (خرافة)؛ فإنه بالكاد نجا من تلك الغابة، ولم يكن ليطرب بتذكّر أحداثها وحكيها إلى القوم، وكاد أن يحتجّ أو يرفض، لولا أن تذكّر أنه ضيفٌ في القرية، وقد أحسن أهلها ضيافته، لذلك أجابه بأنه من دواعي سروره ذلك، لتغمر (جارف) السعادة، والذي سأله إن سبق وصادف أيّ أحدٍ من أهل القرية أو من القرى المجاورة، ليُجيبه الفتى بالنفي، فيقول (جارف) ساعيًا للتعلّق بالأمل:

- لكن... طالما نجا أحدٌ من غير الأقوام التي سبقتنا، فإن ذلك يمنحني الأمل بأن ينجو غيرك!

- إنني أبغض أن أسبّب لك الإحباط، لكن الخروج من هنالك هو أدنى من المحال، فلولا مؤازرة الغير لي والحظ الوافر، لما تمكّنت من البقاء حيًّا ولو لساعةٍ واحدةٍ!

- لا وجود لما يُسمّى بالحظ! إنما هي الشمس الأبدية، والتي منحتك رعايتها، وأنا أصلّي لها يوميًّا أن تنجّي أخي وسائر القوم الذين دخلوا الغابة.

كاد (خرافة) أن ينبئه بأمر ضياء الشمس والذي بالكاد يجد متّسعًا للتغلغل داخل الغابة! لكنه آثر عدم إهانة عقيدته، قبل أن يسأله سؤالًا يشغل باله:

- ما السرّ الذي يكمن خلف ولوج قومك الغابة، مع علمهم أنه لا أحد نجا منها منذ مئات آلاف السنين سوى فرديْن فقط؟! ألا يعدّ ذلك ضربًا من الجنون؟! أو ربما الانتحار؟!

- إنه الفقر! فإننا منذ سنواتٍ ونحن نعاني منه، والملك المبجّل (أسدان) يفعل ما بوسعه؛ كي يوفّر لنا احتياجاتنا، لكن يوجد هنالك كنزٌ داخل طيّات الغابة، ومَن يملكه، فإنه يملك العالم، لذلك قضى الملك المبجّل ومن قبله من الملوك بأن مَن يعثر عليه، سيجعله وأهله من المقرّبين عنده.

قال في نفسه مفكّرًا: "ألهذا السبب يعتريهم البؤس والغمّ؟"، قبل أن يوجّه حديثه ناحية (جارف) قائلًا:

- مجدّدًا... لا أودّ أن أحبطك وأحبط قومك، لكن لا يوجد هنالك أيّ كنزٍ، ولا يعم أرجاء الغابة سوى الموت! وإنني والله لو أعلم أن داخل تلك الغابة اللعينة ما يجعلني أملك العالم بما فيه، لما خطّت قدمي جواره؛ لأنه لا شيء يستحقّ الجحيم الذي مرّرت به!

سأله (جارف) عن الدافع الذي أغراه إلى ولوج الغابة طالما كونه يرى ألّا شيء يستحق هذا العناء مهما علا شأنه، ليحكى له (خرافة) أمر زوجته (غزالة)، والداء الذي اعتراها، والعلاج الذي يبحث عنه، ليقول (جارف) محتجًّا:

- لكنك مع ذلك... عرّضت نفسك للخطر!

أجابه الفتى:

- وهل تعدل كنوز الأرض زوجتي؟!

أطلق (جارف) ضحكةً قبل أن يقول متهكّمًا:

- صدّقني... لو كنت بموضعك، وأصيبت زوجتي بالداء ذاته، لملأت الأرض رقصًا وعزفًا، ولأولمت لأيامٍ وليالٍ!

ثم انتبه إلى ما قال، ليُتابع هامسًا لـ (خرافة):

- لا تخبر زوجتي عمّا تفوّهت به للتوّ!

تَبسَّم له (خرافة) وأومأ برأسه إيجابًا، وكاد يقول شيئًا ما، لولا أن سمع (جارف) وهو يقول:

- ها قد وصلنا إلى قرية (بلنور).

رمى الفتى بصره إلى الأفق، حيث اتّضح له مظهر القرية، التي كانت أشبه بقبيلته منها إلى قرية (دارناج)، حيث الطبيعة الصحراوية والديار الطينية، وإن ظهرت بعض المساحات الزراعية على أطرافها.

تابعا سيرهما بالقرزاحين وسط حقولٍ من الزرع، بمختلف الأشكال والألوان، في حين كان (جارف) يحيّي المزارعين بإشارةٍ من يده، قبل أن يسأل رفيقه إن أراد احتساء الشراب لدى دار الضيافة، إلّا أن (خرافة) أصرّ على الوفاء بديْنه أوّلًا، ليقوده (جارف) إلى دار (أرغد).

وبينما هما في الطريق، إذ لفت نظره ملامح البؤس ذاتها، تعتري وجوه أهل هذه القرية، حتى انتهى بهما السعي إلى دار (أرغد)، لتقع عين الفتى عليه جالسًا بجوار داره، ليترجّل عن (القرزاح)، ويركض تجاهه، وهَمَّ أن يهتف باسمه، لولا أن أبصره، وقد بدا أسن ممن لقيه داخل الغابة المشؤومة، ليسأله متوجّسًا، إن كان هو (أرغد)، فيلتفت إليه الكهل، وتبرز عينان خلف حاجبان كثّان، قبل أن يُجيبه:

- لست بـ (أرغد)، إنما أنا أخوه (أرعد)، أمّا أخي فهو من بين المفقودين الذين دخلوا الغابة الملعونة منذ ما يقارب المائتي عامٍ.

"أخوه!"... قالها (خرافة) في نفسه، وقد بدا الكهل أكبر سنًّا من الشابّ الذي لقيه داخل الغابة، بل بدا وكأنه جده، ليسأله:

- لكنك تبدو أكبر من (أرغد) الذي التقيت به داخل الغابة!

التفت إليه بلهفةٍ يسأله:

- أقلتَ إنك التقيت بأخي في الغابة؟!

هنا... قال (جارف) الذي عاد بعد أن حرص على ربط السحليتين الكبيرتين بإحدى الأشجار:

- إنه الناجي الثالث، وقد التقى بأخيك داخل غابة (مرثار).

أمّا (خرافة)... فحكى له ما جرى بينه وبين أخيه، ليقول (أرعد) متعجّبًا:

- ما أعجب ما سمعت منك أيها الإنسيّ! إن ما يحملني على تصديقك هو قولك إنه كان يرمي بسهامٍ ملتهبةٍ، وأسهمه لا تنضب؛ فقد كان هذا حلمه منذ صباه، ولم يُطلع به أحدًا إلّا أنا، بيد أنني في الأحوال كلها سعيدٌ أن رحلته إلى داخل الغابة أثمرت بنجاتك، على الأقلّ... لم يمت أخي سدى.

- أتعني أنه لم يكن يتحلّى بهذه الصفات قبل دخوله الغابة؟

قالها (خرافة) متسائلًا، فردّ عليه قائلًا:

- لم يتمتّع بها أبدًا! أمّا عن حجر (تاجلنار)، فهذه هي أول مرّةٍ أسمع به، وأنا واثقٌ أن تلك المرأة أرسلته؛ ليأتي لها بالكنز القابع داخل الغابة؛ لتتباهى به أمام نظيراتها!

فاعترته الصدمة... غير أنه قال في نفسه: "لعلّ الحجر ذاته هو الكنز".

شكره متّجهًا نحو دار (أرغد)، في حين لبث (جارف) موضعه، وبعد لحظاتٍ من طرقه لباب الدار، إذ ظهرت له فتاةٌ، ليسألها إن كانت (إينار) بالدار، فتُجيبه بأن السيدة بالداخل، فيسألها:

- أتأذن لي بالدخول؟ فإن بحوزتي ما يخصّها.

وترقّبها لبضع دقائق... قبل أن تعود الفتاة، وتنبّئه أن السيدة تسمح له بالدخول، ليتبعها إلى حجرةٍ فاخرةٍ تعجّ بالتحف الثمينة، تتوسطها منضدةٌ تحمل أصنافًا شهيّةً من الطعام، ثم تحوّل نظره إلى السيدة، والتي بدت في منتصف العمر، تدخّن شيئًا ما، وبدت تعيسةً، يحتلّ قسمات وجهها مللٌ لا يتناسب مع الرفاهية التي تعيشها، وعلى وجهها ارتسمت نظرةٌ فضوليةٌ متفحّصةٌ، ليقول لها مبشّرًا:

- جئت لك بنبأ سُيزيل الغمّ عن وجهك، فقد التقيت بزوجك (أرغد)، والذي تمكّن من الحصول على حجر (تاجلنار).

سعلت من فرط المفاجأة! واعتراها الانزعاج! قبل أن تهتف بصوتٍ مختنقٍ:

- أتعني أنه لا يزال حيًّا؟!

- مع الأسف، قد مات في سبيل هذا الحجر، إلّا أنه مات بطلًا.

قالها (خرافة) قبل أن يخرج لها حجر (تاجلنار)، في حين اعترى (إينار) الارتياح، حتى وقعت عيناها على الحجر، لتقول بنبرةٍ متعجرفةٍ:

- لا أذكر أنني سمعت عنه من قبل! لعلّ زوجي السابق قد اختلّ عقله، ونسي أنني أمرته بالعثور على الكنز القابع داخل الغابة.

كاد (خرافة) يفقد عقله! ما الذي دهى الجميع؟! الكل يزعم أنهم لم يسمعوا بهذا الحجر، إذًا... كيف من الممكن لشخصٍ أن يخسر حياته في سبيل حجرٍ لم يطلبه أو حتى يعرفه أحدٌ؟! لذلك سألها:

- ماذا لو كان الحجر هو ذاته الكنز؟

- هذا محالٌ! فما نعرفه عن الكنز هو كتاب سحرٍ محرمٍ، يعلّمك كيفية خلق الدرر من العدم، وليس حجرًا عديم القيمة، كهذا الواقع بين يديك!

سألها ما بوسعه فعله بالحجر، طالما هي لم تطلبه من زوجها، لتُجيبه بنبرةٍ شابها البرود:

- احتفظْ به لنفسك! فما حاجة لي به.

غمرت العبارة الأخيرة قلب (خرافة) سعادةً، لقد أوفى بوعده، إلّا أن صاحبة الديْن رفضته، فمعنى ذلك أن يحتفظ بالحجر دون أن ينكث وعده، وهَمَّ أن يغادر فورًا بالحجر، لولا أن سمع المرأة خلفه تقول له:

- أو ربما أضمّه إلى سائر تُحَفي، ولأرى مَن يثمّنه لي.

وقعت العبارة كالخنجر في صدر (خرافة)! ولم يجد إلّا أن ينصاع لها، وهَمَّ أن يضع الحجر بجوار التحف، لولا أن انتزعه (أرعد) من يده، وبدا أنه قد دخل دون استئذانٍ، وهتف غاضبًا موجّهًا حديثه إلى الفتى:

- إن هذا هو حجرك أنت، خذه! فإنك مَن اكتسبه، كما أن هذه المرأة تملك ما يكفيها ممّا يغدق عليها به زوجها الثريّ من هدايا.

ودسّ الحجر بيد الفتى، والذي التفت إلى الكائن طاعن السن، الشبيه بالجثّة! القابع بجوار (إينار)، وأدرك أنه زوجها الحالي، في حين هتفت المرأة متجهّمةً:

- لا أظنّ أنني سمحت لك بدخول داري! كما أن أخاك عديم النفع أوصى بهذا الحجر لي أنا، لذلك فمن الواجب أن يُعيده الزائر إليَّ.

قال (خرافة) موجّهًا حديثه إلى (أرعد) متأسّفًا:

- قد وعدت أخاك أن أعطي الحجر إلى زوجته.

أطلقت ضحكةً منتصرةً، قبل أن تقول:

- ها هو الزائر قد أنصفني! الآن... غادرْ داري فورًا! أمّا أنت أيها الزائر، فناولني الحجر، وغادرْ خلفه!

وضع (خرافة) الحجر على المنضدة أمام المرأة، واتّجه إلى خارج الدار، وتبعه (أرعد)، والذي بدا متذمّرًا، ولم ينسَ أن يُلقي نظرةً غاضبةً نحو مَن كانت زوجة أخيه!

وبمجرّد أن غادرا الدار، حتى قال (أرعد) بنبرةٍ متجهّمةٍ موجّهًا حديثه إلى (خرافة):

- ماذا دهاك يا فتى؟! لِمَ سمحت لها أن تأخذ الحجر، في حين أنها لم تطلبه من أخي؟!

- إن أخاك أوصاني أن أعطيها الحجر، وطالما أنها قبلته، فلا يحقّ لي أخذه منها.

- إنك لا تدري كم تمقته! وكم أضحت مهووسةً بجمع المال! بل إنها أجبرته على دخول الغابة؛ للحصول على الكنز، وحينما امتنع، هدّدته بالانفصال عنه، ولم تفعل ذلك إلّا للخلاص منه!

هَمَّ الفتى أن يتفوّه بشيءٍ ما، قبل أن يقاطعه صوت فتح باب دار زوجة (أرغد) السابقة، لتبرز منه الجارية، وملامح الفزع تعتريها، وتحمل بيدها حجر المعرفة الذي دسّته بيد (خرافة)، وهي تقول فزعةً:

- السيدة أمرتني أن أعيد الحجر إليك، ولا تودّ أن تراه مجدّدًا، فمنذ أن لامسته بيدها، إلا وقد اعترتها نوبة هلعٍ!

وما إن أعادت إليه الحجر، حتى عادت داخل الدار، وبدا الغباء يحتلّ قسمات (أرعد)! في حين غمرت الحيرة الفتى! ولم يعثر على إجابةٍ شافيةٍ لما جرى، وإن انتابه شعورٌ أن لـ (آرات) يدًا في الأمر، لكن أنّى له فعل ذلك؟!

***

الفصل الحادي عشر:

(الأورناس)

داخل دار الضيافة بقرية (بلنور)... حيث اتخذ كلٌّ من (جارف) و(خرافة) موضعًا يحتسيان فيه شرابًا أبيض اللون حلو المذاق، أخبره (جارف) باسمه، شراب (زهرة الأوركيد)، ليقول له (خرافة)، غامساً إصبعه في القدح؛ ليتأكّد من انخفاض حرارة الشراب:

- أنّى لدار ضيافةٍ من تقديم الشراب والطعام بمقابل؟!

أجابه (جارف) وقد التفت لوهلةٍ ناحية فتاةٍ أزعجه صوتها _ تسأل المتواجدين عن كتابٍ ما_ بأن قد سبق وكان تقديم الضيافة إلى الزوّار بلا مقابل، أمّا ومع تبدل الحال في المملكة وفي قراها وشيوع الفقر، وما نتج عن ذلك من ازدحام دور الضيافة بالضيوف من القرى المجاورة، فقد أدّى ذلك إلى نفاذ المخزون، لتصدر المملكة قرارًا بتقديم الطعام والشراب بمقابل.

بدا ذلك تفسيرًا منطقيًّا لفعلٍ غير منطقيٍّ! إلّا أن هنالك أمرًا ينغّصه، ليسأله:

- أليس دور المملكة هو توفير حياةٍ رغدةٍ لرعيّـتها؟!

- بكل تاكيد، بيد أننا نكابد منذ سنواتٍ نوازلَ قاسيةً، والملك المبجّل (أسدان) يبذل فوق طاقته لصالح الرعيّة، ولقلّما يجد وقتًا للخلود إلى النوم!

- يبدو أن ملككم عظيمٌ.

- إنه أعظم من أن يتصوّره المرء، لا أحد ينشغل بأمر الرعيّة مثله، وإنه...

لم يستطع أن يتمّ عبارته؛ بعد أن سمعا جلبةً بجوارهما، فالتفتا إلى مصدر الصوت، فكان رجلًا ضخم الهيئة، برأس ثورٍ، يمسك برقبة أحد المضيفين، يكيل الشتائم إليه، قائلًا:

- يا (نصف-طين)! يا عديم النفع! سبق أن أمرتك بإعداد يخنة (الواثِب) شديدة السخونة، إلّا أن ما قدّمته لي باردٌ مثلك أيها الأورناسيّ اللعين!

اعترت الحيرة (خرافة) من فيض أسماءٍ هو حديث عهدٍ بها، ليسأل (جارف) حول أمر هذه الأسماء ذات الوقع الأجنبيّ على مسامعه، ليُجيبه قائلًا:

- (الواثب) هو حيوانٌ يشتهر بمذاق لحمه اللذيذ، أمّا (الأورناس)، فهُم نحن! إنني تصوّرتك تدرك ذلك، أمّا الشخص الغاضب، فهو من الجانّ.

- مهلًا! أولستم أنتم الجانّ؟

- إننا نعدّ منهم، غير أننا (نصف نار ونصف طين)! لذلك يحتقرنا الجنّ، ويرون أننا أدنى منهم مقامًا.

بدا (خرافة) مذهولًا! في الوقت الذي تسبّب فيه المضيف في سكب اليخنة على رداء الجنّيّ؛ من شدّة الفزع، ليصدر الأخير خوارًا غاضبًا، قبل أن يصفع المضيف، الذي سقط أرضًا، وهَمَّ أن يطأه بقدمه، لولا أن تعلّق (خرافة) بساقه قائلًا:

- لا يحقّ لك معاملة غيرك بهذه الصورة؛ فالكل سواسيةٌ!

لطمه الجنّيّ لطمةً أوقعته أرضًا من شدّتها، قبل أن يقول متأمّلًا الفتى المسجيّ أرضًا:

- أإنسيٌّ على الأرض السابعة؟! يا للنار الأبدية! دعني أزيح اللثام عن أمرٍ يا (كتلة الطين)، لسنا سواسيةً! ولا مجال لحدوث ذلك؛ فلا أحد يضاهي الأنقياء الذين أصلهم هو النار!

وتابع قائلًا بنبرةٍ متهكّمةٍ:

- ثم... إنكم يا (أبناء آدم) آخر مَن يحقّ لهم الحديث عن المساواة؛ فقد فضّلتم أنفسكم على أصحاب البشرة السوداء، واستعبدتموهم على الرغم أنهم مثلكم! كتلٌ من الطين، وحتى المرأة لم تسلم من ظلمكم وتسلّطكم عليها، على الرغم أنها تشارككم الأصل ذاته، لذلك لا تجرؤ وتحدّثني عن المساواة؛ فلا أحد أظلم ولا أحقر من الإنس!

وقعت العبارة الأخيرة كاللطمة على وجه (خرافة)، لينعقد لسانه من صِدْقها، وتابعه ببصره وهو يتّجه إلى خارج دار الضيافة، وقد بدا وكأنه فَقَدَ شهيّته، ولم يمضِ كثيرٌ من الوقت، حتى جذب (جارف) ذراع (خرافة)؛ ليعاونه على النهوض قائلًا:

- إنه تهوّرٌ منك أن تلمس جنّيًّا! لحسن حظك أنه لم يقتلك!

وبينما هو ينهض، إذ سمع همهماتٍ بين المتواجدين داخل الدار، يبدو أنهم لا يصدّقون وجود إنسيٍّ بينهم، ليقول لهم (جارف) وهو يربت على كتف (خرافة):

- يتوجّب عليَّ أن أعرّفكم بالناجي الثالث، قد وفد إلينا من الأرض السادسة.

تصاعدت الهمهمات بين القوم، في حين قال أحدهم:

- رائعٌ! لماذا لا يحكي لنا ما رأى هنالك بالغابة؟!

وقال آخر متسائلًا:

- هل التقى بأبي؟ إنه يُدعى (أقرب بن فيحان).

وتعالت الأصوات، ليقول لهم (جارف):

- مَن أراد منكم معرفة ما حلّ بالناجي الثالث داخل الغابة، فعليه أن يأتي إلى دار الضيافة عندنا، فيسمع الحكاية بأسرها.

اقتحم مسامعهم أصواتُ تذمّرٍ... يتردّد صداها من الموجودين داخل الدار، في حين تابع كلٌّ من (خرافة) و(جارف) احتساء الشراب، قبل أن يسمعا صوت فتاةٍ تسألهما بنبرةٍ متوتّرةٍ:

- اعذراني، لكن... أرأيتما كتابي؟ إن معلّمي سيقتلني إن أضعته.

سألها (جارف):

- وأين كان آخر مرّةٍ؟

أجابته بنبرةٍ متجهّمةٍ:

- لو كنت أذكر موضعه، لما تكبّدت عناء سؤالك!

- وكيف لي أن أساعدك إن لم أعرف آخر موضعٍ له قبل أن تفقديه؟!

قاطعهما (خرافة) موجّهًا حديثه ناحية الفتاة، يسألها أن تصف له الكتاب المنشود، لتُجيبه قائلةً:

- هو كتابٌ صغيرٌ، بحجم كفّ اليد، قمحيّ اللون، ذو صفحاتٍ مذهّبة الأطراف.

أشار إلى كتابٍ وسط الكتب التي بحوزتها متسائلًا، إن كان هو الكتاب الذي تبحث عنه، لتلقي نظرةً على الكتب التي بحوزتها، فتجد الكتاب بينها! فيتورّد وجهها خجلًا! وغمغمت بصوتٍ خفيض... بـ نعم! هو الكتاب المنشود.

لينفجر (جارف) ضاحكًا، قبل أن يقول متهكّمًا:

- حمقاء! تكبّدتِ عناء إزعاج المتواجدين داخل دار الضيافة، في البحث عن كتابٍ موجودٍ بحوزتك!

انتفخت أوداجها، وهتفت بوجهٍ اختلط فيه احمرار الغضب بالخجل:

- لسوء حظك أنك لا تملك ربع عقل صاحبك!

هنا... تبدّلت ضحكته إلى تجهّمٍ، ونعتها بالمشعوذة قبل أن يهم بالنهوض من مقعده، لولا أن حال (خرافة) بينه وبين ذلك، في حين قالت الفتاة موجّهةً حديثها إلى (خرافة):

- أشكرك على إيجادك كتابي، وبالمناسبة... أُدعى (ميرمان)، إنني مدينةٌ لك، كما أشكرك على لباقتك، على خلاف البعض هنا!

ثم رفعت رأسها في شممٍ؛ بقصد التحقير من شأن (جارف)، واتّجهت صوب بوابة الخروج من الدار.

فسأله (خرافة):

- ما الذي عنيته من عبارة (مشعوذة)؟!

- ألم تلحظ الكتاب الذي بحوزتها؟ إنه كتابٌ للتعاويذ، من النادر أن تجد أحد (الأورناس) قادرًا على تلاوتها، لذلك فقليلةٌ هي العشائر منّا التي يسعها تلاوتها، ومن ضمنها عشيرة (الأورمون)، والتي تنحدر منها تلك الفتاة الحمقاء.

ثم نهض من مقعده، وقد لاحظ أن الوقت قد تأخّر، وأن عليهما الإسراع بالعودة إلى قرية (دارناج)، ليتبعه الفتى إلى خارج دار الضيافة.

***

وأثناء طريق عودتهما إلى قرية (دارناج)... وهما يمتطيان القرزاحين... إذ سمعا شخصًا يناديهما، فالتفتا إلى مصدر الصوت، فكان رجلًا برأس كلبٍ، لكن... تُرى... ما شأنه بهما؟!

فنزلا عن القرزاحين، وسارا وسط الحقول الزراعية، حتى انتهى بهما السعي إليه، ليسألهما إن كان أحدهما هو الناجي الثالث، ليُجيبه (جارف) مشيرًا ناحية (خرافة):

- هاك هو الشخص المنشود، وإن أردت سماع حكايته، فعليك بـ...

قاطعه الجنّيّ متفحّصًا (خرافة):

- إن بمجيئك إلى قرية (بلنور)، قد أزلت عن كاهلي مشقّة السفر إليك، لذلك تأهّب للموت!

وأخرج من كمّه كتابًا لتعاويذ السحر، في حين تساءل الفتى عن سبب رغبته في قتله، فيُجيبه الجنّيّ:

- قد تمّ رصد مكافأةٍ لمَن يقتلك! فوفقًا لما ورد لنا من أنباءٍ... أن الناجي الثالث هو تلميذٌ من تلاميذ تلك الخائنة!

احتجّ (جارف) قائلًا:

- وتتصوّر منّا أن نقف مكتوفي الأيدي وندعك تقتله؟! ثم عن أيّة خائنةٍ تتحدّث؟!

وبمجرّد أن أنهى عبارته، حتى لاحظ شمسًا بيضاء قد برزت من أعلى عصا (خرافة)، وهنا تذكّر أن الفتى سبق وأن حكى له عن امرأةٍ قد أمدّت عصاه بقوى، وأعانته على الخروج من الغابة.

فشرع الجنّيّ في تلاوة تعويذةٍ... في حين اجتمع بعض المزارعين، وترجّوا الجنّيّ ألّا يهاجمهما، لتغمر الطمأنينة قلب كلٍّ من (خرافة) و(جارف)، حيث إنهم يدافعون عنهما، ثم قالوا:

- إنك قد تحرق محصولنا! لذلك اصحبهما إلى موضعٍ آخر، واقتلهما!

"الأنذال!"... قالها (خرافة) في نفسه، في حين قال الجنّيّ محتجًّا:

- سأقتل ناشد علوم الخائنة متى وأينما أشاء! ومَن يعارضني، فمصيره الموت.

ارتعدت فرائص المزارعين، وألقوا بأدواتهم، وفرّوا هاربين، ولم يَبْقَ أمام الجنّيّ سوى (خرافة) و(جارف)، وقد أدركا أن المعركة غير متكافئةٍ مع جنّيٍّ يفوقهما بأسًا، ليقول (جارف) هامسًا:

- سأشغله؛ كي تتسنّى لك فرصة الهرب.

همس الفتى محتجًّا:

- لا مجال للبطولات الآن! إن بجعبتي خطّةً ستثمر بنجاتنا معًا، كل ما عليك فعله هو أن تلفت نظره عن الكتاب فقط؛ كي أعميه بصورةٍ مؤقّتةٍ.

سأله بفضولٍ إن كان يسعه فعل ذلك، ليومئ (خرافة) رأسه إيجابًا، قبل أن يقول الجنّيّ متهكّمًا:

- أفرغتما من تلاوة صلاتكما؟!

واستهلّ يتلو تعويذةً من كتابه، في حين هَمَّ (جارف) في لفت انتباهه، لولا أن سمعا صوت فتاةٍ تقول بنبرةٍ شابها الفضول حول ما يجري بينهم، ليلتفت جميعهم إليها، فيتّضح أنها (ميرمان) التي التقيا بها داخل دار الضيافة، ليهتف بها (خرافة):

- إننا في حاجةٍ إلى مساعدتك! إن هذا الجنّيّ ينوي قتلي.

احتجّ (جارف) قائلًا:

- إنك تعرّض فتاةً صغيرةً للقتل!

- لا تنسَ أنها ساحرةٌ، ومن المؤكد أنها تملك بين ثنايا كتابها تعويذاتٍ ضدّ الجنّ!

هتفت (ميرمان) محتجّةً:

- لست فتاةً صغيرةً! إن عمري هو واحدٌ وثلاثون عامًا، كما أن الإنسيّ محقٌّ، فإن تعاويذي قادرةٌ على قتل الجنّ.

شرع الجنّيّ في تلاوة تعويذته، وكذلك الفتاة، في حين هتف (جارف) ساخرًا؛ في محاولةٍ للفت انتباه الجنّيّ، قائلًا:

- هيه! يا وجه الكلب! أبوسعك العضّ؟ أم أن جُل ما تحسنه هو النباح؟!

لم يُعِرْهُ اهتمامًا، ليصدر (جارف) أصواتًا شبيهةً بصوت نباح الكلب، لكنها لم تخلف أيّ صدى بين طيّات الجنّيّ، وكذلك فعل (خرافة)، وأيضًا دون جدوى، لتغمغم (ميرمان) في نفسها حانقةً: "يا لهما من أحمقان! سيتسبّبان _بلا شكٍّ_ في قتلنا جميعًا!"، ثم هتفت موجّهةً دفّة حديثها ناحية (خرافة) قائلةً:

- ما كان عليك أن تتّخذ من ذلك الملعون دائمًا إلهًا لك؛ فقد غمرك بالشؤم!

أُصيب كلٌّ من (جارف) و(خرافة) بالصدمة؛ جراء ما تفوّهتْ به، وكذلك فعل الجنّيّ، وتحول نظره ناحية الفتى متعجباً، ليجدها الأخير فرصةً سانحةً، فأخذ يصوّب العصا، لينبعث ضياؤها نحو عيني الجنّيّ، فيُصاب بالعمى المؤقّت، ويصرخ من شدّة ما يقاسيه من ألمٍ بعينيه.

بينما هتف (جارف) بالفتاة... أن تُسرع بإلقاء تعويذتها، فيعتريها التوتّر! وتُعيد تلاوتها مجدّدًا! وما هي إلّا لحظات، حتى انتهت منها، وانصبّ نظرهم ناحية الجنّيّ المتألّم في عينيه، إلّا أنه لم يعتره عارضٌ!

ولفت نظر (خرافة) أن كلًّا من (جارف) و(ميرمان) يرمقانه مشدوهين، ليسألهما متوجساً بيد أن ما تفوه به لم يعدو عن قهقهات مزعجة ليست بغريبة عليه ليدرك (خرافة) حينها أن هيئته قد تبدّلت إلى (يرسوع)! فيستشيط غضبًا، وينهال على (ميرمان) بكل ما يعرف من شتائم وسبابٍ، ولحسن حظها أن كل ما صدر منه لا يعدو عن قهقهات، ثم هتف بها (جارف) حانقًا:

- يا لكِ من ساحرةٍ فاشلةٍ! إن كنتِ لا تُجيدين قتل الجنّيّ، فكان بوسعك على الأقلّ تحويله إلى (يرسوع)!

انتفخت أوداجها من شدّة الغضب، لتهتف:

- قد أصبتني بالارتباك! فاختلطت عليَّ التعويذات، كما أنه لا يمكن تحويل الجنّ إلى حيوانٍ! هُم وحدهم يسعهم تحويل أنفسهم إلى ذلك، أو على الأقلّ... برأس حيوانٍ، وهو أمرٌ من بديهيّات علم السحر.

استشاط (خرافة) غضبًا منهما، ومن عدم مبالاتهما بالجنّيّ، والذي أوشك أن يرتدّ إليه بصره، لينقضّ على كتابه الذي بحوزته؛ كي يمنعه من إلقاء التعويذات، إلّا أن الأخير تشبّث بالكتاب، بعد أن أحسّ بمَن يحاول انتزاعه منه، فلفت ذلك انتباه (جارف)، ليشارك صديقه في خطف الكتاب من الجنّيّ، وهو يهتف بالفتاة، بأن تلقي تعويذةً على الجنّيّ.

لتستهلّ الفتاة في تلاوة تعويذةٍ ما، وكان (خرافة) و(جارف) يحاولان جاهدين نزع الكتاب من الجنّيّ، والذي بدأ يرتدّ إليه بصره، وانتهت الفتاة من إلقاء التعويذة، ليتحوّل (جارف) إلى (يرسوع) آخر! فيقول (خرافة) في نفسه: "ما اسم الكتاب الذي بحوزتها؟! أيكون عنوانه (المقطوع في تحويل المرء إلى (يرسوع)؟!"

وارتدّ البصر إلى الجنيّ بالفعل... لتقع عيناه على (خرافة)، وهو يكاد ينتزع منه الكتاب، فيلطمه لطمةً، أبعدته عدّة أذرعٍ!

أمّا (جارف)، فجذب منه الكتاب، وارتفع به عاليًا، ليتلقّى لكمةً ارتفعت به إلى الأعلى، وذلك في الوقت الذي انتهت فيه (ميرمان) من إلقاء تعويذتها الثالثة، وكاد الجنيّ يتلو من كتابه، لولا أنه لاحظ نظرةً متعجبةً من (ميرمان) و(خرافة) ناحية الأعلى.

فيرتفع الجنّيّ ببصره حيث وقع نظرهما، بيد أنه كان متأخّرًا! إذ سقط عليه جسمٌ هائل الحجم، تمكّن من سحقه، والذي لم يكن سوى (جارف)، وقد تبدل إلى سلحفاةٍ عملاقةٍ، تحرّكُ قوائمها؛ في محاولةٍ يائسةٍ لتعديل وضعها، والجنيّ يحترق أسفلها!!

وبعد عدّة تعويذاتٍ أخرى... تمكّنت (ميرمان) من إعادة الشابّين إلى صورتهما الأولى، ليقفوا جميعهم أمام الحفرة التي صنعتها صَدَفَةُ (جارف)، ولم يبقَ من الجنّيّ سوى الرماد.

وبأنفاسٍ متلاحقةٍ... تأمّلوا رماده عاجزين عن تخيُّل فكرة قتْلهم لجنّيٍّ!

خاصةً وأنهم ليسوا من المقاتلين، ليحطّم (جارف) حاجز الصمت قائلًا بنبرةٍ فخورةٍ:

- من اليوم... سيناديني الكل بـ (جارف) قاهر الجنّ!

ابتسم كلٌّ من (خرافة) و(ميرمان) من كلام (جارف)، وكانوا جميعًا تحت تأثير الصدمة ممّا حدث، ثم ودّع الشابّان الفتاةَ، قبل أن يمتطيا السحليتان، ويتّجهان نحو قرية (دارناج).

***

داخل دار حماية المملكة... في ساحة التدريب... إذ ألقى (نصال) نظرة ازدراءٍ على عشرة فتيان واقعين على الأرض، بدوا في حالةٍ يُرثى لها، فمنهم مَن يتأوّه، ومنهم مَن اشتدّ عليه البكاء، وأعاد (نصال) السيف إلى غمده قائلًا بنبرةٍ متجهّمةٍ لا تخلو من خيبة الأمل:

- إنكم وصمة عارٍ على مملكتنا العظيمة.

ولم يمضِ من الوقت الكثير، إلّا ودخل رجلٌ على ساحة التدريب، وقد جالت عيناه أرجاء الساحة، حتى وقعتا على (نصال)، ليتّجه نحوه، ويقول متوجّسًا:

- أجئت في أمري يا سيادة المكلّف؟

أجابه دون أن يلتفت إليه:

- ألقِ نظرةً على هذه العاهات! وأخبرني... من أيّ مكبّ نفاياتٍ جئت إليَّ بهم؟!

- ستّ عشرة ساعة في اليوم من التدريب الشاقّ والقاسي! إضافةً إلى إجبارهم على حمل أسلحةٍ حقيقيةٍ! متجاهلاً أنهم مبتدئون! ممّا قد يعرّضهم ذلك للقتل أو الجرح، إن من البديهيّ ألّا يتحمّل أحدٌ هذا الجنون!

- إنها مملكة (بارانية)، وإن لم نأتِ بجنودٍ كما يجب، حيث يكون لديهم الاستعداد التامّ للتضحية بأرواحهم في سبيلها، فلن يسعنا حمايتها!

- إنك بذلك يا سيادة المكلّف لن تجد أحدًا بوسعه حماية البلاد بهذه التدريبات الشاقّة!

- إن مسؤولية جلب مَن يستحقّ شرف حماية المملكة تقع على عاتقك، أمّا هؤلاء، فلا حاجة لي بهم، ويفضّل ضمّهم إلى خدم الملك المبجّل؛ فليسوا مؤهّلين لحماية هذه الأرض.

اضطرّ الرجل إلى الاستعانة بالعاملين بالدار؛ كي يعاونوا المتدرّبين على النهوض ومغادرة المبنى، وهم ناكسو الرؤوس؛ من شدّة الحزن والعار على خسارتهم لشرف حماية المملكة.

في حين استلّ (نصال) سيفه من غمده، واستهلّ يتدرّب، وقد رماه إلى عدوٍّ وهميٍّ، وكان عقله مشغولًا مهمومًا متسائلًا... هل سيسعه _في يومٍ ما_ من إيجاد جنودٍ بارعين يستحقّون نيل شرف حماية المملكة؟!

ثم صَدَّ ضربةً من عدوٍّ وهميٍّ، قبل أن يُعاجله بضربةٍ من سيفه، ثم تفادى ضربةً من عدوٍّ وهميٍّ آخر، ظلّ على هذه الحال ما يقارب الساعة، قبل أن يتوقّف ويُعيد السيف إلى غمده، ويقول موجّهًا حديثه إلى شخصٍ ما:

- أتصوّر أنك قد مكثتَ ما يكفي من الوقت متواريًا، هلا خرجت من مخبئك؟!

وما هي إلّا لحظات... حتى برز الأمير (سادان) من مخبئه، وقال بنبرةٍ ساخرةٍ:

- إذًا... فلا شيء يخفى على خادم المملكة المخلص.

لم يرد (نصال)، وظلّ واقفًا مترقّبًا ما يريد أن يقوله هذا الشخص الماثل أمامه، والذي قال متسائلًا بالنبرة الساخرة ذاتها:

- متى ستدلي بالحقيقة حول كونك من نسل ذلك الملعون دائمًا (إديموليست)؟!

لم يجبه، ليكرّر الأمير (سادان) سؤاله، ومجدّدًا لم يجبه، فيسأله:

- لِمَ لا ترد؟! أم أن الصمتَ دليلُ صدقِ ما يُشاع عنكم؟

أجابه (نصال):

- سبق أن تمّت إجابة هذا السؤال، ولا أرى داعيًا لتكراره، لكن يمكنك الاطلاع على شجرة العائلة؛ فقد تجد عندها جوابك.

- ماذا إن كانت مزيّفةً؟

- هذا الأمر يقع إثباته على عاتقك.

- وسأثبته... عاجلًا أم آجلًا!

قال (نصال) بلا مبالاةٍ:

- حظًّا موفّقًا... والآن... هل لابن الملك حاجةٌ نؤدّيها له؟

هتف (سادان) متجهّمًا:

- اسمي هو الأمير (سادان)... ولي عهد مملكة (بارانية)، لا تنسَ ذلك يا خادم المملكة!

- للمرّة الثانية... أسألك، هل لابن الملك حاجةٌ نؤدّيها له؟

احتقن وجه الأمير، إلّا أنه امتصّ غضبه، وقال متهكّمًا:

- هل أخبرك بمغامراتي مع حبيبة قلبك؟!

لم يجبه (نصال)، وإنما تحسّست يده مقبض سيفه دون وعيٍ، ولفت ذلك نظر الأمير (سادان)، والذي قال مستنكرًا:

- أتنوي قتل أميرك؟! لا عجب أن الدماء التي تسري داخلك هي دماء الملعون دائمًا (إديموليست).

واتّجه نحو باب الخروج قائلًا:

- وصدّقني... سأفعل ما بوسعي في إثبات نسبتك إلى ذلك الملعون.

لم يعره (نصال) أيّ اهتمامٍ، وواصل تدريبه، متسائلاً في قرارة نفسه: "أنّى لملكٍ عظيمٍ مثل (أسدان) أن ينجب أحمقًا متغطرسًا كهذا الشابّ الطائش؟!"

***

مجرة التاجي الثالث

الفصل الثاني عشر:

التواري وسط العتمة

أثناء طريق عودة (خرافة) و(جارف) صوب قرية (دارناج)... وهما يمتطيان السحليتين العملاقتين... حيث ظلّ الأخير متعجباً ممّا انتهت به الحال مع الجنّيّ، فإن قتل أحدهم هو أمرٌ أشبه بالمحال، ولكم كانا محظوظين بنجاتهما منه سالمين!

في حين غمرت الحيرة وجه الفتى متسائلًا عن حقيقة ظهور الجنّ برأس حيوانٍ، وهل جميعهم على هذه الحال؟! ليُجيبه (جارف) قائلًا:

- كلّا... إن الجنّ تغدو خفيةً إذا ولجت الأرضين السادسة والسابعة، لذلك لا حلّ لها، إلّا أن تتمثّل بالحيوان أو برأسه، وأحيانًا بهيئة (الأورناس) أو الإنس! وهم كذلك يعجزون عن ممارسة السحر على الأرضين، إلّا عن طريق كتب تعاويذ سحريةٍ.

سأله الفتى عن أي الأرض هي أرضه، ليُجيبه (جارف):

- أرضكم هي الأرض السادسة، والتي يسمّيها الجنّ بـ (الفردوس الأدنى)، وسبق لهم أن سكنوها، قبل أن يتمّ طردهم منها، وهم إلى الآن يعودون إليها

بين الحينة والأخرى، بل إنهم سعوا إلى احتلالها في الماضي، لولا أن اعترض طريقهم ملكٌ من الإنس، أمدّه إلهُه بقوّةٍ خضعت لها ممالك الجنّ، وأُسِرَ منهم من أُسِر، وأُخِذَ عليهم العهد بألّا يعود أحدٌ منهم لمقاتلة الإنس.

انهمك الفتى يتفكّر فيما قيل، بينما قال له (جارف):

- إنك مدعوٌّ عندي اليوم للعشاء، وبعدها سنعرج إلى دار الضيافة؛ حيث ستحكي أمام الناس قصّتك داخل الغابة المشؤومة.

عادت ذكريات تلك الغابة تطارده، وتمنّى لو أن بوسعه الرفض، حتى سمع (جارف) وهو يقول له:

- وفي صباح الغد... سأصحبك في رحلة صيدٍ مع أصدقائي.

كيف يقنعه أنه لم يأتِ إلى هنا بغرض التنزّه! ولكن... لم تكن بيده حيلةٌ، ولن يكون الرفض إلّا وقاحةً منه.

وتابعا سيرهما... حتى لاحت قرية (دارناج)، ليعبرا بوّابتها متّجهين ناحية دار (جارف)، بعد أن أعادا السحليتين العملاقتين إلى صاحبهما ليبرز صبيةٌ ينادون (خرافة)؛ كي يحضر إلى داره؛ فهنالك ضيفٌ رفيع المستوى يترقب عودته.

ولم يكذّب الفتى خبرًا! إذ انطلق نحو داره متسائلًا عن هويّة هذا الضيف، وبمجرّد أن انتهى به المطاف إلى داره، إذ وجد تجمهرًا من أهالي القرية، والذين ما إن وقعت أعينهم على (خرافة)، حتى أفسحوا له الطريق، فيُفتح الباب، ويجد جمعًا من أعيان القرية، ويتوسّط المجلس رجلٌ قصيرٌ ملتحٍ، تبدو عليه أمارات الهيبة والوقار، وقال أحدهم، والذي اتّضح أنه (ركن القرية):

- أيها الناجي... إن (المكلّف بالخير) قد جاء من عند الملك المبجّل محمّلًا بالهدايا.

التفت إلى (المكلّف بالخير)، والذي بدوره قال مرحّبًا:

- إن الملك المبجّل (أسدان) يرسل تحياته للناجي الثالث، وقد زوّدني بهدايا لك وللقرية؛ تعبيرًا عن سعادته بنجاتك.

ألقى الفتى بجسده على مقعدٍ مجاورٍ له، وكاد أن يحتجّ (ركن القرية)، لولا أشار (المكلّف بالخير) بيده؛ ليمنعه من الاحتجاج، في حين قال الفتى:

- أقرِئْ ملكك منّي السلام، واشكره على هداياه.

أومأ (المكلّف بالخير) رأسه، وابتسامة الودّ لا تفارق شفتيه، قبل أن يقول:

- قد بلغنا أنك جئتنا ببذور (النارجسيل) من تلك الغابة الملعونة، وإن الملك سيطرب حالما تصله صرّة البذور.

قال (خرافة) محتجًّا:

- لكنني أهديتها لأهل القرية! وهم فقط مَن يحقّ لهم التصرّف فيها.

قال (ركن القرية) موضّحًا:

- بل الأوْلى أن تغدو بيد مملكتنا العظمى، وهي مَن تشرف على زراعتها؛ فهذا من واجبها علينا.

وافقه (المكلّف بالخير) قائلًا:

- اطمئن! فإن ملكنا المبجّل _بسياسته الرشيدة_ لن يظلم أحدًا، وستنعم رعيّته كلها بالفاكهة دون جورٍ أو ظلمٍ.

بدا الكلام وجيهًا، ليشعر (خرافة) بالطمأنينة على أهل القرية، في حين سأله (ركن القرية):

- لكن... أخبرنا _بحقّ الشمس الأبدية_ عن مذاق (النارجسيل)! أهو كما قاله السابقون؟

كاد أن يُجيبه الفتى، لولا أن قال (المكلّف بالخير):

- أرى أن نجرّب بأنفسنا، فلا شيء أصدق من التجربة.

وافقه (ركن القرية)، قبل أن ينهض (المكلّف بالخير) قائلًا:

- والآن... فلندعك تخلد للراحة، حتى نستمع الليلة لك وأنت تحكي لنا ما جرى داخل تلك الغابة المشؤومة، فهذا أمرٌ نودّ الاستماع له دون أن نجرّبه!

انطلقت ضحكاتٌ متكلّفةٌ من بعض أهالي القرية، وكانت أعلاها ضحكة (ركن القرية)، ثم صحبوا (المكلّف بالخير) حتى خارج الدار يتبعونه.

كان هنالك متسعٌ من الوقت، قبل موعد العشاء لدى (جارف)، لذلك قرّر الخلود إلى الراحة، خاصةً بعد ما قاساه اليوم، وبمجرّد أن أسند رأسه على الوسادة، إذ انتقل إلى عالم العدم مجدّدًا.

ويلتقي بـ (آرات)، والذي قال له متهكّمًا:

- يبدو لي أنك قد بدأت تعتاد على القرية!

سأله (خرافة) بلهفةٍ:

- متى سنشرع في البحث عن سائر الحجرات؟

- إنكم معشر الإنس قومٌ تستعجلون! عليك بالتريّث؛ فإنك بحاجةٍ إلى المزيد من التدريب؛ فما ستجده داخل الحجرات الأخرى من تحدّياتٍ، لن يغدو باليسر الذي تتصوّره، أضِفْ إلى ذلك... الجنّ! والذين يسعون لقتل ناشدي علوم (دلنارن)، وكدتَ تلقى حتفك من أحدهم اليوم!

قال الفتى متذمّرًا:

- لكنني أودّ أن أنقذ زوجتي عند أيّة فرصةٍ تسنح لي.

- لا تنسَ أنك الناجي الثالث، وأن القوم بحاجةٍ إليك.

- وما النفع الذي سيعود على قرية (دارناج) من لقبٍ كهذا؟!
- إن النجاةَ من تلك الغابة أمرٌ أشبه بالمحال، وهذا ما يشجّع القوم إلى معرفة ما يكمن داخلها؛ لينتج عن ذلك جذب العديد من الزوّار لقرية (دارناج)، وأيضًا سيبتاع زوّار الممالك الأخرى من تجّار القرية، ممّا ينعش التجارة داخلها.
وأردف... ساعيًا منع نفسه من الضحك:
- ممّا يعني أنه ليس لقبًا للتباهي به! بل هو وسيلةٌ لاستغلالك أحسن استغلال!
أزعجت هذه العبارة (خرافة)، وشعر بالغيظ تجاه أهل قرية (دارناج)، قبل أن يسأل:
- وماذا عن الناجييْن الأول والثاني؟ هل تمّ استغلالهما أيضًا؟
- أمّا الأول... فقد مرّ على القرية، وقد سعى القوم الذين سكنوا قبل (الأورناس) إلى استضافته، فرفض الاستضافة، وغادرهم فورًا، لكنهم أخلوا إحدى دورهم التي تقطنها الآن، واختلقوا أمر أنه سكنها؛ كي يستقطبوا بعض الزوّار الفضوليين، وحتى أن ساكني القرية الحاليين صدّقوا كذبة كونه سكن تلك الدار التي تقطنها أنت!
وتابع قائلًا:
- أما الثاني... فلا يوجد ما يدل على حقيقة أمره، ولعلّ القوم تلاعبوا بالتمثال؛ كي يظهر وجود ناجٍ آخر، خاصةً بعد كشف اللثام عن حقيقة الناجي الأول، وظهور شرّه، ممّا أثمر إلى عزوف الناس عن زيارة قرية (دارناج).
وأردف متسائلًا في محاولةٍ منه لتغيير دفّة الحديث:
- والآن... أمستعدٌّ أنت للتدريب؟

- معنى ذلك أنك ستعلّمني مهارةً جديدةً، أصحيحٌ هذا؟

- فعلًا... والآن... اسْعَ إلى ضربي بعصاك.

ولم يكذّب خرافة خبرًا! إذ انقضّ على (آرات) ينوي ضربه بالعصا، وبمجرّد أن دنا منه، حتى تلاشى تمامًا! ظلّ (خرافة) يلتفت حوله، وكانت عيناه تجوبان المكان، حتى برز (آرات) من خلفه، وضربه على ظهره بعصاه.

ومجدّدًا.. سعى الفتى إلى ضربه، غير أنه تلاشى مجدّدًا! وبعد ما يقارب الدقيقة، برز من خلفه وضربه، كرّرها عدّة مرّاتٍ، قبل أن ينتهي ويقول للفتى:

- والآن... دورك، كل ما عليك فعله هو إيجاد التناغم بينك وبين إيقاع الحياة!

لم يَعِ حرفًا ممّا تفوّه به، في حين انبعث ضوءٌ من عصا (آرات)، لامس الشمس البيضاء التي تعلو عصا الفتى، ليدرك أنه أمدّها بمهارة الاختفاء.

ثم برزت أمامه أربعة ذئابٍ، أحاطت به، وهمّت أن تنقضّ عليه، لولا أن تلاشى عن أنظارها وسط ظلامٍ معتمٍ، ولفت نظره الشمس أعلى عصاه، ينبض ضياؤها نبضًا خفيضًا هادئًا وسط العتمة حوله.

لكن ما هي إلّا لحظات، حتى اشتدّ نبض الضوء، ثم عَمَّ أرجاء الظلمة حوله، ليفشل في المحافظة على الاختفاء، ويبرز أمام الذئاب، والتي انقضّت عليه قبل أن تتوقّف، وتعود إلى حصاره مجدّدًا، فيهتف به (آرات):

- أخطأت! أعد المحاولة! هنالك فعل عليك الكفّ عنه؛ حتى تحافظ على التناغم، حينها ستحتفظ باختفائك!

- وما هو بالتحديد؟!

- لن تغدو ناشدًا بحقٍّ إن عجزتَ عن معرفته!

أطلق (خرافة) سبّةً من فرط الغيظ، أيّة أحجيّة هذه؟! ما هو الفعل الذي يتوجّب عليه تركه حتى تستمرّ عملية الاختفاء؟

جرّب عدّةَ محاولاتٍ باءت جميعها بالفشل! فقد جرّب: السكون التام، والامتناع عن الرمش بعينيه، وغيرها من المحاولات، ولكن... دون جدوى.

مضت ساعاتٌ وهو على هذه الحال، وهو عاكفٌ على كشف اللثام عن السرّ الذي يكمن خلف الحفاظ على اختفائه، كان لاهثًا لهث العطشان؛ من شدّة الإجهاد، حتى سمع (آرات) وهو يقول:

- سأيسّرها لك، اسْعَ إلى الحفاظ على تناغم نبضات قلبك مع نبضات الكون.

انتابه الغيظ ممّا تفوه به؛ إنه لم يَعِ العبارة الأولى، فأنّى له أن يعي هذه الآن؟!

ولكن... مهلًا... إنه إن جمع العبارتين معًا، فإن ذلك يعني أن الفعل المزمع تركه يفضي إلى اختلالٍ في تناغم نبضات قلبه مع نبضات الكون، لكنه امتنع عن كل فعلٍ يخطر بباله في هذا الشأن، لدرجة أنه حافظ على فتح عينيه دون أيّة حركةٍ بالرموش، هذا على الرغم من أن هذا الفعل هو فعلٌ لا إراديّ في أغلب الأوقات.

وهنا... خطر على باله فعلٌ آخر لا إراديّ... ظلّ يمارسه طيلة الوقت، من المؤكد أنه السبب، لذلك أعاد التلاشي مرّةً أخرى، وهذه المرّة تمكّن من المحافظة على اختفائه لفترةٍ معقولةٍ، وشرعت الذئاب تبحث عنه، وهي في حيرةٍ من أمرها، ليقول (آرات):

- تمامًا! كان يتوجّب عليك الامتناع عن التنفّس، فإنه يسرّع من نبضات قلبك، فيحيد عن إيقاع الكون، وما كنتَ ستفطن إلى ذلك دون معاونتي لك.

ثم أردف قائلًا:

- إلّا أن تسارع نبضات قلبك، لا يسبّبها التنفّس وحده!

وقبل أن يعي (خرافة) ما تفوّه به، إذ انقضّ عليه أحد الذئاب دون مقدّماتٍ، لتتسارع نبضات قلبه فزعًا؛ جراء تلك المفاجأة، ويفشل في المحافظة على الاختفاء، ويبرز الفتى من العدم، وقد سقط أرضًا، بعد أن اختلّ توازنه، ليقول وهو يعتدل واقفًا:

- إذًا... الخوف أيضًا يسبّب اختلالًا في التناغم مع نبضات الكون، تبًّا! لماذا لا يبدو الأمر أكثر يُسرًا؟

- ما أشدّ تذمّرك يا فتى! لا دراية لك بتلك الأفواج من الأقوام التي تطمع لنيل الشرف الذي نلته.

قالها معاتبًا، ليغمر الحرج وجه الفتى، والذي تذكّر أن مهارات معلّمته كانت السبب في نجاته من غابة الموت.

واصل التدريب لساعاتٍ داخل العدم، حتى أضناه التعب، ليغادر ذلك العالم.

* * *

ما إن استيقظ (خرافة)، حتى جالت عيناه أرجاء الحجرة؛ محاولًا تبيُّن موضعه، حتى تذكّر أنه في حجرته بدار الناجي، وبمجرّد أن غادرها، حتى لفت نظره فوضى بحجرة الضيافة، وتساءل في نفسه عن سبب إهمال (إلنا) في توضيب الحجرة، أليست هي المتعهّدة بخدمته؟ يا لها من كسولةٍ مهملةٍ!

غادر الدار... وأدرك أنه قد حان وقت غروب الشمس، ولمحها وهي تغرق في الأفق، لم يكن هنالك لونٌ دمويٌّ، بل أبصر لون الشمس الأبيض يخفت تزامنًا مع اختفائها.

جنَّ الليل... حتى أبصر طيورًا مشتعلةً، مختلفة الألوان، وانتشرت في شتّى بقاع القرية، راقبها متوجّسًا، حتى شاهدها تلج تجويفًا معلّقًا على أغصان ديار القرية، وما إن ولجته، حتى تبدّلت هيئة الطيور إلى قطعٍ من نارٍ أضاءت ما حولها.

وبينما اعترته الدهشة؛ جراء متابعته لها، إذ سمع مَن تقول له بنبرةٍ فخورةٍ:

- إنها (الدُّهاة)! وهي طيورٌ لا وجود لها سوى على الأرض السابعة، ولا تظهر إلّا ليلًا، وهي مصدر الإضاءة لدينا حينما يغشانا الليل.

التفت إلى مصدر الصوت، ليجد مجموعةً من نسوة القرية، ترتسم على وجوههن بسماتٌ ودودةٌ، قبل أن تسأله إحداهن، إن كانت تحسن (إلنا) خدمته، ليُجيبها كاذبًا بـ نعم، ليتبادلن النسوة النظرات، قبل أن تقول إحداهن بنبرةٍ لا تخلو من الدهشة:

- إنه ليس من عادتها! فلقلّما تجدها تكترث بما يتعلّق بأمر الناجي!

وقالت أخرى بخبثٍ:

- لعلّها أعجبت بالإنسيّ، فتظاهرت بالاهتمام لفكرة الناجي!

وتعالت الضحكات... في حين استنكر هو الأمر في نفسه، إن هؤلاء النسوة لا يفقهن قولًا سوى الثرثرة!

فتلك المرأة مهووسةٌ بزوجها المفقود، والأمر واضحٌ جليٌّ من نبرات صوتها الحزينة حينما تشتعل نار ذكراه وتعمّ خيالها، وكلما وقعت عيناها على ردائه الذي يرتديه الآن.

العجيب في الأمر... أنها لم تسأله أبدًا إن قابله داخل الغابة؛ لعلّها تخدمه ليردّ لها الجميل، ويعود إلى ذلك الجحيم؛ للبحث عنه، قد بدا له أن هذا التفسير

معقولٌ، بيد أنها إن أبدت رغبتها في عودته إلى تلك الغابة المشؤومة للبحث عن زوجها، فإنه قطعًا سيرفض، فلم يأتِ إلى هنا للعثور عن المفقودين، فضلًا عن أن الحظ قد لا يحالفه كالمرّة السابقة.

غرق في أفكاره... وسط ثرثرة النسوة... وتحت ظلّ سماءٍ قد زيّنتها نجومٌ... ويتوسّطها قمران أتمّا اكتمالهما.

وتذكّر أنه مدعوٌّ للعشاء في دار (جارف)، ليستأذن النسوة، ويتّجه فورًا في تلبية دعوته.

***

وداخل دار (جارف)... إذ اجتمع أهل الدار جميعهم، حيث: (جارف)، وزوجته، وابنيْن، وبنت، وضيفهم (خرافة)، وذلك على طاولة الطعام، وحرص أن يأكل من أنواع الخضراوات التي _وإن بدت غير مألوفةٍ له وعديمة الطعم_ كانت على الأقلّ أكثر أمانًا من اللحوم التي لا يدري مصدرها! ولن يندهش إن كانت من لحوم تلك السحالي الضخمة! في حين قال (جارف):

- إن هذه المائدة لا ينقصها سوى فاكهة (النارجسيل).

ليسأله الفتى بنبرةٍ شابها الفضول:

- ألهذه الدرجة تعلّقت قلوبكم بهذه الفاكهة؟!

- ليس الأمر متعلّقًا فقط بأكلها، وإنما هي لا تنبت إلّا داخل مملكتنا، ممّا يجعلها مصدرًا مهمًّا للحصول على ثروةٍ من بيعها لسائر الممالك التي لا تصلح أراضيها لزراعتها، وإن أجدادنا قد تدفّقت عليهم الثروات من بيعها، لولا أن فنيت؛ من جراء الحروب.

ثم التفت إلى زوجته قائلًا بنبرةٍ فخورةٍ:

- لن تصدّقي ما جرى لنا اليوم! قد واجهنا جنيًّا، وقتلناه.

شهقت الزوجة من شدّة الفزع! في حين لاح الانبهار على وجوه أبنائه، ورجوه أن يحكي لهم الأحداث بتفاصيلها، ولم يفعل ذلك فحسب، بل أضاف أحداثًا من خياله؛ كي يبدو أكثر بطولةً! في حين أن دوره لم يتعدَّ سقوطه على الجنّيّ!

وبمجرّد أن أنهوا عشاءهم، حتى أقبلوا يتسامرون، وبينما هم كذلك، إذ اقتحم أذنيّ (خرافة) صوتُ معازف ينبعث من مكانٍ ما، ليتساءل عن مصدر هذا الصوت.

فيبتسم (جارف)! ويأمر ابنه الأكبر أن يحضرها، وما هي إلّا لحظات، حتى عاد بشتلةٍ، توجد فيها زهرةٌ صفراء أشبه بالناقوس، وكانت تصدر منها ألحانٌ هادئةٌ تلامس الوجدان، ليقول (جارف) موضّحًا:

- إنها تصدر موسيقى، وإذا رويتها بالماء _وخاصةً بالماء النقيّ_ صار العزف أجمل!

تأمّل (خرافة) الزهرة متعجباً وغير مصدّقٍ، وبدا على (جارف) وأبنائه الفخرُ، قبل أن يقدّم له الابن الأكبر وعاءً، ويسأله إن كان يودّ أن يسقي الزهرة بالماء، فيوافق (خرافة)، ثم تناول منه الوعاء، وأخذ يسقي الزهرة، وما هي إلّا دقائق، حتى اعترى الزهرة التوتّر! قبل أن تهتزّ! ثم تفتح فاهها! وتبصق ما سقاها به (خرافة) على وجهه! لينفجر الابن ضاحكًا وسط صدمةٍ ولحظةِ تيهٍ لدى الفتى، قبل أن يوضّح له الصبيّ قائلًا:

- قد أعطيتك وعاءً يحتوي على يخنة أمي!

وعاد إلى الضحك، وشاركه إخوته، في حين قال الأب بمرحٍ:

- يبدو لي أن هذه الزهرة ذوّاقةٌ للطعام!

ثم انتبه إلى وجود زوجته بجواره، وقد التقت عيناه بعينيها الغاضبتين، وأدرك حينها أن العقاب لن يكون رحيمًا! ليُبدّل دفّة الحديث ناحية (خرافة) _المنهمك في تجفيف ردائه ممّا سكبته الزهرة عليه_ وقال لضيفه:

- هلمَّ بنا إلى دار الضيافة؛ فإن موعد حكي قصّتك داخل الغابة قد حان.

نهض (خرافة) على مضضٍ _فقد تمنّى لو عاد إلى داره؛ ليخلد إلى الراحة، بعد الذي بذله من جهدٍ أثناء التدريب_ لكن... ما باليد حيلة!

* * *

ما إن خطّت أقدام (خرافة) و(جارف) داخل دار الضيافة، حتى أبصروا (ركن القرية)، وحوله أعوانه، والذي بمجرّد أن وقعت عيناه عليهما، حتى أقبل إليهما مرحّبًا، وقاد (خرافة) ناحية بعض ضيوف القرية، معظمهم أركانًا لقُراهم، ومن بينهم برز رجلٌ، فاخر الثياب، ويعلو رأسه تاجٌ ذهبيٌّ يضاهي تيجان الملوك، تتوسّطه جوهرةٌ قرمزيةٌ بحجم كفّ اليد، يحمل صولجانًا من الذهب، مرصّعًا بالدرر، ثم سمع (ركن القرية) وهو يقول مشيرًا إليه:

- وهذا هو (عظيم الأئمة)، والذي نحّى جميع أعمال المعبد بالعاصمة الملكية جانبًا؛ كي يراك ويسمع حكايتك.

أومأ له (خرافة) رأسه محيّيًا، في حين هتف (عظيم الأئمة):

- بحقّ الشمس الأبدية... إن هذا الشابّ الماثل أمامنا، سيجلب الخير لبلادنا، إنه مُتَحَلٍّ بضياء الشمس.

وما إن وفد القوم _ومن بينهم برز (المكلّف بالخير) ذاته_ حتى طلب (ركن القرية) من الفتى الجلوس متوسّطًا الجمع، وشرع يحكي لهم منذ أن أُصيبت زوجته بالداء العجيب، حتى نجا من الغابة الملعونة.

والناس ترقبه... ما بين متعجبٍ ومتشكّكٍ، ولم يجد لـ (إلنا) أثر وسط القوم، لكن لعلّ ذلك من حسن حظه؛ حتى لا تسأله إن لقي زوجها بالغابة، فيعتريه الحرج في أن يُجيبها بالنفي.

لفت نظره من بين الجمع رجلٌ أقنى الأنف عريض الجبهة يكسو رأسه شعر بندقي اللون منسدلاً عن جانبيهِ يكاد يخفي اذنيه، لا تبدو عليه أمارات الاهتمام بالحكي أو حتى بالأحداث، وإنما بدا منشغل البال، يداعب لحية مهذبة غزت الجانب السفلي من وجهه، منعزلًا عن القوم، يراقبهم بعينين كهرمانيتي اللون، بصورةٍ لا تلفت إليه النظر.

وبمجرّد أن انتهى من حكيه، حتى اجتمع القوم به؛ يسألونه عن بعض الأمور، من بينها الكنز، وهنالك مَن سأله عن أقاربه، إن كان قد عثر على أحدهم، بينما أكّد له البعض أنهم وجدوا مَن أُصيب بداء زوجته ذاته _وإن أقسموا إنهم لم يروا ولم يسمعوا عن دوابٍّ توافق تلك التي سبق وهاجمت زوجته، وسبّبت لها داءً لا شفاء منه_ وبمجرّد أن انتهى من لقاء القوم، حتى لمح (جارف) مقبلًا عليه؛ ليسأله عن ذلك الرجل الغامض؛ فقد أثار فضوله؛ كونه حضر دار الضيافة، غير أنه لم يكن منصتًا لحديثه، فأجابه (جارف):

- لا يبدو لي أن رأيته من قبل، ولا أخاله من أحد رعايا المملكة العظيمة.

زاد ذلك من حيرة (خرافة)، خاصةً وأنه بدا شخصًا نبيلًا رغم بساطة هيئته، إلّا أنه في النهاية قرّر أن يتجاهل أمره.

***

الفصل الثالث عشر:

الملك الذي لا يعرف النوم

تردّد صدى أنباءٍ حول الملك المبجّل (أسدان)... فبينما مرّ بموكبه على إحدى القرى بمملكته؛ ليتفقّد أحوالها ويغدق على أهلها من ماله، حتى وقعت عين حرسه على أحد الرعايا ينازع الموت؛ نتيجةً لإصاباتٍ بليغةٍ تعرّض لها جسده، ليشرف الملك على علاجه وتطبيبه بعشبة (دِرحاء).

ليعمّ النبأ أرجاء المملكة، ويصدح الشعراء بعظمة الملك المبجّل، وتتغنّى القينات بالقصائد، ويشكر القومُ الشمسَ الأبدية على حسن اختيارها لهم هذا الملك العظيم، بينما تساءل أحدهم:

- أنّى للملك المبجّل من الإحاطة بعلم التطبيب؟! كما أن تلك العشبة نادرةٌ، وليس من المعقول أن تجد مَن يجوب الطرقات وهي بحوزته بلا داعٍ!

ردّ صديقه متبرّمًا:

- إنما هي الشمس الأبدية التي ألهمته.

ليردّ وقد لاحت عليه أمارات الذكاء:

- بالفعل! هي الشمس الأبدية! أنّى لي نسيان ذلك؟!

***

ومع إشراقة فجر اليوم التالي... إذ اجتمع (خرافة) بـ (جارف) ورفاقه؛ لينطلقوا على السحالي العملاقة في رحلة صيدٍ، وهم: (عارف) شقيق (جارف)، واثنان سبق أن قابلهما من قبل وهما (نهار) و(هادن)، كان الأخير هو أكبرهم سنًّا، ويفوقهم خبرةً في الصيد، ويذكر أن (جارف) أوصاه بعدم ذكر أمر الغابة المشؤومة أمامه أبدًا، ولم يطلعه على السبب، واحترم قراره _وإن تمنّى لو يعلم الداعي لذلك يومًا ما_ ليسألهم (خرافة):

- هلا أنبأني أحدُكم عن نوع الصيد الذي سنصطاده؟

أجابه (هادن):

- سترى بنفسك!

قال (عارف) بنبرةٍ حزينةٍ:

- آمل ألّا نعود كالرحلة السابقة!

سأله (خرافة) بنبرةٍ شابها القلق:

- ألهذه الدرجة الصيد صعبٌ؟!

- إن الفقر أفضى إلى تحوّل الأهالي للصيد، ممّا نتج عنه انخفاض أعداد الحيوانات، إنه بالكاد يسعك العثور على أحدها.

قال (نهار) بنبرةٍ مرحةٍ:

- علينا ألّا نغفل كون مليكنا المبجّل يسعى جاهدًا لكشف هذه الغمّة، وكذلك مع حصاد فاكهة (النارجسيل)، سنغدو أثرياءً في غضون أشهرٍ قليلةٍ.

بثّت هذه العبارة الأخيرة الأمل في نفوس القوم، وأدركوا أن أيام البؤس أوشكت أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، في حين تذكّر (جارف) أمرًا، ليقول بفخرٍ:

- لا أخالكم تصدّقونني إن أخبرتكم أنني والناجي قد تسنّى لنا قتل جنّيٍّ!

لاحت أمارات الذهول على ثلاثتهم ممّا سمعوا، واستحثوه أن يحكي لهم الأحداث، ولم يكذبّ خبرًا! وشرع يقصّ عليهم نبأ ما حلّ بهم، ومجدّدًا أضاف وحذف من الحكاية، حتى بدا لـ (خرافة) أنه يحكي قصّةً أخرى لأناسٍ آخرين! واحتلّ الذهول قسمات وجوه الرفاق الثلاثة.

وتابعوا مسيرهم بالسحالي العملاقة، حتى انتهى بهم المطاف إلى غابةٍ صغيرةٍ بدت كجنةٍ، مقارنةً بتلك الغابة الجهنّمية التي نجا منها، وترجّل جميعهم عن السحالي، وحرصوا على ربطها إلى جذوع الأشجار.

ثم شرع (هادن) يُملي لهم خطّة الإمساك بـ (الواثب)، وقد فضّلوا أن يقف (خرافة) في الخلف؛ نظرًا لقلّة خبرته في الصيد، وانطلق الأربعة متفرّقين يمضون بحثًا عنه، ولبث الفتى مترقّبًا، والهدوء والصمت يعمّان الغابة، وطال انتظاره، حتى سمع صوتًا ينبعث بين الشجيرات، وسمع (هادن) يهتف قائلًا:

- أمسِكْ به يا (عارف)! إنه يتّجه نحوك!

دوّى صوت ارتطامٍ، قبل أن يرى (عارف) مندفعًا إلى الخلف بشدّةٍ، ثم سمع (نهار) هاتفًا:

- يا للشمس الأبدية! لقد أفلت منه، إنه متّجهٌ نحوك أيها الناجي الثالث!

جالت عين (خرافة) بتوجّسٍ، تبحث عن (الواثب)، ولم يمضِ الكثير من الوقت، حتى لمحه يبرز من بين الشجيرات، كان شديد البياض، وطوله بطول الإنسان ـ وإن كان يفوقه عرضًا بما يقارب الضعفين ـ طويل الأذنين، يثب على قدمين، ولا عجب إذًا؛ فإن اسمه هو (الواثب).

دنا من الفتى... والذي تحسّس خطاه نحوه فاردًا ذراعيه، ساعيًا إلى تهدئته، وقد نجح صنيعه، إذ سكن (الواثب) تمامًا عن الحركة، وظلّ واقفًا أمام الفتى بلا حراكٍ، وبدا للقوم أن الإنسيّ موهوبٌ بحقٍّ.

في حين اتّسعت ابتسامة الفتى، وقد ظهر له أن السيطرة على الحيوانات هنا ليست بالأمر العسير، غير أن ابتسامته قد خفتت بعد أن وثب (الواثب) وثبةً مرتفعةً، حتى انتهت قدماه إلى مستوى صدر الفتى، ليدفعه بقدميه دفعةً أبعدته لعدة أذرع، ليهتف أحدهم:

- لقد تجاوز الناجي الثالث! فليمسك به أحدكم قبل أن يفلت منّا!

تابع (الواثب) وثبه غافلًا أمر (هادن) المتعلّق بشجرةٍ أعلاه، وبمجرّد أن دنا من موضعه، حتى هبط عليه، وتعلّق بـ (الواثب)، والذي سعى جاهدًا لينفلت عنه، حتى عاونه (جارف) ومعه (نهار)، وتسنى لهم جميعهم من شلّ حركته، قبل أن يربطه (هادن)، فيُعجزه عن الحركة تمامًا.

وبعد مدّةٍ من الوقت _تخلّلها ذبح (الواثب) وسلخه وتقطيعه_ اتّفقوا على العودة بعد هذه الرحلة الموفَّقة، وقد أيقنوا أن الناجي الثالث هو تميمة الحظ لديهم.

وبينما هم في طريق العودة، إذ هتف هاتفٌ يستوقفهم، وما إن التفتوا إلى مصدر الصوت، حتى وقعت أعينهم على الأمير (سادان)، وبرفقته حرسه الخاص، فيترجّل الخمسة، ويسجدون للأمير، عدا (خرافة)، ليتحوّل (سادان) نحوه مستنكرًا، ويسأله أحد الحرس متجهّمًا:

- أنت يا هذا! اسجد لسموّ الأمير (سادان) وليّ عهد مملكتنا العظيمة.

- لا أسجد سوى لخالقي.

قالها الفتى بكبرياءٍ، ليحتقن وجه الأمير، بينما هتف الحارس:

- ويحك! ألا تعظّم أميرنا؟

أجابه بلا مبالاةٍ:

- أميركم! ومَن يكون أميركم؟!

ازداد احتقان الأمير، ليدنو من (خرافة) مستلًّا سيفه، قائلًا:

- اسمي هو الأمير (سادان)، ولي عهد مملكة (بارانية)، إياك أن تنساه!

قال (جارف) والذي ظلّ على وضعية السجود:

- اعذره يا جلالة الأمير، إنه الناجي الثالث، وهو حديث عهدٍ بأرضنا.

ردّ الأمير بنبرةٍ متعاليةٍ:

- إذًا... علِّمْ صديقك الأدب! فإن وقاحته قد تكلّفه حياته!

أشار بحرسه... ليأمروا الساجدين الأربعة بالاعتدال واقفين، ثم أردف متسائلًا مشيرًا بيده ناحية متاعهم؛ يريد معرفة ما بها، ليجيبه (جارف) أن بها لحمٌ وفرو حيوان (الواثب)، فيقول الأمير وبلا اكتراثٍ إنه سيحصل على نصف ما بحوزتهم!

لتشحب وجوه الأربعة لوهلةٍ! قبل أن يوافقوه، ويشرع (هادن) بحمل حقيبتين من الحقائب الأربعة، ويمدّ يده يناولها إلى الأمير، قبل أن يجذبها (خرافة)، ويسأل الأمير قائلًا:

- بأيّ حقٍّ تودّ أخذها منهم؟!

كاد يُجيبه، لولا أن بادر (هادن) بالإجابة، بأنها كهديّةٍ، ليردّ الفتى محتجًّا:

- الهديّة تُهدى! لا تؤخذ عنوةً! لذلك أُعيد سؤالي إلى الأمير... بأيّ حقٍّ تودّ أخذها؟!

أجاب الأمير بنبرته المتعالية:

- إنها تقع داخل حدود مملكتي، ولذلك فهي ملكي أنا، وأنا أتنازل عن النصف لرعيّتي.

- كانت مالًا شائعًا، إلى أن اصطادوها، فأصبحت ملكًا لهم، وإن لهم أهلًا يريدون إطعامهم إبّان هذه الحقبة العصيبة.

- هل أشرع في البكاء؟! إن مملكتنا وسائر الممالك حولنا تكابد الفقر، وعلى الرعيّة التحمّل والصبر.

- لكن أخذك قوتهم عنوةً يعدّ سرقةً.

- أقلت سرقة؟! أتجرؤ على أن تتّهمني أنا الأمير (سادان)؟!

وما إن قالها حتى صفع (خرافة) صفعةً، استشاط منها الأخير غضبًا، وجذب الأمير من تلابيبه، والذي شحب وجهه هلعًا، واستلّ الحرس سيوفهم، وهَمَّ الفتى أن يهشم رأسه بعصاه، لولا أن جذبه (جارف) بقسوةٍ، وأبعده عنهم، وسجد للأمير، قائلًا:

- اقبل _يا جلالة الأمير_ لحم (الواثب) كله، وفروه هديّةً لك منّا.

هَمَّ (خرافة) أن يحتجّ، قبل أن يغطّي (عارف) فاهه بيده؛ كي يمنعه من أن يعرّض نفسه للموت، في حين استلم أحد الحرس الحقائب الأربعة، وقبل أن يغادروهم، قال الأمير بنبرته المتعالية:

- علّموا الإنسيّ الأدب، فإن العفو ليس من شيمتي.

ورحلوا جميعهم، وتركوا الرفاق وحدهم، وساد الصمت، قبل أن يقطعه (خرافة) معاتبًا لهم:

- ما كان لكم أن تتنازلوا عن صيدكم! إنه حقكم وحق أهليكم.

- إنما أردنا حمايتك، فإنه كان ينوي قتلك!

هتف الفتى محتجًّا:

- وماذا إذًا؟! أنسلّم لهم أموالنا كي لا يقتلوننا؟! إنهم والله قطّاع طرقٍ وليسوا ملوكًا!

همس (نهار) بحذرٍ وعيناه تجوبان المكان:

- اخفض صوتك أرجوك! وإلّا سمعوك.

- فليسمعوني، إن ما شجّعهم على السرقة هو خنوعكم وضعفكم، ولو وجدوا رعيّةً تقف في وجه ظلمهم، لما تجرؤوا على سلب حقوقكم أبدًا.

- فلنعد اليوم، وغدًا نصطاد.

- لكنكم بالكاد وجدتم أحدها خلال أيامٍ من البحث.

- سنواصل البحث غدًا؛ لعلّ الحظ يحالفنا كما حالفنا اليوم.

- وماذا لو عاد ذلك اللصّ، وطلب نصف صيدكم؟!

- لنهدينه النصف عن طيب خاطرٍ.

- كلانا يعلم أنك لن تعطيه إياه، إلّا بدافع الخوف منه.

- فلنفترضْ ذلك! أكنت تودّ أن يقتلونا؟! ثم إنها أرضهم، وإن كل ما عليها ملكٌ لهم.

- أَهُمْ مَن خلق الأرض ومَن عليها؟ بالطبع لا، إن هم إلّا زمرة تتولّى مقاليد البلاد لوهلةٍ من الزمن، وتفنى، فيخلفها غيرها.

هنا... قال (نهار) هامسًا بنبرةٍ أقرب إلى الرجاء:

- رجاءً! لا تخوضوا في هذا الحديث، فيسمعكم أحدهم، وتنتهي بنا الحال إلى الحبس، وربما القتل!

ظلّ (خرافة) صامتًا طيلة رحلة العودة، ومتبرّمًا من استيلاء ذلك اللصّ على صيد هؤلاء المساكين بالكامل.

وبمجرّد أن عادوا إلى القرية، حتى افترق الجميع، واتّجه (خرافة) صوب داره مهمومًا حزينًا، مبصراً _أثناء طريقه_ الفقر والجوع يعمّان أرجاء قرية (دارناج).

وداخل داره... إذ وجد (إلنا) عاكفةً على تنظيفها، والتي ما إن رأته، حتى رحّبت به، وأبصرت الأسى يحتل قسمات وجهه، لتسأله عن خطبه، فيحكي لها ما جرى حول صيد (الواثب)، وعن استيلاء ذلك الأمير عليه بأكمله، لتقول له معاتبةً:

- كدت تقتل نفسك بلا داعٍ؛ فهذه الأرض ملكٌ لهم.

- وتردّدين الحديث ذاته؟

- إنها الحقيقة، ولا تدري ما يبذله الملك من جهدٍ في صالحنا، إنه لقلّما ينام في سبيل راحتنا.

- وماذا عن المجرم ابنه؟! أيعلم بأمره؟

- إنه شابٌّ طائشٌ، وما إن يكبر ويتوّج ملكًا، حتى يصير عادلًا مثل أبيه.

- صدّقيني... لن يصلح حاله أبدًا، لقد جرّبته، ولاحظت غطرسته وغروره، وعدم مبالاته، إن شخصًا مختلّ العقل مثله، لو أشار بيده، لقطع حرسه كل مَن يعارضه.

- إنك تبالغ، فهو يبدو كذلك في الظاهر، لكنه في حقيقة الأمر يسعى ليغدو ملكًا عادلًا.

لم يظهر عليه الاقتناع، لتقول له في محاولةٍ منها لتغيير دفّة الحديث:

- أمّا فيما يتعلّق بالضائقة المالية التي يعاني منها أهالي القرى، فإن زراعة وتجارة (النارجسيل) ستتكفّل بها؛ وذلك لما تتمتّع به من شعبيةٍ لدى سائر الممالك، كما أن الملك المبجّل قد أمر الشعراء من إشاعة النبأ بين زوّار المملكة القادمين من الخارج، حيث إننا قد شرعنا في زراعة الفاكهة.

أطلق سبّةً في نفسه، أمعنى ذلك أن هنالك زوّارًا جددًا لسماع حكايته داخل الغابة؟!! اعتراه الضيق وهو يتخيّل نفسه يعود إلى حكي المزيد من الهراء إلى أناسٍ لا يعرفهم! لكن ما باليد حيلة! ربما يجد مَن لديه أيّة معلومةٍ عن العلاج لداء زوجته، أو على الأقلّ... مَن رأى أو سمع عن تلك الدوابّ المضيئة.

***

اجتمعت وفودٌ جديدةٌ داخل دار الضيافة، واستهلّ يحكي لهم حكايته داخل الغابة، ومجدّدًا لاحظ ذلك الرجل غير العابئ بقصّته والمنهمك في مراقبة الناس حوله بصورةٍ غير ملفتةٍ للنظر، وكذلك لم تحضر (إلنا) للاستماع إلى حكايته.

وما إن كان ينتهي، حتى يجتمع القوم ويسألوه عن بعض أفراد أهاليهم، في حين يستغلّ الفرصة، ويسألهم عن علاج داء زوجته، وكالعادة يتلقّى الإجابة ذاتها بالنفي، أمّا فيما يتعلّق بالدوابّ المضيئة، فلم يجد أحدًا رآها، أو حتى سمع عنها، ممّا بثّ بعقله الظنون، أن لعلّه قد توهّمها.

***

ذاع بين الناس نبأ إصابة إحدى القينات بعارضٍ! ليصدر الملك (أسدان) قرارًا بتحمّل علاجها على نفقة المملكة لدى أفضل المطبّبين، ليصدح الشعراء يمدحون عطف الملك وكرمه، وتتغنّى القينات بالقصائد، ويشكر الناس

الشمس الأبدية على تفضّلها عليهم بهذا الملك العظيم... آملين أن يحين الدور على مرضاهم؛ لينعموا بالكرم ذاته.

وتتوالى الأنباء حول الملك العظيم، والذي أصدر قرارًا بالإفراج عن مسجونٍ لبث داخل زنزانته لسنواتٍ دون تهمةٍ، وإصداره قرار تعيين عاطلٍ عن العمل بالديوان الملكي، قد لقيه مصادفةً أثناء تفقّده أحوال رعيّته، وعثوره على أمٍّ لطفلةٍ ضلّت طريقها مصادفةً وسط حرسه الخاص، وغيرها من المصادفات التي لا ينفكّ القوم على شكر الشمس الأبدية لتفضّلها عليهم بهذا الملك العظيم، والذي لا يعرف النوم.

***

وتمضي الأيام... و(خرافة) يعكف على التدريب، وفي الليل، كان يجتمع بضيوفٍ آخرين لدى دار الضيافة؛ ليستمعوا إلى حكاياته داخل الغابة الملعونة.

وحلّ موسم حصاد فاكهة (النارجسيل)، وشرعت المملكة في بيعها إلى الممالك الأخرى، غير أنه _مع مضيّ الشهور_ لم تتغيّر أحوال القوم! على الرغم ممّا تمّ بيعه من محصولٍ! حتى فاض الكيل بأحدهم، ليصيح غاضبًا:

- إن الوضع لا ينبّئ بالخير! فعلى الرغم من بيْع الحصاد من فاكهة (النارجسيل)، إلّا أن حالنا لم تتبدّل، ولا تفسير لذلك سوى أن هذه الأموال قد استأثر بها أعوان الملك المبجّل.

احتجّ آخر:

- كذبت! فقد تمّ تمهيد الطرق وتحسينها.

- هذه الطرق خاصةٌ بالعاصمة الملكية فقط، ثم إن الأوْلى لنا تحسّن حالنا؛ فهو من الضروريات، ثم الانهماك فيما هو أدنى لاحقًا.

- ما أنت إلا جاسوسٌ! يهدف إلى زعزعة الأمن العام، والتشكيك في مملكتنا الرشيدة.

- وما أنت إلا منافقٌ! يهدف إلى تخديرنا بالأكاذيب.

والتحما في عراكٍ، وسعى القوم في فضّه، وكلٌّ منهما يتراشقا بالاتهامات.

اعترى القوم التذمّر، وبدا للكل أنهم على مشارف ثورةٍ قد تغمر أرجاء المملكة، حتى حضر عظيم الأئمة، وجمع القوم، وشرع يحدّثهم عن الزهد والصبر على البلاء، فهذا البلاء لا يعدو عن اختبارٍ ليتميّز المؤمن عن الفاسق، ثم أشار إلى صورة الشمس أعلى صولجانه، قائلًا بحماسةٍ:

- وحقّ الشمس الأبدية... إن ذنوبكم هي سبب الفقر الذي ألمّ بكم، وليس أيّ سببٍ آخر، لذلك عليكم بالصلاح، لتتحسّن أحوالكم.

فاضت الدموع من أعين البعض، يغمرهم الخجل من أنفسهم، بأيّ حقٍّ كانوا يطمعون في الدنيا وهم مذنبون غارقون في بحار معاصيهم، ثم ودّعوا عظيم الأئمة، والذي انحشر لدى باب عربته الفاخرة؛ بسبب جسده المكتظّ! وبالكاد تمكّن من الولوج إلى داخل العربة بمعاونةٍ من الحرس، ودسّ صولجانه الذهبيّ المرصّع بالدرر داخل كمّه! قبل أن يتحرّك السائق بالعربة نحو العاصمة الملكية.

وألقى الشعراء قصائد تحثّ على الصبر، وبثّ الأمل، وقد تغنّت بها القينات، لتتمايل معها الرؤوس قبل الأجساد، في خضم تزايد محصول فاكهة (النارجسيل)، يتبعه انتعاش تجارتها، وزيادة عدد التجّار الوافدين من الخارج.

أمّا رعايا المملكة، فلم يشهدوا سوى تحسّنٍ طفيفٍ لا يتماشى مع ما يدخل خزينة الدولة، بل الأدهى من ذلك أن المكوس قد ارتفعت عليهم، وصاحب

ذلك ارتفاع الأسعار، فتعمّ الحيرة ألباب الناس، خاصةً حينما زعمت المملكة أن نتائج هذه الإجراءات تصبّ في صالح رعاياها!

* * *

وفي تلك الأثناء... اقتحم أذنيّ (خرافة) صوتُ طرقٍ على باب داره، وما إن فتح الباب، حتى برز كلٌّ من (جارف) و(نهار)، فسألهما _وهو يفسح لهما المجال لدخول الدار_ إن كان الهدف هو رحلة صيدٍ أخرى، ليُجيبه (نهار) بنبرةٍ اعتراها الأسى:

- بل قرّرنا أن تذهب بصحبتنا إلى الملك؛ نشكو له حالنا.

- نِعْمَ الرأي! لكن ما سبب زجّي بالأمر؟!

هنا أجاب (جارف):

- إن وجود الناجي الثالث بصحبتنا، يعزّز من موقفنا، ولربما أكرمنا ببعض المنح والعطايا.

- إن كان لوجودي خيرٌ لكما، فأنا على أتمّ الاستعداد للرحيل معكما فورًا، لكن... أليس من واجبات الملك منح جميع رعاياه حقوقهم دون طلب منهم؟

- إن الملك المبجّل غارقٌ في بحار مشاغله، لذلك قرّرنا لقاءه؛ كي يعرف بحالنا، ومدى الضرر الذي ألمّ بنا.

- أنّى له بجهل حالكم؟ أليس هو الملك؟! أليس هو المسؤول عن أمنكم وأوضاعكم؟

- بلى، لكن حاشية السوء هي مَن تصوّر له عكس الحقائق.

لم يجد (خرافة) إلّا أن يصحبهم إلى العاصمة، حيث القصر الملكي، وبمجرّد أن انتهت بهم خطاهم إليه، حتى جحظت أعينهم؛ من فرط فخامته وعظمته، لقد

سبق أن سمع كلٌّ من (جارف) و(نهار) عنه، لكن لم يتخيّلاه بهذه الصورة، حيث البناء الشاهق، فضي اللون، تتوسطه قبّةٌ ذهبيّةٌ وسط أربعة أعمدةٍ، يعلو كل واحدٍ منها شعار المملكة، وهو عبارة عن قرص شمسٍ، تتوسّطها صورة الملك (باران)، تحيط بها حديقةٌ غطّتها أشجارٌ، ترنّمت بينها أزهارٌ بألحانٍ سحرت ألبابهم لوهلةٍ!

ثم بدأ يعود إليهم وعيهم، وقد وقعت أعينهم على سلّمٍ شاهقٍ، ينتهي إلى بوابة القصر، ليصعدوا عددًا لا حصر له من الدرجات، انتهى بهم المطاف إلى البوابة، فيمنعهم الحرس بقسوةٍ، سائلين عن سبب قدومهم، فيخبرهم (نهار):

- جئنا _وبصحبتنا الناجي الثالث_ نطلب لقاء الملك المبجّل.

- الملك في مشغلةٍ، وليس... مهلًا!! أقلت بصحبتكم الناجي الثالث؟!

وسمح لهم _فورًا_ بالدخول، وتبعهم أحد الحرس، حتى أمرهم بالمكوث في ساحة الانتظار، والتي اكتظّت بعددٍ من الرعايا.

ولم يمضِ الكثير من الوقت، حتى عاد الحارس ملوّحًا لهم بمرافقته إلى قاعة الحكم، ليذهب الثلاثة معه، قبل أن يتوقّف (خرافة)، ويسأل بفضولٍ مشيرًا إلى الرعايا المتواجدين قبلهم:

- وماذا عن...؟

وكزه (نهار)؛ ليُسكته، قبل أن يهمس:

- اتبع الحارس فحسب! ودون جدالٍ!

تبعهم وهو في حيرةٍ من أمره، حتى دخلوا على الملك، والذي كان عرشه في أبهى صورةٍ، حيث وقفوا على أرضيةٍ من الذهب الخالص! تزيّنت بزخارف من الدرر، يتوسّط القاعة بساطٌ فاخرٌ قرمزي اللون، ينتهي إلى كرسيّ الملك،

والذي يضاهي الأرضية فخامةً، يُحيط به خدم، ويجلس عن يمينه وعن شماله المكلّفون.

وما إن قدموا بين يديه، حتى سجد كلٌّ من (نهار) و(جارف)، ليصيح أحد المكلّفين معاتبًا (خرافة):

- تعلّم الأدب! واسجد للملك المبجّل (أسدان)! أعظم ملوك الأرض!

أشار الملك بيده؛ كي يسكت المكلّف، قائلًا:

- لا بأس! فهذا من العادات السخيفة والقديمة! وأنتما... انهضا من سجودكما!

ثم شرع يتفحّص الفتى قائلاً:

- إذًا... فأنت هو الناجي الثالث، إنه لمن دواعي سروري أن أرى حاجتك، وألبّيها لك.

التفت (خرافة) إلى رفيقيه؛ كي يشكيان حاجتهما، إلّا أن هيبة الملك على عرشه قد حالت دون ذلك، وتحوّلا إلى صنمين! لذلك قال له حاجة رفيقيه، وحاجة أهل قرية (دارناج) جميعهم، ليردّ الملك بترحابٍ:

- إنه ليغمرني سعادةً أن ألبّي لهما حاجتهما وحاجة أهل القرية، وسترجعون إليها محمّلين بالهدايا والعطايا.

عاد كلٌّ من (نهار) و(جارف) إلى وعيهما بمجرّد أن سمعا النبأ، ليهتفا متحمّسين:

- عاش الملك المبجّل والمفدّى!

ثم أدركا أنهما تحدّثا دون استئذانٍ، ليسجدا إلى الملك مجدّدًا، والذي انفجر ضاحكًا، ليأمرهما بالنهوض، قبل أن يقول له (خرافة):

- إنني ممتنٌّ بقرارك، لكن أيتوجّب عليهما المثول أمامك في كل مرّةٍ يطالبان فيها بحقوقهما؟!

هتف أحد المكلّفين متجهّمًا:

- احفظ مركزك يا هذا! فإن الملك في مشغلةٍ.

- لا أجد مشغلةً أعظم من شؤون رعيّته.

ليحتقن وجه المكلّف، في حين قال الملك موضّحًا:

- إننا نسعى لإصلاح العديد من الأضرار في شتّى أنحاء المملكة، وبالطبع سيحين وقتُ تحسين أوضاع أهل (دارناج).

وكز كلٌّ من (نهار) و(جارف) (خرافة)؛ كي يخرس! فقد حصلوا على ما جاؤوا لأجله، وشكروا جميعهم الملك، وعادوا ومعهم عُمّال الملك، وهم محمّلون بالهدايا والعطايا لأهل قرية (دارناج).

***

الفصل الرابع عشر:

حاشية السوء

غمرت السعادة قلوب أهل قرية (أستار)... حينما وقعت أعينهم على موكب الملك المحاط بجمعٍ غفيرٍ من الحرس، وتجمهر القرويّون حوله يهتفون بحياة الملك المبجّل (أسدان)، والذي برزت يده من خلف النافذة ملوّحةً لهم، لتضجّ القرية بهتافهم.

ثم أخرج لهم يده مرّةً أخرى، وكانت محمّلةً بقطعٍ من النقود، والتي تلمع لمعانًا يماثله لمعان أعين القرويّين، وهم مترقّبون أن يلقي بها عليهم، ولم يخب ظنّهم، وما إن لامست الأرض، حتى تسابقوا نحوها، لتتصادم الأفواج في التقاطها.

بينما أراد آخرون أن يتفضّل الملك بالمزيد، ولم يكذّب خبرًا! إذ عاد يلقي بقطعٍ نقديةٍ أخرى، والقوم يهتفون باسمه، ويشكرون كرمه وعطفه عليهم، قبل أن يلوّح لهم بيده مودّعًا، والحرس عاكفين على دفع وضرب كلّ مَن يدنو من موكب الملك، والذي تحرّك عائدًا للعاصمة الملكية، يلحقه الهتاف والدعاء للملك الكريم.

ومن خلف هذه الجموع، غمغم أحدهم متجهّمًا، وبدا وكأنه يحدّث نفسه:

- يسرق أموالهم، ثم يتفضّل بالفتات عليهم، ثم يشكرونه على كرمه! إن الحماقة ذاتها تعجز على أن ترتقي إلى هكذا مرتقى!

وصل كلامه إلى مسامع شابٍّ بجواره، ليقول له بصوتٍ خافتٍ:

- اخفضْ صوتك! وإلّا اعتقلوك!

- وما الضير في ذلك؟! على الأقلّ... سيتوفّر لي الطعام، بالإضافة إلى الموضع الذي أبيت فيه، بعد أن استولوا على داري وأرضي؛ لزراعة (النارجسيل)، وحتى هذه اللحظة لم يتمّ تعويضي بدارٍ أخرى!

ردّ شابٌّ آخر بنفاذ صبرٍ:

- إننا نعاني من ضائقةٍ ماليةٍ، والملك المبجّل يفعل ما بوسعه لحلّ هذه الأزمة، وكل ما يتوجّب علينا هو الصبر.

- هذا ما قيل لنا منذ سنواتٍ! ولم نَرَ خيرًا إلى الآن! وعلى الرغم مع شيوع فاكهة (النارجسيل)، إلّا أن حالنا أضحت من سيّئةٍ لأسوأ!

- إنها حاشية السوء، واستغلالها لثقة الملك المبجّل، هي التي استولت على خيراتنا، وباتت تُخفي عنه ما نكابده من نوازل.

وطال الجدال بينهم... وبمجرّد أن انتهوا، حتى انفضّوا عن الموضع.

وفي اليوم التالي... لم يُرَ أثرًا للأفراد المتجادلين، ولم يتساءل أحدٌ عن سبب اختفائهم، فمن الحكمة _في بعض الأحيان_ عدم التطرّق لبعض الأمور! فإن العاقبة لن تكون حميدةً أبدًا.

***

تردّد صدى لأنباء قيام مملكة (بارانية) بإخلاء مواضع بعض القرى؛ لزراعة المزيد من فاكهة (النارجسيل)، وكل مَن يحتجّ أو يعترض، تحيط به أصابع الاتهام بالخيانة، لذلك تمّ تهجير أعدادٍ من القرويّين.

وعلى الرغم من زراعة هذه الفاكهة المحبّبة، وبيعها للقوم، إلّا أن الأوضاع المعيشية لرعايا المملكة ظلّت على حالها _وإن شابها تحسّنٌ طفيفٌ_ ممّا أدّى إلى غرق الرعيّة في دوّامة الحيرة حول السرّ الذي يتوارى خلف غُمّة لا تودّ أن تنقشع!

وفي أحد الأيام... حضر جمعٌ من عسكر المملكة إلى قرية (دارناج) آمرين بعض القرويّين بإخلاء منازلهم؛ لهدمها؛ كي يتّخذوها أرضًا لزراعة فاكهة (النارجسيل). وبالطبع رفض جميعهم، ليرغّبهم العسكر ببعض الامتيازات، فيضعف البعض، ثم تحوّل الأمر إلى نعت المعارضين بالخيانة العظمى، وكل مَن يخالف أمر المملكة، ليضعف ويستسلم الباقي، ويتنازل الأهالي عن ديارهم.

لكن... رفض فردٌ واحدٌ بشدّةٍ! وحال ما بين عسكر المملكة وداره، وظل يهتف:

- إنها دار آبائي وأجدادي! عشت فيها قرابة مائة عامٍ، ولا أتخيّل نفسي أسكن غيرها!

لم يجد العسكر حلًّا لهذه المعضلة، سوى أن أبرز قائدهم رسالةً مذيّلةً بختم الملك، تنصّ على أن مَن يعارض مصلحة المملكة العظيمة، فإنه يعدّ خائنًا، ويتمّ حرقه داخل داره!

دوّى صوت شهقات رعبٍ وهلعٍ من بعض نسوة الدار، صحبتها أصوات صراخٍ شديدةٍ، بينما غمر التوتّر أهالي قرية (دارناج)، ولا حيلة لهم سوى المشاهدة

والتضرّع للشمس الأبدية أن تنجيهم، أو أن يتعقّل صاحب الدار، ويسمح لهم بهدم داره، وامتلاكهم أرضه كباقي العقلاء!

وداخل داره... إذ هتفت به زوجته:

- كلّا! لن نغادر الدار وندعك وحدك يا (راحم)! إمّا أن نغادر معًا، وإمّا أن نموت معًا.

قال زوجها بنفاذ صبرٍ:

- لم يعد هنالك وقتٌ! ولا تنسي أن أمي وأولادي هنا، وهم في حاجةٍ إليكِ.

- إذًا... كفّ عن هذا الجنون، ودَعْ لهم الأرض والدار.

- إنها أرض آبائي وأجدادي، فأنّى لي التخّلي لهؤلاء عنها؟! ثم يتوجّب أن يقف أحدٌ أمام هذا الضيم، ولعلّ موتي يكون سببًا لتغيير القوم، والكفّ عن الصمت.

- لكن ماذا لو أن حرقك داخل دارك زاد من خوفهم وجُبنهم؟! ما النفع الذي سيحلّ علينا بعد هذه التضحية إذًا؟!

قال، وقد ارتسمت على ثغره ابتسامةٌ شابها الأسى:

- صدّقيني... إن أيّ فعلٍ إجراميٍّ يصدر عن المملكة، لن يزيد من خوفهم؛ لأنه بلغ بهم أقصى حدوده.

وما إن أنهى عبارته، حتى أمر ابنيه الشابّين بإخراج الأهل من الدار، وسط احتجاجٍ من الزوجة وبناته، بينما عكف أحد أفراد العسكر على دهن الدار بالزيت، وآخر أشعل شعلةً، والكل يترقّب إشارة قائد العسكر، والذي ما كاد أن يرفع يده، حتى انهال عليه فتى ضربًا بالعصا على وجهه! وسط ذهول العسكر وباقي أهالي القرية، حتى سقط القائد مغشيًّا عليه، بوجه غطته الدماء، ولم يكن الفتى المتسبّب بضربه سوى (خرافة)!

هنا... شهر باقي العسكر سيوفهم، واندفعوا نحوه، قبل أن ينقضّ عليهم ثلاثة مقاتلين، تسنى لهم نحرهم، ولم يتعرّف الفتى سوى على قائدهم، والذي رآه عدّة مرّاتٍ داخل دار الضيافة، حيث كان يتجاهل حكايته منهمكًا بمراقبة الناس، ليسمعه يقول كابحًا جماح غضبه:

- لديَّ سؤال يا فتى، أين كان عقلك حينما اعتديت على قائدهم؟!

أجابه (خرافة) حانقًا مشيراً بيده ناحية الدار المغطّاة بالزيت:

- أكان الأوْلى أن أدعهم يحرقوا دارًا تعجّ بأبرياء؟! لا ذنب لهم، إلّا أنهم رفضوا هدم دارهم!

- إن التعدّي على عسكر الملك مصيره الموت! وليس لك وحدك! وإنما لأهل القرية جميعًا! انظر بنفسك!

جالت عينا الفتى قرية (دارناج)، ليجد أهلها في حالة ذهولٍ ورعبٍ، والبعض سقط أرضًا يبكي متحسّرًا على مصيره المجهول، ليتساءل (خرافة):

- لكن... ما ذنبهم؟! إنما أنا مَن منع العسكر عن حرق الدار، فلِمَ يتمّ عقاب قريةٍ بأسرها بصنيعي؟!

- السبب هو هيبة المملكة! ولكي يسود الطاغية، لا بدّ من زرع الرعب والهلع داخل قلوب الرعيّة؛ حتى يتسنّى له السيطرة عليهم!

اقترح (خرافة) بإخلاء القرية على وجه السرعة، ليُجيبه الرجل متجهّمًا:

- وندع لهم الديار ليهدموها، والأراضي ليستولوا عليها؟! إن ذلك الخنزير يطمع منذ سنواتٍ في الاستيلاء على أراضي القرية، وتحويلها إلى أراضٍ زراعيةٍ؛ نظرًا لكونها أخصب بقعةٍ على وجه الأرض السابعة.

لم يعرف عن أيّ خنزيرٍ يتحدّث، إلّا أنه سأله عن الحلّ، ليُجيبه الرجل الغامض ببساطةٍ... أن يحولوا بين المملكة وهدمها لديار القرية، ليسأله (خرافة) بنبرةٍ محتجّةٍ:

- وهل نمنعهم برفاقك وبالقرويّين؟! إنها _قَطْعًا_ ليست معركةً متكافئةً!

قال الرجل بنبرةٍ واثقةٍ:

- لا تشغلْ بالك، سأرسل إلى رفاقٍ لي؛ كي يعاونونا ضدّ جُند المملكة.

ثم مدّ يده تجاه (خرافة) قائلًا:

- بالمناسبة، أنا أُدعى (داهي).

صافحه الفتى، وعرّفه بنفسه، قبل أن يدنو منهما (هادن) قائلًا:

- اسمحا لي أن أنضمّ إليكما، فمن الخزي ألّا أحمي قريتي، خاصةً وأن غير أهلها يرغبون في حمايتها.

وكذلك انضمّ جمعٌ من رجال قرية (دارناج)، وإن بدا على (داهي) عدم الارتياح لانضمامهم (لسببٍ غير معلومٍ).

أما عن لـ (جارف) وأخيه (عارف) وكذلك (نهار)، فهم أيضًا لم يشعروا بالرضى لما يجري.

لذلك قرّروا الذهاب إلى الملك؛ لإيضاح الأمر له، ليقول (جارف) موجّهًا حديثه إلى (خرافة):

- هلمّ نعرج إلى الملك؛ علّنا نلتمس لديه حلًّا، فإننا واثقون من كونه لا علم له بحقيقة ما جرى، وإن مَن أصدر الأمر هم حاشيته.

قال (داهي) بنبرةٍ صارمةٍ:

- إياكم والدخول على الملك! فإنه قاتلكم لا محالة!

احتجّ (نهار) قائلًا:

- إن الملك هو مثال العدل والحكمة، وما إن يحيط بعلم ما جرى بالقرية، حتى يعاقب عسكره.

فردّ (داهي) بنبرةٍ حازمةٍ:

- لا أودّ أن أكرّر ما قلت! إنه قاتل كلّ مَن بالقرية بلا أيّ استثناءٍ! ومَن لا يصدّقني، فليذهب بنفسه.

احتقنت وجوههم، واضطربوا، قبل أن يسمعوا مَن يقول:

- بل هو الحلّ الأمثل لوضعنا هذا! وحالما يعلم الملك المبجّل بأمر محاولة حرق دارٍ في قريتنا، حتى يفصل في الأمر، فإن حاشيته هي مَن أمرت بهذا الجرم.

التفت الجميع إلى مصدر الصوت، فإذ به (ركن القرية)، ليقول له (داهي) بنبرةٍ صارمةٍ:

- إن كان الأمر كذلك، فلِمَ لَمْ تحرّكْ ساكنًا، وتعترض جرمهم؟!

احتقن وجه (ركن القرية)، وهتف محتجًّا:

- كي لا يصير ما جرى الآن! ويتمّ عقاب القرية بأسرها.

- بل لأنك جبانٌ رعديدٌ! آثرت أن تحترق دارٌ بمَن فيها، بل إنك لم تقترح أن تنضمّ إلى القرويّين الذاهبين إلى الملك؛ كي لا تفقد مركزك، أو ربما حياتك!

اشتد احتقان وجه (ركن القرية)، واعتراه الحرج، خاصةً بعد أن تحوّلت الأعين نحوه، ثم قال متجهّمًا:

- إنني مسؤولٌ عن سلامة القرويّين، ولست مثلكما! أرتكب أفعالًا وأتجاهل عواقبها! ثم إن التعقّل هو السيد في هذه المواقف! وإن جاء جند الملك لقتلنا جميعًا، فإنني ملازمٌ في داري، ولن أبرحه، ولأموتن بين أهل قريتي!

ثم اتّجه صوب داره، وتبعه بعضٌ من القرويّين، وكذلك فعل الجميع، وذهب كلٌّ منهم في أمورهم، والعقول يملؤها الهمّ والاضطراب.

أمّا (خرافة)... فلبث يتدرّب داخل عالم العدم على مهارة الاختفاء، وقد عكف لساعاتٍ، حتى برز له (آرات)، ليقول متهكّمًا:

- أراك تستعدّ لمعركةٍ لا دخل لك فيها!

استحثّه (خرافة) بلهفةٍ أن يعلّمه مهارةً جديدةً؛ تُعينه على الحرب القادمة، ليرفض (آرات) طلبه، فيعود الفتى ويستحثّه مجدّدًا قائلًا:

- فقط علّمني أيّة مهارةٍ، ولا تأبه لأمري.

ساد الصمت للحظاتٍ... وبدا وكأن (آرات) يقلّب الوضع بعقله، قبل أن يحسم الأمر ويُجيبه:

- فليكنْ ما تريد، لكن إياك أن تفرط في استعمالها؛ لأن جسدك لن يحتمل المجهود المضاعف، فما أعلّمك إياه هو القدرة على الشفاء.

قال خرافة بنبرةٍ لا تخلو من خيبة الأمل:

- فقط! دون أيّة مهاراتٍ قاتلةٍ أو ما شابهها! لماذا؟!

- إنك امرؤٌ ضعيف الذاكرة! سبق منّي القول إن مهارات (دلنارن) ليست قاتلةً، فهي لا تطمح إلى تلاميذ قتلة!

- فليكنْ! متى أشرع بالهجوم؟

لم يُجبه، وإنما استلّ سيفه، وانقضّ بصورةٍ مفاجئةٍ ناحية (خرافة)، والذي لم يجد مجالًا لاعتراض هجومه، ليخترق السيف صدره، ويغمره ألمٌ شديدٌ؛ جراء الطعنة، قبل أن يُعيد النصل، ويسقط (خرافة) أرضًا وهو ينزف!

قال (آرات) بنبرةٍ باردةٍ:

- حتى وإن كنّا بين براثن العدم، فإن ما يجري داخله يؤثّر على الخارج، بمعنى أنك ميّتٌ لا محالة!

"ما الذي يعنيه؟ أينوي قتلي؟ ثم ألم يقل إن معلّمته لا تطمح إلى تلاميذ قتلة؟!" تساءل (خرافة) في نفسه بتلك الكلمات، وكاد الألم يقتله.

وما هي إلّا لحظات... حتى التقط (آرات) عصا الفتى، ومن ناحية الشمس المضيئة مرّرها بجوار الجرح، ليلتئم سريعًا، وكأنه لم يكن من قبل، فيذهب عنه الألم! ليعتدل الفتى واقفًا متحسّسًا موضع الطعنة، قبل أن يهتف متجهّمًا:

- أما كان لك أن تحذّرني قبل أن تطعنني؟! كدت تقتلني رعبًا.

- على الناشد أن يكون حذرًا طيلة الوقت، والآن... دورك.

أظهر له من العدم يرسوعًا جريحًا، كان على مشارف الموت، ليقول بغيظٍ:

- أما وجدت كائنًا غير تلك (اليراسيع)؟! فإنني أمقتها بشدّةٍ.

- ليس الأمر مصادفةً! فأنا حفّزت عقلك، ليختار لك أكثر كائنٍ لا يعنيك أمره، أتودّ أن أحفّزه كي يُظهر لك شخصًا عزيزًا عليك ويموت أمامك؟!

كان كلامه معقولًا... لكن على الأقلّ... لو اختار كائنًا غيره! بيد أنه ترك أفكاره، ودنا من (اليرسوع) المصاب والمتألّم بشدّةٍ وينازع الموت، لو كان بيده، لتركه يموت، فكم يمقت هذه الكائنات!

قرّب عصاه من جرح (اليرسوع)، وشرع الجرح في الالتئام بسرعةٍ، وما إن انتهى، حتى اعتراه ضعفٌ شديدٌ، وعجز عن الحفاظ على توازنه، وكان يترنّح، ورَنَّ صوت (آرات)، وكأنه داخل أعماق عقله:

- سبق أن أنبأتك كونك أضعف من أن تتعلّم هذه المهارة.

ولم يستطع المقاومة أكثر من ذلك... حتى غاب عن الوعي.

***

ومع بزوغ الفجر... تسلّل كلٌّ من (جارف) و(عارف) و(نهار) إلى خارج القرية متّجهين صوب القصر الملكي، حتى انتهت بهم المسير إلى القصر المنشود، واستوقفهم الحرس؛ متسائلين عن سبب مجيئهم، فيُجيب (نهار) أنهم يودّون المثول أمام الملك في أمرٍ مهمٍّ، ليُجيبهم الحارس أن الملك في مشغلةٍ، ولا وقت لديه لهم.

أصبحوا في حيرةٍ من أمرهم... هل عليهم أن يعودوا من حيث جاؤوا؟ أم أن يستحثّوا الحارس مرّةً أخرى للسماح لهم بالمثول أمام الملك؟

وهنا... بادرهم (جارف) موجّهًا حديثه للحارس:

- سننبّئ الملك عن الناجي الثالث، وعن قتله للعسكر.

التفت إليه رفيقاه مستنكرين! في حين رمقه حارس القصر لوهلةٍ يتفحّصه! قبل أن يأمرهم بالمكوث في مواضعهم، حتى يطّلع الملك على أمرهم، وغاب عنهم لفترةٍ، سأل فيها (عارف) أخاه (جارف):

- ما الذي دهاك؟! أتشي بالناجي الثالث؟!

- ليس الأمر كما تتصوّرانه، وإنما لم أجدْ حلًّا آخر سوى ذلك؛ كي يسمحوا لنا بالدخول.

وما هي إلّا لحظات... حتى عاد إليهم الحارس طالبًا منهم الدخول إلى قاعة الملك، وما إن مثلوا بين يدي الملك، حتى سجدوا له، ليأمرهم بالاعتدال وقوفًا، وبدا لهم أن مزاجه سيئٌ، وأن الغضب قد تمكّن منه، ليسألهم بنبرةٍ لا تخلو من الحنق:

- ماذا لديكم فيما يتعلّق بذلك الإنسيّ؟

شعروا بالندم من مجيئهم! ولبثوا صامتين حتى بدا وكأنهم تحولوا إلى أصنامٍ؛ جراء الهلع الذي اعتراهم، قبل أن يتجرّأ (جارف)، ويقول للملك:

- جئنا نشكو لك حاشيتك يا ملكنا المبجّل.

- حاشيتي! ألم يكن مجيئكم إليَّ لتنبّئوني بخبر ذلك المجرم؟!

- اضطررنا لاختلاق عذرٍ؛ كي يسمحوا لنا بمقابلتك.

- إذًا... فقد كذبتم عليَّ!

- إنما فعلنا ذلك حتى ننبّئك بجرم حاشيتك، فإنهم أمروا بحرق إحدى ديار قريتنا، وكان داخلها أهلها، وذلك بمبرّر أن صاحب الدار رفض...

قاطعه الملك بصوتٍ كالفحيح:

- أتزعم أن حاشيتي هي مَن أمرت بحرق دار ذلك العاصي؟

تحوّلت أنظارهم إلى الملك، فوجدوه قد استشاط غضباً، بدا وكأنه بركانٌ يوشك على الانفجار، قبل أن يُتابع:

- إنها لعمري أشدّ إهانةٍ أصابتني، ومِن مَن؟! من حثالة رعيّتي! أتتصوّر يا هذا أن حاشيتي بوسعها التنفّس دون إذنٍ منّي؟ أنا مَن انتقاهم، وأنا مَن يراقبهم، ومَن يتجرأ على مراجعتي، حبسته أو قتلته، لا توجد ذبابةٌ داخل ملكي لا علم

لي بأمرها، ثم تأتي أنت وتزعم ألّا علم لديَّ عن ذلك العاصي، وألّا رأي لي في أمر حرقه داخل داره!

جحظت أعين الثلاثة؛ من فرط الدهشة والجزع! وارتعدت فرائصهم، قبل أن يقول (جارف) مرتعدًا:

- إن جريمته لا تعدو عن رفضه التخلّي عن داره ودار...

قاطعه الملك مجدّدًا:

- أتراجعني في أمرٍ أمرت به؟! قد أفسدكم ذلك الإنسيّ، وجعل لكم ألسنةً تراجع وليّ نعمتكم!

ثم هتف بالحرس:

- اقتلوهم! بل... اضربوهم لأيامٍ، حتى الموت، ثم اصلبوهم أمام القصر؛ كي يكونوا عبرةً لمَن تسوّل له نفسه في مراجعة أوامري، وليبتلع الجميع ألسنتهم منذ اللحظة!

لم يبالِ لتوسّلاتهم حينما أحاط بهم الحرس يجرونهم بقسوةٍ إلى الخارج، في حين سأل الملك (رئيس المكلّفين) قائلًا بنبرةٍ مستنكرةٍ:

- مَن هو صاحب فكرة زرع هذا العبث برؤوس الرعيّة؟!

- إنه إجراءٌ تمّ العمل به منذ الملك المؤسّس (باران)؛ بداعي صبّ جام غضب الرعيّة على الحاشية، وذلك مع كل قرارٍ لا يوافق هواهم.

أشاح الملك بيده قائلًا:

- إن هذا يصوّرني بمظهر الملك الضعيف العاجز، لذلك عمّموا بين القوم أن كل قرارٍ يُصدر، فهو منّي أنا، سواء وافق هواهم أم لا.

انحنى له (رئيس المكلّفين) قائلًا بتبجيلٍ:

- سمعاً لأوامر مولاي الملك وطاعةً لها.

وما إن لاحت عليه أمارات الهدوء، حتى سأل:

- إلى ماذا انتهينا فيما يتعلّق بتلك القرية المشؤومة؟

أجابه (رئيس المكلّفين) بحزمٍ:

- انتهينا أيها الملك المبجّل، إلى أن نبعث ألفَ جنديٍّ؛ لدكّها.

- بل اجعلهم ألفيّ جنديٍّ، وامرْهم أن يقتلوا أهلها كلهم، ثم تدكّ الديار كلها، وتغدو أرضًا زراعيةً كبيرةً؛ لنزرع فيها فاكهة (النارجسيل).

- هل ننصّب المكلّف (نصال) قائدًا عليهم؟

- كلّا، إنها قريةٌ يقطنها بعض الرعاع فحسب! كما أن (نصال) مكلّفٌ بمهمّةٍ خارج المملكة، تتعلّق بتعرُّض إحدى قوافلنا للاعتداء، على يد (المنتفعة) المجرمين.

هنا... صدر صوتٌ مألوفٌ يقول:

- اسمح لي يا أبي أن أقود ذلك الجيش.

التفت جميع مَن بالقاعة لمصدر الصوت، فإذ به الأمير (سادان)، واقفٌ بشموخٍ، في حين بدا عدم الارتياح لدى بعض الحاشية، وإن سعوا إلى إخفاء هذا الشعور، قبل أن يقول الملك موجّهًا حديثه إلى حاشيته:

- أرى في بعضكم نظرة شكٍّ تجاه ابني الأمير! لكونه لم يتولَّ قيادة الجيوش من قبل، وإنني أنبّئكم أنه كُفْءٌ لهذه المهمّة، خاصةً وأنه قد تدرّب _منذ صباه_ على يد عددٍ من محترفي القتال، ومن بينهم (يحيان) قائد جيوشي الأسبق، لذلك فإنني قرّرت تنصيبه قائدًا على الجيش الذي سيدكُّ تلك القرية دكًّا، ولن يذر عليها أحدًا.

بدا الزهو يحتلّ قسمات وجه الأمير (سادان)، في حين قال (رئيس المكلّفين) متملّقًا:

- نِعْمَ الرأي يا ملكنا المبجّل.

وردّد بقيّة الحاشية قوله، ليقول لهم الملك:

- إذًا... جهّزوا جيشًا بعدد ألفي مقاتلٍ؛ كي نقضي على قرية العُصاة تلك، ولتكون عبرةً لكل مَن يتعرّض لعُمّال المملكة بسوءٍ، ولتعلموا جميعًا أن الفشل مصيره الموت.

انحنى الأمير قائلًا:

- اطمئن يا ملكنا المبجّل، فإنني عائدٌ إليك بأخبارٍ تثلج صدرك.

***

استيقظ (خرافة) من رقاده، وتذكّر أنه فقد وعيه بعد محاولته لعلاج (اليرسوع)، قد صدق (آرات) حينما قال إنه لا يزال مبكّرًا عليه تعلّم مهارةٍ جديدةٍ، وقرّر أن يُعيد الكرّة، حالما يتعافى تمامًا؛ فإن الحرب قائمةٌ لا محالة.

لكن عليه أن يعرج إلى (داهي)؛ ليرى إن راسل أصدقاءه أم لا، لذلك... غادر الدار متّجهًا صوب دار الضيافة؛ حيث اتّخذها (داهي) مقرًّا له، وأثناء طريقه إليها، إذ لاقت عيناه نظرات المقت والكره المصوّبة نحوه، من قبل بعض أهالي القرية؛ وهو أمرٌ بديهيٌّ، بعد أن جعل منهم هدفًا لانتقام المملكة.

وأثناء مواصلته الطريق... إذ لقي (هادن)، والذي بدا وكأنه يبحث عن شيءٍ ما، وقد احتلّ القلق قسمات وجهه، ليسأله عن خطبه، فيُجيب أنه يفتقد كلًّا من (جارف) و(عارف) و(نهار)، وإن الشكّ ينتابه؛ كونهم قد مثلوا أمام الملك،

ليستنكر (خرافة) الأمر، ويستحثّه على مواصلة البحث عنهم؛ فليس من المعقول أن يغادروا إلى العاصمة الملكية بعد تحذير (داهي) لهم.

وتفرّق كل واحدٍ منهما إلى وِجهته، وما إن ولج (خرافة) الدار، حتى وقعت عيناه على (داهي) وهو يتشاور مع رفاقه، ليسأله بفضولٍ:

- أأرسلت في طلب أصدقائك؟

أشاح بيده قائلًا:

– دَعْكَ من هذا! وادنُ منّي؛ فإنني أودّ أن أُطلعك على أمرٍ مهمٍّ.

أجاب الفتى طلبه، ودنا منه، ليقول له (داهي) بصوتٍ منخفضٍ:

- لقد وفدت بصحبة رفاقي إلى هذه المملكة؛ بحثًا عن جاسوسٍ من أهلها.

هتف الفتى والدهشة تعتريه:

- جاسوس من أهل المملكة؟

رمقه الرجل بنظرةٍ صارمةٍ، ليضطرب وجه الفتى حرجًا، ويقول بصوتٍ خافتٍ:

- أأنت واثقٌ ممّا تزعم؟

أومأ (داهي) رأسه إيجابًا، قبل أن يقول:

- وحسب مصادري... فهو من أهل هذه القرية.

سأله الفتى بنبرةٍ شابها الفضول:

- حسنًا، وما علاقتي بأمر هذا الجاسوس؟!

أجابه الرجل ببساطةٍ:

- دورك يتلخّص في أن تغدو عيني داخل القرية، ففي النهاية أنا ورفاقي نعدّ أجانب عنها، بينما يراك أهلها فردًا منهم، وإن كنت من الإنس.

فكّر الفتى في الأمر، قبل أن يسقط الرجل من عينيه! "أهو ساذجٌ إلى هذا الحدّ؟!"، قالها في نفسه متسائلًا! قبل أن يعبّر عمّا يجول بخاطره قائلًا:

- ألم يخطر ببالك... أن أكون الجاسوس الذي تبحث عنه؟!

ابتسم الرجل من سذاجة سؤاله، قبل أن يُجيبه قائلًا:

- بل إنك آخر شخصٍ يمكن الشكّ في أمره؛ نظرًا لكونك قد وفدت حديثًا على المملكة، بينما الجاسوس يعمل لصالحها ضدّ الرعيّة منذ ما يقارب عشرة أعوامٍ! كما أنني تشاورت مع رفاقي، وقد وقع الاختيار عليك، بل إن الأمير (ذهيل) هو أشدّنا حماسةً إلى الاستعانة بك في الكشف عن هويّة الجاسوس.

قالها ملوّحًا بيده مشيرًا نحو شيخٍ بسيطٍ، تقتحم قسمات وجهه بسمةٌ ودودةٌ، وقد أومأ للفتى رأسه مرحّبًا، ليردّ الأخير التحيّة بإيماءةٍ برأسه، وقد بدا الأمر الآن منطقيًّا، ليوجّه الفتى سؤاله ناحية (داهي) قائلًا:

- أتصوّر أنني أتفهّم سبب حديثكم معي عن أمر الجاسوس، لكن... ما الذي بوسعي فعله في معاونتكم لكشف اللثام عنه؟!

أجابه الرجل:

- ما أودّه منك هو أن تختلط أكثر بالقوم، وتراقبهم، وتحميهم أثناء الحرب ضدّ المملكة.

قال (خرافة) متذمّرًا:

- أيتلخّص دوري في حماية أهالي القرية ومراقبتهم فقط؟!

- إنها حربٌ! ولن تُفيدك تعاليم معلّمتك طالما أنك لست خبيرًا بالقتال.

عجز عن الاحتجاج؛ نظرًا لصدق ما قاله، ليسأله مجدّدًا:

- وأين ستتواجد أنت وأصدقاؤك؟

- سنختبئ داخل القرية.

- ومَن سيُجابههم إذًا؟

ابتسم (داهي)... في حين قهقه رفاقه... قبل أن يُجيبه:

- نحن بالتأكيد! إنك حينما تقاتل عدوًّا يفوقك عددًا، فإن من الحلول المفضّلة هي الحرب داخل القرى أو المدن؛ حيث المساحات الضيّقة، والقدرة على مباغتة الخصم، إضافةً إلى المعرفة المسبقة بمعالم القرية التي تسمح لنا بوضع الأفخاخ المناسبة في المواضع المناسبة، لذلك فإن فرصتنا لحماية القرية من الملك الجائر أكبر ممّا تتصوّر.

بدا لـ (خرافة) أن هذا الرجل يعلم جيّدًا ما يصنع، وإن كانت لا تزال تغمره الدهشة؛ من تبدّل ثقته به بمجرّد أن ائتمنه الشيخ، وتساءل في نفسه: "ألهذه الدرجة يثق برأيه؟! ولماذا يصرّ على إلصاق تهمة الجور بالملك (أسدان)؟"، لذلك سأله:

- ما لي أراك تنعت الملك (أسدان) بالظلم والجور؟ قد سبق والتقيتُ به، وبدا لي ملكًا صالحًا.

- وماذا صنع كي تعدّه حاكمًا صالحًا برأيك؟!

قالها (داهي) متسائلًا، لتعتري الحيرة الفتى، وقد جاب عقله ساعيًا على إلجام هذا الرجل المتحذلق، حتى اهتدى إلى الإجابة، ليقول بنبرةٍ واثقةٍ:

- إنه لقلّما ينام؛ جراء انهماكه بمصالح رعيّته.

قهقه رفاق (داهي)... لتتورّم أذنا الفتى خجلًا وغضبًا! فَهَمَّ أن يتفوّه بأمرٍ ما، قبل أن يسبقه الرجل طالبًا منه الجلوس، ليجلس الفتى على مضضٍ، وقد اعتراه الانزعاج، قبل أن يُتابع الرجل قائلًا:

- لنفترض أنك تملك أرضًا لزراعة (النارجسيل)، واستعملتني عليها؛ نظرًا لانشغالك عنها، وعند كل حصادٍ، كانت تثمر القليل من الفاكهة عمّا هو المفترض حصاده، وتتكرّر الحال مع كل عام حصادٍ، ما الذي يسعك فعله حيال ذلك؟

- أختار غيرك! طالما لا تحسن عملك.

- وماذا لو علمت أنني أبذل ما بوسعي في أمور الزراعة، ولا يسعني وقتٌ للنوم؟!

فطن الفتى لمغزى حديثه، ليقول بنبرةٍ شابها التحدّي:

- لكن الحال تختلف هنا! فإن المملكة تكابد الفقر؛ بسبب نوازل ألمّت بها، وهو ما دفع الملك إلى بذل فوق طاقته في سبيلها.

- سبق أن أنبأتني بمثولك أمام الملك، فهلا أطلعتني عن حاله؟! وبأيّة هيئةٍ ظهر بها؟!

- رأيته مرتديًا أفخم الثياب، مستقرًّا على عرشٍ عظيمٍ، داخل قصرٍ أعظم، يُحيط به خدمٌ ومكلّفون.

سأله (داهي) متهكّمًا:

- وهذه هي حال الرعيّة تمامًا... أليس كذلك؟!

أجاب متجهّمًا:

- ليس ذنبه كونه ثريٌّ!

- بل هو ذنبه وذنب آبائه، فما جدّه (باران) إلّا صعلوك! لم يتقلّد عرش المملكة سوى برضى من أسياده، وبعدها استولى على ثروات الرعيّة، ثم تفضّل عليهم

ببقايا ما استولى عليه، حتى يتقوّوا بها، كي ينهمكوا في الزراعة، لصالح زيادة ثروات الملك!

- ما أراك إلّا أجحفت الملك وسلفه، فأنّى لك من معرفة استيلائهم على مال الرعيّة؟! فهو أمرٌ لم تدرك زمنه.

- ما علمنا عنهم من تجارةٍ أو ما شابه، إذًا... من أين لهم هذه الثروات كلها؟ وها نحن أدركنا زمن زراعة (النارجسيل)، فأين هي إذًا أثمان تجارتها؟! لماذا لم تتبدّل وتتحسّن أحوال الرعيّة؟!

ردّ متجهّمًا:

- سبق أن أنبأني الملك أن دور إصلاح أحوال أهل قرية (دارناج) سيحين.

- صدّقني... لن يحين أبدًا! لأن كل ما ورد المملكة من ثرواتٍ، تمّ إنفاقها على تجديد قصور الملك، وقصور حاشيته، والباقي ابتلعتها خزائنهم، وبقايا هذا الباقي تمّ التفضل به على الرعيّة!

- لا يمكن الجزم بأمورٍ خفيّةٍ عنّا.

- صدقت، لذلك أرى أن نتريّث؛ فإن هذه الحرب ستزيح الستار عن حقيقة الملك التي أخفاها عن رعيّته لسنواتٍ.

- نِعْمَ الرأي! فهذا أفضل من إلقاء اتّهاماتٍ تفتقرُ إلى الدليل.

وبمجرّد أن قالها، حتى نهض (خرافة) متّجهًا صوب داره بعقلٍ مشتّتٍ ومتأمّلٍ فيما قاله (داهي)، في حين قال (ذهيل) بنبرةٍ مشفقةٍ:

- أراك أثقلت على الفتى.

- يكفينا تغاضٍ عن جهل القوم بحقيقةٍ ماثلةٍ أمامهم.

ثم تابع بنبرةٍ صارمةٍ:

- ولن أبرح هذه الأرض، حتى أجبر الملك على جعل أفقر القوم... أغنى منه.

***

مجرة الفاتح الإسلامي

الفصل الخامس عشر:

المنتصر دائمًا

ما إن جنّ الليل، حتى حضر رفاق (داهي)، ووفقًا لما تمّ حصره، فإن عددهم يقارب مائةً وتسعة وسبعين من المقاتلين، ليتسلّل الإحباط واليأس لدى أهالي القرية، فأنّى لهذا العدد الضئيل أن يهزم جيشًا تعداده ألف مقاتلٍ؟!

وأكثر مَن لفت نظر (خرافة) هو رجلٌ فارع الطول، طوله يدنو إلى الذراعين! مفتول العضلات، وجهه أدنى لوجه ليثٍ بفكّه العريض وبأنيابه البارزة، ويُحيط بعنقه لبدةٌ كثيفةٌ بنيّة اللون، ويعلو رأسه قرنان مكسوران، تعلَّق بظهرِهِ منجلٌ حاد النصل، وقال بصوتٍ جهوريٍّ موجّهًا حديثه ناحية (داهي):

- ما كنت أتصوّر أن يأتي اليوم الذي يطلب فيه أحد (الأورناس) منجلي!

ردّ (داهي) بنبرةٍ متهكّمةٍ:

- (ضِرْغَام)! لا تزال ثرثارًا كعهدي بك، ألا تزال تُجيد المقارعة بمنجلك؟

استلّ (ضرغام) منجله، وقال متجهّمًا:

- ومستعدٌّ لنزالك الآن إن أردت! أتتوقُ إلى جولةٍ ثانيةٍ بيننا؟!

- أفضّل أن نوفّر طاقتنا للمعركة القادمة!

اعترى (ضرغام) الارتياح بمجرّد أن اقتحمت أذنيه لفظة (المعركة)، ليسأله عن تعدادهم، فيُجيبه (داهي):

- أتصوّرهم ألف مقاتلٍ.

- كنت أطمح لعددٍ يفوقه؛ فالمزيد من المقاتلين يعني المزيد من الرؤوس التي سأحصدها!

قالها وانفجر ضاحكًا، قبل أن يغيب عن القوم الذين أحاطوه بنظرات الهلع والخوف غير المبرّرة، بل إن البعض قد فرّ إلى داخل دار الضيافة كمَن يفرّ من الموت!

وبرز من بينهم (ركن القرية)، والذي قال موجّهًا حديثه لـ (داهي) بنبرةٍ مستنكرةٍ:

- أجلبت معك أحد (الغِرْجَان)؟! ألدّ أعدائنا؟ هم أشدّ خطرًا علينا من ذلك الجيش المزعوم.

- لو كنت مكانك، لما وصفته بهذا الوصف! فإنهم (الغورجان)! كما أنه يعدّ من أهم عناصر انتصارنا في الحرب القادمة.

- ما إن يعلم الملك المبجّل بصنيع حاشيته، وبسعيهم إلى حرق دار أحد الرعيّة، حتى ينتهي هذا الهراء، وتدرك يقيناً مدى جموح خيالك بك.

لم يعقّب (داهي) على مقولته، ليُتابع (ركن القرية) متسائلًا:

- لكن... هل لي أن أعلم سبب منعك لأهل القرية من مغادرتها؟ أنحن سُجناء هنا؟! فإنني أرغب في إرسال أحد عُمّالي لأمرٍ يخصّني.

- لستم سجناء، إنما هو إجراءٌ لحمايتكم.

- مجدّدًا! الحجج الواهية! ستدرك يقينًا أن كل ما تزعمه، لا يعدو عن كونه هراءٌ، وحينها فلتغادروا قريتنا، وأوّلكم ذلك الغِرجانيّ، وبرفقته الناجي، فما عادت لنا حاجةٌ إليه أو إلى تهوّره.

- لك ذلك.

قالها متابعًا بعينيه (ركن القرية)، متوجهاً صوب دار الضيافة، في حين مال (خرافة) إليه، وسأله إن كان النصر حليفهم في المعركة المرتقبة، ليُجيبه (داهي):

- لا تشغل بالك بالأمر! فقط نفِّذْ ما هو مطلوبٌ منك، كذلك ضلِّلْ أهل القرية، وأنبئهم أن الجيش قد يصل في أيّة لحظةٍ، لذلك عليهم ملازمة دار الضيافة، واحرصْ على ألّا يغادر القرية أحدٌ.

غمرت الحيرة الفتى، فأنّى له بحصرهم وهو ضيفٌ فحسب؟! ولا علم له بجميع مَن بالقرية!

ليقترح عليه (داهي) أن يعتمد على أحد أفراد القرية، يثق به، ويحرص على ألّا يُطلعه على السبب، وإنما ينبّئه أنه لا يعدو عن كونه إجراء غرضه سلامة أهل القرية فحسب، ليومئ له الفتى برأسه موافقًا.

ويواصل طريقه بين رفاق (داهي)، حتى وقعت عيناه على شابّةٍ معصوبة العينين، تتلو تعويذةً ما، ولم يمضِ الكثير من الوقت، حتى برزت غيمةٌ فوق أحد المقاتلين، وأمطرته بالماء، لينفجر البعض ضحكًا، في حين قال الرجل المصاب بالبلل من مطر الغيمة:

- غير معقولٍ! ما زلت عاجزًا عن التصديق بوجود شخصٍ يسعه تلاوة تعويذةٍ دون الاستعانة بكتاب سحرٍ، إن الجنّ ذاتهم يعجزون عن فعل ذلك على هذه الأرض.

ردّت الشابّة بنبرةٍ باردةٍ:

- لا يعنيني ذلك، قد خسرت الرهان، وعليك تحمُّل ثمن الشراب.

مال (خرافة) إلى أحد المقاتلين، وسأله:

- مَن تكون هذه الشابّة؟

رمقه الرجل بنظرةٍ قاسيةٍ، ولسان حاله يقول: "مَن تخال نفسك لتخاطبني يا هذا؟!"، فتراجع (خرافة) إلى الخلف! حتى لامس منضدةً، ثم سمع شخصًا جالسًا أمامها يقول مقترحًا:

- أرأيت لو شاركتني الشراب أيها الناجي الثالث؟

تأمّل صاحب الصوت... فكان صوت شيخٍ تبدو عليه أمارات الوجاهة، ثم تذكّر أنه قد رآه من قبل بصحبة (داهي)، ليسأله وهو يجذب أحد المقاعد ويجلس عليه بجوار الشيخ:

- أنت مَن نصح (داهي) أن يمنحني ثقته، أليس كذلك؟

أجاب الشيخ:

- بلى، واسمي هو (ذُهيل).

ثم أشار ناحية الفتاة فاقدة البصر متابعًا:

- أمّا تلك الفتاة، فتُدعى (وتيرة)، قد أفنى الجنّ قبيلتها، ونجت بمعجزةٍ، وتربّت على يد أحد الجنّ، وحينما كبرت، وهبت حياتها للثأر ممَّن قتل قومها، وعكفت على تعلّم السحر، بل يشاع أنها ضحّت ببصرها؛ كي تغدو أشدّ

السحرة بأسًا، لذلك فهي وحدها القادرة على تلاوة التعاويذ دون الاستعانة بكتاب سحرٍ، إننا محظوظون بوجودها معنا، وقد وعدها (داهي) بمدّ يد العون لها فيما تطمح له.

تساءل (خرافة) في نفسه: "أيّ نوعٍ من الناس يعرفهم (داهي) على وجه التحديد؟!"، ثم عاد إلى دار الضيافة، حيث يتواجد أهل القرية جميعهم، وعلامات القلق والهلع كانت بادية عليهم.

وأثناء مروره بالقوم داخل دار الضيافة إذ سأله (ركن القرية)، يلوح على وجهه الغضب والتجهّم، إن كان قد أغار عليهم الجند، أم لا، فيُجيبه الفتى بـ ليس بعد، ونصحهم أن يلزموا دار الضيافة، وألّا يبرحوها مهما حدث، ليقول (ركن القرية) متبرّمًا:

- هذا كله بسبب تهوّرك، وبسبب ذلك الـ (داهي)! إننا لم نجني منكما سوى الخراب!

- ما جاء للقرية بالخراب سوى تغاضيكم عن الضيم! إلى أن استفحل، ولم يعد بإمكانكم مواجهته.

- أتردّد الهراء ذاته الذي يردّده ذلك الدعي؟!

وما إن أنهى عبارته، حتى أشاح بوجهه، وبدا أنه لا يطيقه أبدًا.

ثم وقعت عيناه على (هادن)، والذي لا يزال القلق يحتلّ قسمات وجهه؛ بسبب غياب أصدقائه الثلاثة، ليسأله (خرافة) إن كان بوسعه أن يساعده في حصر القوم وإخباره في حالة افتقدوا أحدهم أثناء المعركة، ليُجيبه (هادن):

- لا مانع لديّ، لكن هل لي أن أسأل عن السبب؟

- إن (داهي) يحرص على سلامة الجميع، لذلك يهمّه أن يلتزم القرويّون هذه الدار.

- إنه ليغمرني غِبْطَة تقديم العون، لكن أخبرني... أتتصوّر النصر حليفنا؟

- إن الروح المعنوية للمقاتلين تشي بالتفاؤل.

على الرغم من ذلك، لم يبد على (هادن) الاطمئنان؛ فالفارق العددي بين الطرفين كبير.

* * *

وفي اليوم التالي... وأثناء الطريق ما بين العاصمة وقرية (دارناج)، إذ قاد الأمير (سادان) جيشه والذي يقدر بألفيّ مقاتلٍ في طريقهم لهدم وحرق قرية (دارناج) بمَن فيها.

وبينما هو شارد الذهن، يتخيّل نفسه محاطًا بالمكلّفين، وهم يهتفون بنصره الساحق، وأن الملك قد عهد إليه منصب (المكلّف بحماية الديار) بدلًا من عديم النفع (نصال)... إذ استيقظ من شروده، حينما مال إليه مساعده قائلًا:

- مولاي الأمير المنتصر دائمًا... أرايت لو نُريح الجند قليلًا؛ حتى نكون على أهبة الاستعداد في إبادة قرية (دارناج)؟

أجاب الأمير منزعجًا:

- ما أشدّ ضعفكم! إننا على وشك هدم مجموعةٍ من الديار وقتل أصحابها، فالأمر لا يتحمّل أيّة راحةٍ، وإنما أرى أن نعجّل، لنصل في أقرب وقتٍ؛ فأودّ أن تغدو المهمّة الأولى لي كقائدٍ ذكرى لا يسع لأحد نسيانها.

ثم أمره _حالما يتمّ دكّ القرية وتسويتها بالأرض_ أن يذكّره بهدم تمثال الملعون دائمًا، الواقع ما بين القرية والغابة المشؤومة، ليومئ مساعده برأسه

إيجابًا، وحثّ الجند على الإسراع؛ حتى يصلوا إلى القرية في أقرب وقتٍ ممكنٍ، وأصدر قرارًا أن مَن يقتل أكبر عددٍ من العُصاة، سيحظى بمكافأةٌ منه شخصيًّا، ليهتف الجند بحياة الأمير المفدّى والمنتصر دائمًا.

* * *

تحت سماءٍ قد غطّتها ظلمةُ الليل... إذ انتهى (داهي) _بمعاونة رفاقه_ من نصب الأفخاخ، ورسم خطّة النصر على العدوّ، وتواروا في مواضع عدّةٍ لا يمكن للعيْن المجرّدة كشفها.

أمّا داخل دار الضيافة... فكان القلق والتوتر هما عنوان حال الناس بها.

وانكب (هادن) يراقب عبر فجوةٍ بدار الضيافة، في حين خلد (خرافة) للراحة، وهو يعيد التدرّب على المهارات التي علّمه إياها (آرات).

وما هي إلّا لحظات، حتى أفاق الفتى، وسأل (هادن) إن أغار عليهم الجيش، ليومئ الأخير رأسه نافيًا، قبل أن يعيد النظر عبر الفجوة، في حين امتدّت يد (إلنا) بفاكهة (النارجسيل) نحو (خرافة) قائلةً وبنبرةٍ متوتّرةٍ:

- لكم يقلقني الأمر! أنى لنا من مواجهة ألفيّ مقاتلٍ بعددٍ هزيلٍ من القوم؟!

تناول (خرافة) منها الفاكهة متأمّلًا عبارتها، ولم يعلّق، في حين قال لها (هادن) متهكّمًا:

- ما وجدتكِ بهذا القلق منذ ساعاتٍ! حينما طلبتِ مغادرة دار الضيافة، وكأننا لسنا على أعتاب الحرب!

قالت متجهّمةً:

- أهو خطأي؟! كوني أرغب في العثور على (جارف) و(عارف) و(نهار)، ماذا لو اصطدموا بالجيش أثناء طريقهم للعودة؟!

اعترى (هادن) الحرج، قبل يقول بنبرةٍ معتذرةٍ:

- إني واثقٌ أنهم...

قطع حديثه شهقةٌ صدرت منه، قبل أن ينبّئهما بقدوم جيش المملكة، لترتعد فرائصهم هلعًا، ويطلب (خرافة) منه أن يفسح له، وبمجرّد أن أفسح له (هادن)، حتى أبصر عبر الفجوة عددًا هائلًا من الشعلات، تحملها أيادي الجنود، سرى الرعب داخله، وتساءل في نفسه، كيف كان بالحماقة التي صوّرت له قدرته على المشاركة في هذه الحرب؟! فلطالما تجنّب المعارك التي تخوضها قبيلته، لذا فلا خبرة له في القتال والنزال.

فسح المجال إلى صديقه (هادن)، والذي عاد يُتابع الأحداث عبر الفجوة الصغيرة، في حين لبث (داهي) ورفاقه متوارين عن الأنظار في مواضع شتّى، في حين قال معاون الأمير بنبرةٍ منتصرةٍ:

- يبدو لي يا مولاي الأمير المنتصر دائمًا أن القرويّين قد هجروا أرضهم! بعد أن وصل إلى مسامعهم أنباء قدومنا!

بدا التبرّم يحتلّ قسمات الأمير (سادان)؛ فقد كان يأمل أن تنتهي أول مهمّةٍ تحت قيادته بصنيعٍ لن ينساه أحدٌ! لذلك أمره _بنبرةٍ شابها الضجر_ أن يهدموا الديار، وأن يقتفوا أثر القرويّين؛ لقتلهم.

ليُجيبه المعاون بإيماءةٍ من رأسه إجلالًا، قبل أن يلتفت ناحية الجند، ويأمرهم بتنفيذ الأمر، ليردّ الجند بصيحةٍ هزّت كيان القابعين داخل دار الضيافة، وانفضّوا وانتشروا، وغطّوا وحاصروا شتّى أرجاء القرية.

وما إن دنا فريقٌ منهم إلى دارٍ قابعةٍ في أقصى غرب القرية، حتى هوى جمعٌ منهم بين براثن حفرةٍ، قد تمّ نصبها كفخٍّ لهم، وقبل أن يستوعبوا ما جرى

لهم، إذ برز من أعلى الدار جمعٌ من الرُّماة بقيادة (ذهيل)، أمطروهم بسهام اخترقت أجسادهم، ولم تذر منهم أحدًا على قيد الحياة.

بدا القلق يسري لدى سائر الجند، حينما تردّد صدى صيحات استغاثةٍ، تبعتها صيحات ألمٍ، ثم انتهت بصمتٍ!

تحسّسوا طريقهم بحذرٍ، وبمجرّد أن دنوا من إحدى الديار، حتى سقط منهم العديد داخل حفر انتشرت في مواضع عديدةٍ من القرية.

تكرّر الفعل ذاته... حيث ظهر رماةٌ _أعلى الديار_ يمطرونهم بسهامٍ أسقطت العشرات منهم.

تغلغل القلق بالأمير (سادان)، ليوجّه حديثه نحو معاونه بنبرةٍ حاول أن تبدو متماسكةً، وسأله عن أحوال الجند، ليُجيبه المعاون _وقد غلبته حيرته_ بجهله عن حالهم، وإن بدا وكأن معركةً قد دارت بين الطرفين، ممّا حدا بالأمير من استنكار الأمر، فأنّى لحفنةٍ من المزارعين من مقارعة جيش نظامي؟!

لذلك أمره أن ينتقي جمعًا من الجند؛ لتقصّي الحال والإحاطة بخبر الجند، فنفّذ معاونه الأمر، واصطحب معه قرابة خمسمائة جنديٍّ.

ثم مشوا في حذرٍ متحسّسين خطاهم، حتى وقعت أعينهم على الأفخاخ التي وقع ضحيتها جندهم، وصُدموا من هول المشهد! فقد تمّ قتل كل مَن دنا من القرية.

ليتحفّز هو وجنده للقتال، وأمرهم المعاون أن يتقدّموه؛ حرصاً على ألّا يُصيبه أيّ فخٍّ، وواصلوا سيرهم بحذرٍ، حتى انتهى بهم المطاف إلى ساحةٍ فارغةٍ تقع بين عدّة ديارٍ، ووقع بصرهم على فتاةٍ غطّت عينيها عصابةٌ سوداء اللون،

وكادوا أن ينقضّوا عليها، لولا أن انتهت من تلاوة تعويذتها، لتغمرهم سحابة دخانٍ غطّت مجال الرؤية، وسمعوا (داهي) يهتف برفاقه:

- هاجموهم من حيث لا يرونكم!

ارتعد جند المملكة هلعًا، وشرعوا يضربون بسيوفهم يمنةً ويسرةً في تخبُّطٍ؛ سعيًا لمنع العدوّ من الدنوّ منهم، وبمجرّد أن انقشعت السحابة، حتى أدركوا أنهم وقعوا _بسذاجةٍ_ ضحيّة حيلةٍ واضحةٍ، ثم وقعت أعينهم على أكوامٍ من رفاقٍ لهم، قد قتلوهم دون قصدٍ! في حين ظلّ جيش القرية في موضعه.

وما إن رفع (داهي) ذراعه متقدّمًا رفاقه، حتى أدركوا أنها النهاية، لينقضّ جيش القرية عليهم من كل صوبٍ، تسبقهم سهامٌ أمطرها الرماة، ولم يمضِ الكثير من الوقت، حتى فني جند معاون الأمير.

ودون تردّدٍ... تحرّك (داهي) والمقاتلون جميعهم نحو جيش الأمير (سادان)، بعد أن سقط ثلاثة أرباع جنده، في حين تمكّن من النجاة كلٌّ من معاون الأمير وبعض جنده الذين تسلّلوا فارّين عن الموضع بمجرّد أن غمرتهم سحابة (وتيرة)، ولا هدف لهم جميعًا سوى العثور على القرويّين وقتلهم.

***

اتّسعت عينا الأمير جزعًا، وفشا الهلع بين الجند، خاصةً بعد أضحوا _وجهًا لوجهٍ_ أمام (داهي) ومقاتليه، ليهتف بهم الأمير (سادان) بصوتٍ حاول أن يبدو متماسكًا، إلّا أنه خرج كصوت فأرٍ مذعورٍ:

- مَن أنتم؟!

أجابه (ضرغام) بصوته الجهوريّ، وقد بدا مستمتعًا:

- إننا الموت!

صدرت من خلف الأمير أصوات خيول الجند، فبدا له وكأنهم تحفّزوا للقتال، ليهتف بهم:

- اقتلوهم! إن مَن يقتلهم منكم، له مكافأةٌ منّي.

لم يتحرّك أحدٌ من الجند، ليلتفت خلفه، فيجد أن قرابة نصفهم قد فرّ من المعركة، في حين أن مَن ظلّ، قد تجمّد من الرعب، ولم يجرؤ حتى على الفرار! ليصيح فيهم:

- مَن لن يقاتل هؤلاء العُصاة، فسيتمّ إعدامه؛ بتهمة الخيانة العظمى مع سائر الفارّين منكم!

أفاق الجند من خوفهم... وبدا الأمر كالفرار من الموت إلى الموت! لكن لم تكن بيدهم حيلةٌ، ليندفعوا بخيولهم ناحية (داهي) ومقاتليه بروحٍ منهزمةٍ، فيتمّ سحقهم بسهولةٍ.

والتفت الجميع إلى الأمير (سادان)، وقد غادر موقعه فارًّا، وبالكاد تمكّنوا من رؤيته على مدّ بصرهم، ليسأل أحد القرويّين:

- أنطارده؟

أجابه (داهي):

- كلّا، إنه ليس تهديدًا علينا! لكن... ألَمِح أحدكم معاونه؟

يبدو أن أحدًا منهم لم يعثر عليه أو حتى يواجهه! لذلك سرى القلق بـ (داهي)، ليأمر المقاتلين بالانتشار والبحث عنه.

***

الفصل السادس عشر:

الأسير العائد

أمّا داخل دار الضيافة وعتمتها... حيث القلق والذعر يحومان حول المتواجدين داخلها، والذين ينصتون بتوجّسٍ لكل ما يدور بالخارج، فقد امتزجت أصوات تلاحم السيوف مع أصوات الجرحى، انتهت بصمتٍ مريبٍ، فجابت عينا (إلنا) أرجاء الدار، حتى وقعتا على النافذة، لتهرع نحوها وتفتحها، وسط احتجاج البعض، وتهتف:

- (جارف)! إننا هنا بدار الضيافة! إن القرويّين جميعًا داخله، هلمّ انضمّ إلينـ...

وثب (خرافة) نحو النافذ، وأغلقها متجهماً، في حين عاتبها (هادن) بصوتٍ خفيضٍ؛ لأنها بفعلتها تلك قد ترشد جند المملكة إلى دار الضيافة، في حين أصرّت هي على أن عينيها قد وقعتا على (جارف)، ليقترح (هادن) أن يغادر الدار؛ بحثًا عن صديقه، لولا أن استوقفه (خرافة) مذكّرًا له بأوْلويّة عدم تعريض أهل القرية إلى الخطر، ليقول (هادن) محتجًّا:

- ما أقسى قلبك! ألا تهمّك سلامة صديقنا (جارف)؟!

- بالتأكيد تهمّني! لكن حياة القرويّين أهمّ من حياة فردٍ واحدٍ!

كاد أن يحتجّ (هادن)، قبل أن يحاول أحدهم فتح باب دار الضيافة من الخارج، إلّا أنه كان موصدًا، لتهتف (إلنا) بالقوم أن يفتح أحدهم باب الدار؛ كي يلج (جارف)، ليهمّ أحد القرويّين بالنهوض مسرعًا نحو الباب، فيفكّ وصاده ويفتحه، وذلك وسط احتجاج (خرافة)، لكنه كان متأخّرًا، فما إن فتح القرويّ الباب، حتى تلقّى طعنةً من معاون الأمير، وقد دخل الدار ومعه قرابة عشرة مقاتلين، ليقول المعاون بنبرةٍ منتصرةٍ:

- لعلّنا لم نوفّقْ في هدم الديار، لكننا لن نفشل في قتل القرويّين!

ثم بإشارةٍ منه... تحرّك الجند نحو القرويّين، في حين انقضّت عليهم (إلنا)؛ لتحول بينهم وبين أهل قريتها، فجرحها أحدهم بسيفه، لتسقط أرضًا، ويهتف (هادن) متجهّمًا:

- ويلك!

تجاهله معاون الأمير، واتّجه صوب (خرافة)، وقال بنبرةٍ منتصرةٍ:

- أتصوّر أن مكافأتي من الملك المبجّل لن تخطر على بالٍ! حينما أجيء له برأس الناجي الثالث، قائد ثورة العُصاة.

ودنا منه شاهرًا سيفه، وقد عمّ الصمت أرجاء دار الضيافة، ودون أن يلاحظ الأمير (هادن)، إذ أحاط بذراعه فجأةً، وقام بلويها وجذبه في الوقت ذاته، ليسقط السيف منه، ويقع الأمير أسيرًا لدى (هادن)! وسط دهشة الجميع، ثم شحب وجه المعاون، وانعقد لسانه، وتوتّر الجند، قبل أن يقول لهم (هادن):

- ألقوا بسيوفكم! وإلّا قتلت معاون أميركم هذا!

لم يجدوا إلّا أن ينصاعوا له؛ وقد فرغت جعبتهم من أيّة حيلةٍ! في حين انبعث أنينٌ صادرٌ عن (إلنا) المسجيّة أرضًا، وقد بدا وأنها لا تزال على قيد الحياة، ليهتف المعاون في جنده:

- افعلوها.

أفاق الجند بأمر قائدهم، ليجذبها أحدهم من شعرها، ويصوب نصل سيفه الحادّ عند عنقها؛ مهدّدًا بقتلها، ليقول المعاون بنبرةٍ منتصرةٍ:

- والآن يا هذا! ألقِ بسلاحك! وإلّا قتلنا المرأة.

بدا التردّد على (هادن)! ولم يدرِ ما عليه فعله، إنه إن قتله، هلكت (إلنا)، وإن ألقى بسلاحه، هلك القرويّون، أيضحّي بها من أجل حياة أهالي القرية؟!

لم يتوقّف جسد (إلنا) عن الارتجاف؛ من الذعر والهلع، وكانت عيناها تقولان: "لا تسمح لهم بقتلي".

وبينما هو غارقٌ في ثنايا عقله... إذ نزع المعاون خنجرًا من جيبٍ سريٍّ، وطعن به (هادن)، ليسقط أرضًا!

وسرعان ما استعاد المعاون سيفه، وانقضّ على (خرافة)؛ كي لا يسمح له باستعمال مهارات (دلنارن)، ليلتحما في نزالٍ، وكذلك فعل القرويّون، حيث انقضّوا على الجند.

قاتل المعاون بشراسةٍ، ولم يمنح الفتى أيّ مجالٍ لاستعمال مهارات معلّمته، والذي اضطرّ إلى حماية نفسه وصدّ ضربات المعاون كلها بعصاه، ولم تعتريه الدهشة من كون السيف لم يحطّمها أو يخلف بها خدشًا؛ فمن البديهيّ أن الشمس أعلاها قد منحتها هذه الصلابة.

وبصورةٍ لا إراديّةٍ... أخذ (خرافة) يتراجع إلى الوراء، ولم يلاحظ جثّة أحد الجند خلفه، حتى تعثّرت قدمه بها، وفقد توازنه، ليقع أرضًا على بُعد بضعة أذرع إلى الخلف، وسقطت منه عصاه، ليغدو هدفًا سهلًا لمعاون الأمير، والذي انقضّ عليه بسيفه ينوي طعنه، ليلتقط (خرافة) عصاه، فيتراجع المعاون إلى الخلف، فغطّى عينيه بيده؛ كي يحجب أيّ ضوء يُصيبه بالعمى، ليجدها (خرافة) فرصةً سانحةً في التواري عن الأنظار، مستعينًا بقدرات عصاه، ليغرق في عتمةٍ يتخلّلها ضوءٌ ينبعث من الشمس أعلى عصاه، ثم تردّد صدى صوت المعاون، والذي فطن إلى اختفاء الفتى:

- لم تنبّئنا بأمر قدرتك على التواري عن الأنظار!

وبمجرّد أن قالها... حتى شرع يتلفّت حوله؛ بحثًا عن الفتى، والذي تحسّس خطاه ناحية المعاون؛ راجيًا أن يلحق به، قبل أن ينقطع نفسه، ممّا اضطرّه إلى مسارعة خطاه دون وعيٍ منه، لينتهي الأمر بتسارع نبضات قلبه، فيفشل عن مواصلة التواري، ويبرز أمام المعاون، والذي لمعت بثغره ابتسامةٌ منتصرةٌ!

وهَمَّ المعاون في الهجوم على (خرافة)، لولا أن صدر منه صياحٌ؛ من هول المفاجأة وشدّة الألم! ليتّجه نظره ناحية ساقه... فيجد (هادن) المصاب، والذي زحف، حتى انتهى إلى ساق المعاون، وطعنها بخنجرٍ، ليستشيط غضبًا، وكاد يطعنه بسيفه، قبل أن يتلقّى ضربةً على رأسه من عصا (خرافة)، فيسقط أرضًا، وقد غاب عن الوعي، فدنا الفتى من (هادن)، وشرع يمرّر عصاه بجوار جرحه، والذي قال بوهنٍ:

- أبلغ القوم بسقوط المجرم!

وبلا تردّد... نادى الفتى في القوم، وهتف بسقوط معاون الأمير، ليتحمّس ويستبشر القرويّون، في الوقت الذي انهارت فيه معنويّات الجند، واقتحم (داهي) ورفاقه دار الضيافة، وجالت عيناه أرجاء الحجرة، ليجد بعض المصابين بإصاباتٍ خطيرةٍ، فيقول بحسرةٍ وهو يعضّ شفتيه:

- قد تأخّرنا!

قبل أن يلمح (خرافة)، وهو يمرّر عصاه على جرح أحد القرويّين، ليلتئم وسط دهشة الحاضرين! فيقول متعجّبًا:

- إذًا... فهذه هي علوم (دلنارن)! إنك حقًّا تلميذها!

- على الأقلّ... عاونوني في منع نزيف سائر الجرحى، حتى أصل لهم، فإنني لا أحيي الموتى!

قالها الفتى بوهنٍ، وقد بدا أنه يبذل مجهودًا فوق احتماله، في حين انهمك البعض في معالجة الجرحى، وما إن انتهى من علاج الكل، حتى اتّجه نحو (إلنا) يجرّ قدميه إليها؛ ينوي علاجها، وبدا كأنه على مشارف الموت! وذلك من شدّة الإعياء، لولا أن استوقفه (هادن)، يبلغه أن جرحها طفيفٌ، ولا خطر عليها، لتعتري (خرافة) الطمأنينة، قبل أن يسقط مغشيًّا عليه.

***

وداخل قاعة الحكم بالقصر الملكي... وبينما يعتلي الملك عرشه مترقّبًا أنباء دكّ قرية (دارناج)، إذ دخل عليه الأمير (سادان) مجهدًا منكوس الرأس، يجرّ قدميه، مثقل الكتفين، وما إن وقعت عينا الملك عليه بهذه الحال، حتى شابه القلق، وبمجرّد أن مَثُلَ ابنه بين يديه، حتى قال بصوتٍ واهنٍ ضعيفٍ:

- لم ننتصر يا مولاي الملك (أسدان)!

بدت الحيرة تحتلّ قسمات وجه الملك، ليسأله:

- ما المقصود بعبارة (لم ننتصر)؟! هل امتنع الجند عن طاعة أوامرك؟ هل انشقّت الأرض وابتلعت الجيش؟! أم ماذا؟!

قال الأمير بصوتٍ مختنقٍ باكٍ:

- بل انهزم الجيش يا مولاي الملك! هزمتنا قرية (دارناج)!

صمت الملك لبرهةٍ من الوقت... لكنها بدت كالدهر! وعمّ القلق أرجاء قاعة الحكم، خاصةً مع الاحتقان الذي غمر وجه الملك، والذي قال بعد برهةٍ من الزمن، موجّهًا حديثه إلى مَن بالقاعة جميعهم... أن يغادروها! لينهض الجميع قبل أن يسجدوا بين يدي الملك، وغادروا على وجه السرعة، في حين ألقى بعضهم نظراتٍ مشفقةً على الأمير الذي ارتعد من شدّة الهلع.

وما إن خلت القاعة من الجميع عدا الملك وابنه الأمير، حتى أمره الأول بحزمٍ أن يسجد.

وبعد تردّدٍ... سجد الأمير بجسدٍ ينتفض رعبًا، قبل أن ينهض الملك من كرسيّه، ويتّجه نحوه بخطواتٍ هادئةٍ ثابتةٍ، وما إن دنا منه، وأصبح رأس الأمير عند قدميه، حتى داسها وضغط بشدّةٍ عليها، فشعر الأمير وأنها ستُسحق! قبل أن يقول له بنبرةٍ قاسيةٍ:

- أنا لا أعرف الهزيمة! سبق أن أنبأتك بذلك، ولا أقبل إلّا خيار النصر! وكل مَن يخذلني، فمصيره الموت!

ارتجف الأمير رعبًا، وقال بهلعٍ:

- قد باغتونا و...

- باغتوكم؟!

هتف بها الملك مستنكرًا، وهو يزيد من شدّة وطئه على رأس الأمير:

- أحفنةٌ من المزارعين الغوغاء تسنى لهم مباغتة جيش نظامي بعدد ألفيّ مقاتلٍ؟!

- كانوا يفوقوننا عددًا.

- وكم كان هذا العدد؟!

- ثلا... بل خمسة آلافٍ يا مولاي الملك.

زاد من شدّة دهسه لرأس الأمير، وهو يقول بصوتٍ كالفحيح:

- كاذبٌ! وتتصوّر أن يلج عددٌ كهذا مملكتي دون علمي؟! إن مَن وفد المملكة من الأجانب _بعد أمري بهدم القرية_ هم العشرات فقط.

انعقد لسان الأمير، ليقول الملك بحزمٍ:

- إنني لا أرى نتيجةً للخذلان سوى الموت! لكن لحسن حظك أنك محسوبٌ عليَّ بأنك ابني! لذلك سأعزلك عن ولاية العهد، وأسلّمها لابني الأصغر، أمّا قيادة الجيش، فلن تنعم بها أبدًا ما حييت! وستظل بيد المكلّف (نصال).

قال متألّمًا، وبصوتٍ مختنقٍ:

- إن هذا كابوسٌ مؤكّدٌ!

- كلّا، الكابوس الحقيقي هو حينما يعلم الكل بالفضيحة التي سبّبتَها لي، إنه عارٌ لا يقبل الغسل، والآن... غادر القاعة، وإياك أن تريني وجهك؛ فقد غدا رمزًا للعار!

وما إن رفع قدمه عن رأسه، حتى اعتدل الأمير واقفًا، وفرّ من القاعة على وجه السرعة، وكان محطّمًا منكسرًا.

مجرة التاجي الثالث

ليظلّ الملك غارقًا بمفرده في بحار أفكاره... إن هزيمةً كهذه، لن يأتي من ورائها خيرٌ أبدًا، لا بدّ من انتصارٍ يمسح هذا العار، أو جزءًا منه على الأقل! ويحطّم معنويات القرويّين، فلن يكسر شوكتهم سوى المكلّف (نصال)، والذي لم يُهزم في معركةٍ قطّ.

* * *

أفاق (خرافة) من غفوته داخل داره، ليجد (إلنا) تجلس على مقعدٍ بجواره، وقد سقط رأسها على كتفها من فرط النوم، ليناديها، فتستيقظ فزعةً، وما إن وقعت عيناها عليه، حتى قالت بصوتٍ باكٍ:

- يا للشمس الأبدية! إنك حيٌّ!

وتابعت قائلةً، وهي تهمّ بالوقوف:

- قد أبلغني (داهي) أن أنبّئه بأمرك حالما تفيق.

واتّجهت خارج الدار مسرعةً، وما هي إلّا دقائق، حتى ولج (داهي) الدار، والذي ألقى عليه التحية، قبل أن يتّخذ مقعدًا بجوار فراشه، ويسأله عن أحواله، فيومئ له رأسه بأنه تحسّن، ثم يسأله:

- ما الذي جرى داخل دار الضيافة؟! كيف انتهت الحال إلى دخول معاون الأمير؟!

حكى له (خرافة) ما جرى، وأنه مجرّد سوء تفاهمٍ قد أفضى إلى موقفٍ عسير، نجوا منه بعد جهدٍ جهيدٍ.

فكّر (داهي) في الأمر، ثم قال متسائلًا:

- وكيف تسنى لـ (إلنا) من إبصار (جارف) وسط العتمة؟!

- لعلّها خلطت بينه وبين المعاون.

قالها الفتى مجيبًا لسؤاله، ليعود (داهي) إلى التفكير، قبل أن يقول:

- علينا أخذ الحيطة والحذر! فإن هزيمةً كهذه لن تمرّ مرورًا عابرًا بالنسبة للملك، والذي من المؤكّد سيعدّ العدّة لمعركةٍ أشد وطأة من سابقتها.

سأله (خرافة) متعجّبًا:

- لم تنتهِ الحرب بعد؟

ابتسم لسذاجة سؤاله، قبل أن يُجيبه:

- بل قد بدأت! ولن تنتهي إلّا بسقوط أحد الطرفين، أو استسلامه.

بدا الضيق يتسلّل ثنايا الفتى، والذي شعر أن هذا الأمر لا نهاية له، ثم تساءل قائلًا:

- لم تخبرني عن سبب رغبتك في حماية القوم من بطش الملك.

- لأنها مسؤوليتي.

احتجّ (خرافة) قائلًا:

- لكنك لا تبدو لي من أهل هذه المملكة، فلِمَ تبذل حياتك في سبيلهم؟!

- بلاد (الأورناس) كلها بلادي، ومصيرهم هو مصيري.

- من العسير عليَّ إدراك ما تتفوه به! فأنا على استعدادٍ للتضحية بحياتي في سبيل قبيلتي (بني عذرة)، ولا مجال أن أضحّي بحياتي لغيرها! ولولا تسبّبي في إعلان الملك الحرب على القرية، لتجاهلت هذه الحرب بالكلية!

- دعْني أوجّه لك سؤالًا... لو أنك وُجِدْتَ في قبيلةٍ غير قبيلتك، أسيظلّ انتماؤك لقبيلة (بني عذرة)؟ أم كنت ستنتمي إلى القبيلة التي وُجِدْتَ فيها؟

- كنت سأنتمي لـ (بني عذرة) بالتأكيد.

- أشكّ في ذلك؛ لأنك لا تزال ترى أهلك وأصدقاءك فيها، لكن... ماذا لو وُجِدوا معك ضمن قبيلة أخرى! أسيظلّ انتماؤك لـ (بني عذرة)؟!

فكّر في الأمر مليًّا... حقًّا! فحينما ينظر إلى الأمر من هذه الناحية، فإن الوضع سيختلف، لذلك أجاب:

- حسنًا... فلنفترض صحّة قولك، لكن ألا يتوجّب علينا أن تتعلّق قلوبنا بأرضنا؟!

- الأمر لا يتعلّق بحبّ الأهل والأرض، فهي فطرةٌ بين ثنايا كلٍّ منّا، غير أن ذلك لا يعني التحيّز لهم في الباطل، فاجعل من انتمائك للحقّ وطنًا.

وتابع قائلًا:

- إن الانتماء والتحيّز للموضع الذي وُجِدْتَ فيه، لا يجعلك متحلّيًا بصفة (صاحب المبدأ) أبدًا! فلا تكن كقطعة بيدقٍ على رقعة القدر، يحرّكك كيفما يشاء! بل اصنع قدرك بنفسك وفقًا لفطرتك ومبادئك.

تأمّل (خرافة) العبارة الأخيرة... وبدا عاجزًا عن استيعابها، ثم فطن إلى أمرٍ ما، ليقول بنبرةٍ منتصرةٍ:

- لكنك تتحيّز لـ (أورناس)، ألا تجد معي أن ذلك مخالفٌ لما تفوّهت به كله؟!

- هذا لأنك لا تفرّق بين التحيّز والمسؤولية! فإن مسؤولية كل أورناسيٍّ أن يحمي بني جنسه، ويسعى إلى توحيدهم، ويصحّح مفاهيمهم الخاطئة، فليس من مسؤوليتي توحيد قبائلكم تحت رايةٍ واحدةٍ، وإن فعلتُ، فلن يعيرني أحدكم اهتمامًا؛ نظرًا لكوني غير إنسيّ.

- وما الفائدة التي تعود علينا نحن العرب من توحيدنا؟ بل يتوجّب على سائر البلاد الاقتداء بنا، وألّا يخضعوا لأمر كسرى أو قيصر.

- أحقًّا تتصوّر ذلك؟! إنكم يا معشر العرب محاطون بممالك عظيمةٍ، كالعراق والشام ومصر واليمن، وكل واحدةٍ منها يخضع رعيتها تحت رايةً واحدةً، فتقلّ النزاعات بين الأفراد، ويعمّ الأمن، بعكس حال العرب، والأفضل من ذلك أن يسود العدل سائر الممالك، وهو أمرٌ تفتقده ممالك الإنس تمامًا كممالكنا!

- إن لديك علمًا بأحوالنا.

- هذا بديهيٌّ؛ فقد عاش بينكم بعض (الأورناس) متظاهرين أنهم منكم، وعادوا إلينا، وأنبأونا بأحوالكم.

- إنك لم تخبرني بعد... من أيّ الممالك أنت؟

أجاب (داهي) والانزعاج يظهر على وجهه:

- أرى أننا ثرثرنا بما يكفي! ويجدر بنا التحفّز لما هو قادمٌ!

وبمجرّد أن أنهى عبارته، حتى غادر الدار تاركًا الفتى غارقًا في أفكاره، إن هذا الرجل يخفي سرًّا غامضًا لا ينوي كشفه!

***

نهض من فراشه متّجهًا إلى خارج الدار، ولاحظ تجمّعًا لبعض القوم، ليتّجه نحوهم؛ محاولًا معرفة سبب تكدّسهم بهذه الناحية، فتقع عيناه على (جارف) مغشيٌّ عليه، ليأمرهم بحمله ونقله إلى داره.

ولحسن الحظ... لم تكن إصاباته خطيرةً، رغم تعرّضه للضرب المبرح، وهذا واضحٌ من أثر الكدمات المنتشرة بعدّة مواضع بجسده، لكن أين كلٌّ من (نهار) و(عارف)؟!

إن عليه أن يلبث مترقّبًا، حتى يفيق؛ كي ينبّئهم بمصير رفيقيه.

وما هي إلّا سويعات من الترقّب... حتى فاق، ليهرع مع جمعٍ من القرويّين الذين غلبهم الفضول لمعرفة مصير (عارف) و(نهار)، بيد أن زوجته حالت من ولوج الجميع، عدا (هادن) و(خرافة) و(داهي)، يستحثّه الأخير أن يحكي لهم ما جرى.

ليقصّ عليهم (جارف) نبأ ما جرى لهم... بدءًا من غضب الملك منهم، وأمره بقتلهم ضربًا، وأنه _وبعد عدّة نوباتٍ من الضرب وغياب الوعي_ أفاق في مرّةٍ ما، ووقعت عيناه على باب الزنزانة الموارب، لينتهز الفرصة ويفرّ من القصر الملكي الخالي من الحرس، حتى انتهى به المطاف إلى قرية (دارناج)، ليسأله (هادن) بنبرةٍ شابها الفضول:

- ولِمَ لم تتفقّد حال أخيك و(نهار)؟

أجاب محرجًا:

- لم أكن أفكّر سوى بالنجاة! لذلك لم يخطرا ببالي أبدًا!

"باختصارٍ... قد فضّل حياته على حياة رفيقيه!"، قالها (خرافة) في نفسه، في حين سأله (داهي):

- وما الذي دعاهم إلى ترك باب الزنزانة مواربًا، وإبعاد الحرس عن طريقك؟!

- لا علم عندي، لعلّهم تصوّروا أنني متّ.

- لا أخال حرس المملكة بهذه السذاجة، لا بدّ من وجود سببٍ معقولٍ لصنيع كهذا.

بدت الحيرة تحتلّ قسمات (جارف)، قبل أن تهتف زوجته وهي تحتضنه:

- دعوه وشأنه! ألا ترون ما حلّ به؟! عليكم المغادرة فورًا! فهو في أمسّ الحاجة إلى الراحة.

وبالفعل... غادروا الدار ناكسي الرؤوس خجلاً، بعد أن تمّ طردهم من الدار، وبدا (داهي) غارقًا في التفكير، ليسأله (خرافة) عن سبب شرود ذهنه، فيُجيبه (داهي) قائلًا:

- إن بعض ما تفوّه به يخالف العقل! لكن... لا تشغلْ بالك! فأمامنا ما هو أوْلى بالتدبير له.

قالها، واتّجه ناحية دار الضيافة، في حين سأل (هادن):

- ما أنت فاعلٌ حيال الأمر؟

- سأترقّب وصول (نهار) و(عارف) حتى صباح الغد، وإن لم يعودا، فإني مغادر القرية للبحث عنهما؛ لعلّ هنالك ما منعهما من العودة، أتصوّر أن جميعهم قد تمّ ترك باب الزنزانة مواربًا لهم بعد عقابهم.

- لكن الملك لا يرجع عن قرارٍ أصدره!

- إذًا... فلماذا نجا (جارف)؟!

- لا علم عندي، غير أنني سأصحبك إن لم يعودا اليوم.

***

جزيرة الناجي الثالث

الفصل السابع عشر:

الفوضويّون

- لا أزال أترقّب عودة المكلّف (نصال)... هل من أحدٍ يأتيني بخبره؟

قالها الملك (أسدان) جالساً على عرشه داخل قاعة الحكم، ليُجيبه (رئيس المكلّفين):

- قد أرسلت له أحدَ عُمّالي؛ ليطلب عودته فورًا.

في حين قال معاون (نصال):

- أيأذن لي مولاي الملك المبجّل في الحديث؟

أولاه الملك اهتمامًا، ليقول متابعًا:

- ماذا لو سمح لي الملك المبجّل أن أقود جيشاً لغزو العُصاة؟

- كلّا! لم يعد هنالك مجال لهزيمةٍ أخرى! فيستعصي الأمر علينا في الخلاص من هؤلاء المجرمين! لذلك... لا ثقة لي إلّا بقيادة (نصال) للجيش، وأن يُنهي هذا العبث من عمق جذوره.

ثم تابع قائلًا:

- كما أن اسم (العُصاة) لا يناسبهم! إنه يشي _لسائر القرى_ أن هنالك مَن يتجرّأ علينا ويخالف أوامرنا، لذلك... أرى أن تقترحوا عليَّ اسماً يحقّر من شأنهم، ويترك انطباعًا لدى السامع له أنهم مجرّد نكرةٍ أوباش.

اقترح أحدهم لفظة (المخرّبين)، ليومئ الملك برأسه نفيًا، فيقترح آخر لفظة (الإرهابيّين)، ليمتعض وجه الملك؛ من فرط سخافة الاسم!

ثم اقترح ثالثٌ لفظة (الفوضويّين)، فردّ الملك مشيراً بإصبعه ناحية صاحب الاقتراح:

- أجل! هو ذا! لا أجد نعتًا يليق بهم غيره، إذًا... عمّموه بين القرى؛ حتى يعلم القوم أننا نواجه عصابةً همجيّةً، لا غاية لها سوى نشر الفساد في الأرض، وزعزعة استقرار مملكتنا العظيمة.

في تلك الأثناء... ظل الأمير (سادان) قابعًا بجوار قاعة الحكم؛ يبحث عن وسيلةٍ يعتذر بها إلى الملك؛ من جراء تلك الهزيمة النكراء، قبل أن تقع عيناه على أحد الجنود، حيث بدا في عجلةٍ من أمره وهو يطلب من الحرس السماح له بدخول قاعة الحكم؛ فقد كان يحمل خبرًا شديد الأهمية، ليسأله:

- هيه! أنت! ما النبأ المهم الذي تنوي إبلاغه للملك؟!

أجابه الجندي:

- لا يمكنني البوح به إلّا في حضرة الملك المبجّل!

احتقن وجه الأمير، ليستلّ سيفه ويوجّهه صوب رقبة الجنديّ قائلًا بنبرةٍ متجهّمةٍ:

- ويحك! ألا تدري مَن أنا؟! إنني الأمير (سادان) وليّ عهد مملكة (بارانية).

مجرة الناجي الثالث

أكّد له الجنديّ بعلمه بهويّته، غير أنه مكلّفٌ بإبلاغ النبأ إلى الملك شخصيًّا، ليُعيد الأمير سيفه إلى لجامه، قبل أن يُعْلِمهُ أن الملك يجتمع بحاشيته اجتماعًا سيطول بهم، وعرض عليه أن يتكفّل بإبلاغ الملك بالنبأ، حالما يفرغ من اجتماعه، بل وعرض عليه أن يمنحه أضعاف ما سيمنحه الملك من عطايا؛ نظير خدمته للمملكة.

ليتردّد الجنديّ لوهلةٍ؛ فقد كان هناك صراعٌ يدور بين ثنايا لبّه، بين واجبه نحو المملكة، وحاجته إلى المال في خضم صراعه مع الفقر، فبالكاد يكفيه الأجر الذي يتحصّل عليه، لذلك... فمن البديهيّ أن يقبل عرض الأمير.

فقرّر إخباره وقبول العرض، وتبعه إلى إسطبل الخيل؛ حيث لا آذان تسمع النبأ، وما إن اختلى بالأمير، حتى همس له بما أنبأته به عينهم بقرية (دارناج) حول كون الناجي الثالث قد قرّر التوجّه بصحبة بضعة رفاقٍ إلى حدود العاصمة الملكية؛ للبحث عن بعض السجناء، فهُمْ يتصوّرون أنهم فرّوا من الزنزانة، لتتهلّل أسارير الأمير بالنبأ، ويأمر الجنديّ بالعودة إلى عمله، وأن يدع له أمر إبلاغ الملك.

وهَمَّ أن يغادر الإسطبل، لولا أن استوقفه الجنديّ مستنكرًا:

- مهلًا مولاي الأمير المنتصر دائمًا! ماذا عن وعدك لي بالمكافأة؟

اتّجه الأمير ناحية الجنديّ سريعًا، وهو يقول متعجّبًا، وقد أولج يده داخل كمّه:

- حقًّا! كيف فاتني ذلك؟!

وما إن دنا منه، حتى استلّ خنجرًا من كمّه، وغرسه بصدره قائلًا بنبرةٍ متهكّمةٍ:

- كيف لي أن أنسي القضاء على الشخص المحيط علماً بموضع ذلك الإنسيّ؟!

جحظت عينا الجنديّ وهو عاجزٌ عن تصديق غدر الأمير! وقد احتلتّ عقله صورة أهله الذين فقدوا عائلهم!

في حين اتّجه الأمير _على الفور_ لدار حماية المملكة، حيث مكتب (معاون المكلّف)، وأمره أن يمدّه بالجند، ليقول المعاون محتجًّا:

- إنك تعلم رغبتي بتزويدك بمَن تشاء من الجند، لكن لا بدّ من موافقةٍ مذيلةٍ بختم الملك المبجّل.

- فقط زدني بأيّ عددٍ من الجند.

- هذا محالٌ! لو علم أيٌّ من المكلّف (نصال) أو مولاي الملك المبجّل بالأمر، لفقدت حياتي!

- إنني أُشرف على مهمّةٍ سريّةٍ لصالح المملكة، وإن ظفرت، فسأحظى بمكانةٍ كبيرةٍ عند أبي الملك، وحينها سأقنعه بعزل عديم النفع (نصال)، وتعيينك محلّه، إضافةً إلى منحك مكافأة عظيمة؛ نظير تعاونك لصالح المملكة.

قالها، وأبرز صرّتين ممتلئتين بالقطع الذهبيّة، قبل أن يُتابع:

- إلّا... إن لم يكن لديك مانعٌ من أن أُعْلِمْ الملك باختلاساتك من مخصّصات دار حماية المملكة.

تردّد (معاون المكلّف)، وتصبّب العرق من جبينه، وجاهد نفسه على ألّا يُظهر غضبه وحنقه؛ فإن الأمير هو مَن أمره باختلاس المال! كي يتمّ إلقاء الاتهام على (نصال) والذي ثبتت براءته منها! قبل أن يقول له مستسلمًا:

- سأمدّك بمائةٍ فقط، هذا أقصى ما أستطيع، لكن احفظ عنّي هذا السرّ، وإلا تمّت الإطاحة برأسي!

لمعت بثغر الأمير (سادان) ابتسامةٌ منتصرةٌ، وأدرك أنه سيستعيد منصبه كوليٍّ للعهد، وسيغدو قائدًا للجيوش بدلًا من عديم النفع (نصال).

* * *

اِضْطَرَّ (خرافة) إلى الخروج؛ بحثًا عن (عارف) و(نهار)، بصحبة (هادن) وعشرة مقاتلين، الذين أمرهم (داهي) أن يصحبوه؛ لحمايته، بعد أن طال ترقّبه لرفاقه.

واشتد بهم المسير... بدا وكأن الأرض امتدّت بلا نهاية!

وأثناء طريقهم، إذ قال (هادن) بنبرةٍ شابها الأسى:

- أرى أن علينا العودة أدراجنا؛ فإننا إن توغّلنا أكثر، سنجد أنفسنا على أعتاب العاصمة الملكية.

أُصيب (خرافة) باليأس، ولم يجد إلّا أن يقرّر العودة، قبل أن يسمع صوت جلبةٍ قادمةٍ بين طيّات سحابةٍ من غبارٍ، وبمجرّد أن انقشعت، حتى برزت سريّةٌ يقودها الأمير (سادان).

أحاط بهم الجند من شتّى النواحي، ولم يجدوا متّسعًا أو أيّ مساحةٍ للفرار من جندٍ يفوقونهم عددًا.

ليدركوا أنهم وقعوا في مأزقٍ عظيمٍ!

***

داخل المعبد الأكبر لدى العاصمة الملكية... إذ تواجد أحد الفتيان أمام مجسّمٍ لشمسٍ فضيّة اللون، يتوسّطها قرصٌ ذهبيٌّ، واستهلّ يتمسّح بها بيديه، يتبعه بالمسح على جسده، قبل أن يتّجه صوب صومعة الإمام (ابن مهاب)، ذلك الإمام الزاهد العابد المحبّب إلى قلبه، وما إن كان يدنو من صومعته، حتى

يعود أدراجه، وينهمك بمطالعة أحد الكتب شارد الذهن، قبل أن يعود مجدّدًا إلى الصومعة، ويكاد يطرق بابها، ثم يعدل عن الأمر نفسه.

وهَمَّ بالعودة إلى داره، لولا أن وقعت عيناه على الإمام ذاته! فتفاجأ! وسمعه يقول له بنبرةٍ مرحةٍ:

- المحتذي (جامح)... أراك تتردّد في الدخول إلى صومعتي! ألديك مسألةٌ قد شغلتك؟

توتّر الفتى، ولم يجد إلّا أن يقول:

- سيدي الإمام، أردت حُكمك في كوني ابتعت قماشًا و...

قاطعه الإمام بصرامةٍ، وقد أحسّ بالإهانة:

- لا أخال أنْجَب المحتذين لدى معبدنا تشغله مسألةٌ تتعلّق بقماشٍ! إنك مهمومٌ بأمرٍ عظيمٍ! وهذا واضحٌ جليٌّ! فإياك أن تستهينَ بذكائي.

اضطرب الفتى بين التردّد والحيرة! وبدا وكأنه يخوض معركةً داخله، ليجذبه الإمام من ساعده، ويلج معه الصومعة، ويلحّ عليه السؤال، وظلّ الفتى في حيرته، لا يدري ما يقول، كان يرتعد متردّدًا، وبعد برهةٍ من الوقت... عزم أن يُزيح عن كاهله سؤالًا ثقيلًا:

- أنحن على الحق؟! أما يصنعه الملك المبجّل هو في صالح الرعيّة؟ أذلك الناجي ومَن معه يسعون في الأرض الفساد؟

- أفي شكٍّ أنت؟!

قالها الإمام متسائلًا، يتفحّصه بتمعّنٍ، ليُجيب المحتذي، وقد اعتراه التوتّر:

- الأمر ليس متعلّقًا بالشكّ، فما أرجوه هو أن يطمئن قلبي؛ فإن جلَّ ما يقتحم أذني من قولٍ، يخالف ما أراه! خاصةً وأن أهل قريتي يراسلونني، ويشتكون

مجرة الناجي الثاني

من سوء الحال، على الرغم ممّا يدخل خزينة المملكة من أموال بيع تلك الفاكهة.

مجدّدًا... تفحّصه الإمام! وإذ بالفتى قد اعتراه الهمّ، تزامنًا مع اشتعال فتيل الحرب بين قرية (دارناج) ومملكة (بارانية).

إنه صادقٌ في رغبته لمعرفة الحقيقة، وإن الشكّ هو أول الطريق نحوها، ولو تسنى له ضمّه إلى المناهضين للطاغية (أسدان)، لكان مكسبًا عظيمًا لهم؛ فلقلّما يجد شخصًا مخلصًا لدينه ومملكته مثله، لذلك سأله:

- أتكتم عنّي؟!

- لك عهدي أمام الشمس الأبدية.

- إن ذلك الملك وأعوانه ليسوا إلّا شرذمةً من المجرمين! وإن ما يصنعه أهل قرية (دارناج) هو ما كان أوْلى بنا جميعًا فعله!

- لكن (عظيم الأئمة) يؤكّد أن الملك المبجّل مؤيّدٌ من السماء.

- بوسعي أن أزعم الآن أنك مؤيدٌ من السماء! بل بوسع أيّ شخصٍ أن يقول ما يشاء! إن أفعالنا هي ما تبرز حقيقتنا، وليست أقوالنا.

وأردف قائلًا:

- كما أن ذلك الملك مؤيّدٌ من الجنّ! فطالما هم راضون عنه، فسيظلّ في سدّة الحكم، تمامًا كآبائه من الملوك!

- إن ما تفوّهت به يا إمام يناهض العقل! متى كانت للجنّ سطوةٌ علينا؟!

- هم يحكموننا في الخفاء، وهم كذلك من حرّفوا تاريخنا، وقسّموا مملكتنا (أورناسية) إلى عدّة دويلاتٍ، ورسموا الحدود بيننا، ونصّبوا شرذمةً من الخونة

على كل مملكةٍ، يحكم باسمهم وبأمرهم، مقابل حمايتهم لملكه، ولملك أبنائه من بعده.

اعترت الحيرة المحتذي؛ ليس فقط كونها أول مرّةٍ يسمع فيها هذا الفيض من المعلومات، بل لأنه حديثٌ يخالف العقل، وما عاش عمره يؤمن به، ليربت على كتفه الإمام، ويقول له برفقٍ:

- أعلم أنني أثقلت عليك، وإنني كنت أودّ أن تحضر معي اجتماعاتنا السرية، لولا احتمالية تحفُّظ القوم على وجودك؛ نظرًا لكونهم يجهلون أيّة طائفةٍ من الطائفتين تنتمي لها، لكن بوسعي أن أقنعهم، وهذا إنْ أقسمت لي على عدم إفشاء سرّنا لأحدٍ.

زادت حيرة الفتى، ولم يجد ما يقول، إلّا:

- أمهلْني بضعة أيامٍ! سأفكّر في الأمر، ثم أُطلعك بقراري.

- لك ذلك.

غادر المحتذي الصومعة بعقلٍ شاردٍ فيما سمعه من إمامه المحبّب إلى قلبه.

***

قال الأمير (سادان) بنبرةٍ منتصرةٍ، وبعينين لا تحيدان عن (خرافة) و(هادن) ورفاقهما:

- إذًا... فقد صدقت الأنباء... حول وجود زعيم العُصاة وبعض رفقته بجوار العاصمة الملكية!

عكف (خرافة) متفكّرًا في وسيلةٍ للتنصّل من هذا المأزق، قبل أن يُتابع الأمير (سادان) قائلًا بالنبرة المنتصرة ذاتها:

مجرة التاج الثالث

- من اليوم... سيذكر القوم اسم الشخص الذي أسر الناجي الثالث زعيم العُصاة! وسيتردّد اسمي في شتّى أنحاء العالم!

ألقى (خرافة) نظرةً إلى (هادن)، والذي بادله النظرة ذاتها، قبل أن يسأله الأول في محاولةٍ لاستفزازه:

- وما هو اسمك؟

احتلّ الغضب قسمات وجه الأمير (سادان)، ليقول حانقًا:

- ويحك! كيف تجرؤ على نسيان اسم الأمير (سادان)؟

ظهرت الحيرة على (خرافة)، ليقول متسائلًا:

- (سعدان)؟ أسبق أن سمعت به يا (هادن)؟

- كلّا، إنها أول مرّةٍ أسمع بهكذا اسمٍ!

اشتدّ غضب الأمير (سادان)، ليهتف متجهّمًا:

- سبق منّي القول إن اسمي هو الأمير (سادان).

- الأسير (هيفان)؟

قالها (خرافة) متسائلًا، في حين قال (هادن) مصحّحًا:

- لعلّه قال (هيفاء)!

تأمّله (خرافة) لوهلةٍ، قبل أن يقول متسائلًا:

- أذكرٌ أنت أم أنثى؟!

زاد من حنق الأمير (سادان)، لينزل عن جواده، ويدنو منهما شاهرًا سيفه، قائلًا بحنقٍ:

- أأنتما أصمّان؟! سبق منّي القول إن...

لم يتمكّن من إتمام عبارته! فما إن دنا منهما، حتى انقضّ عليه (هادن)، وأسقط السيف من يده، واتّخذه رهينةً بحركةٍ مفاجئةٍ سريعةٍ، وبسيفه المصوَّب إلى رقبة الأمير الأسير، وأفاق الجند متأخّرين من غفلتهم، وهبّوا لنجدة أميرهم، قبل أن يهتف فيهم (هادن):

- إن أول شخصٍ يدنو منّا، سيحظى برأس الأمير؛ كمكافأةٍ له!

تجمّد الجند في موضعهم، بعد أن وقعت أعينهم على سيف (هادن) مصوّبٌ نحو رقبة الأمير، والذي انعقد لسانه؛ من فرط المفاجأة، ومن الشعور بالخزي بمجرّد إدراكه لوقوعه في فخٍّ لا يقع فيه إلّا ساذجٌ! ليهتف (خرافة):

- سنعيد إليكم أميركم إذا ألقيتم أسلحتكم، وخلعتم دروعكم.

تردّد الجند، وباتوا في حيرةٍ من أمرهم، ليهتف الأمير (سادان) محذّرًا:

- لا تنصاعوا لهم، إنهم لن يقتلوني؛ لأنني سبيلهم للنجاة، وإن قتلوني، لهلكوا.

لامس حديثه حاجز المنطق لدى الجند، ليتأهّبوا لتحرير الأمير، قبل أن يهتف (هادن):

- لم تعد تعنيني الحياة بعد أن قتل جندكم سائر قومي، لذلك فهو ثأرٌ لهم.

وتحفّزت يده الممسكة بالسيف، ممّا أسفر عن ارتجاف جسد الأمير هلعًا.

ولوهلةٍ... انتابت (خرافة) الحيرة! فأنّى له من قومٍ؟ قد سبق لـ (هادن) أن أنبأه بخبرهم وأنهم ولجوا غابة (مرثار)، ولم يرهم بعدها، إذًا... لماذا يزعم الآن أنهم قُتلوا على يد جند المملكة؟! وبعد برهةٍ من التفكير... فطن لما يرمي إليه من حيلةٍ، وقرّر المشاركة قائلًا:

- أعلم القدر الذي كنت تكنّه لقومك، وكاد يهلكك الحزن على فقدانهم، حينما تسبّب جيشه في قتلهم، غير أن هلاك الأمير لن يُعيدهم، لذلك من الأسلم لنا أن نتفاوض معهم، فسيخسر الطرفان معًا إن قمت بنحره!

- كلّا! إنها فرصةٌ لن تسنح لي مجدّدًا، إنّي قاتله؛ ثأرًا لقومي، ولا جدال في ذلك.

هَمَّ (خرافة) أن يحتجّ، لولا أن مرّر (هادن) السيف في رقبة الأمير (سادان)! والذي صاح من شدّة الرعب، وانخلع قلب الجند جراء ذبحه، وتحفزوا للثأر لأميرهم المذبوح، إلّا أنهم أبصروا رقبة الأمير ظلّت سليمةً، ليهتف (هادن):

- يا للشمس الأبدية! قد سعيت إلى نحره بالجانب غير الحادّ من السيف!! سأعيد الكرّة.

وقلب سيفه، وهَمَّ أن ينحره، لولا أن صاح الأخير قائلًا بنبرةٍ جزعةٍ:

- مهلًا! انتظرْ!

توقّف (هادن) عن محاولة نحره، قبل أن يوجّه الأمير حديثه الى الجند بحسرةٍ وبصوتٍ مختنقٍ:

- افعلوا ما يأمرونكم به.

امتثل الجند لأمره، وألقوا أسلحتهم ودروعهم، وتراجعوا إلى الخلف، وما إن انتهوا، حتى دفع (هادن) بالأمير بعيدًا عنه، والذي بالكاد تمكّن من تحريك ساقيه؛ من شدّة الارتجاف والرعب، واتّجه ناحية السريّة، وصوّب المقاتلون سهامهم نحو السريّة، قائلين:

- إن لم تغيبوا عن أنظارنا خلال دقيقةٍ، أمطرناكم بسهامنا!

ولم يكذّب الجند خبرًا! إذ اندفعوا يركضون نحو العاصمة، والخزي والعار يلاحقهم.

و(خرافة) و(هادن) يسعيان جاهدين في كبح جماح الضحك! عاكِفَان مع رفاقهما في جمع الأسلحة والدروع دون أن يدريا أن (نصال) قد أبصر ما جرى، وذلك حينما كان في طريقه للعودة إلى العاصمة، ليندفع نحوهم ممتطيًا جواده، وقد باغت المقاتلين العشرة، والتحم معهم في قتالٍ، حتى تمكّن منهم، ليسقطوا جرحى، دون أن يُصاب بخدشٍ واحدٍ.

فوجد (خرافة) نفسه أمام (نصال) وجهًا لوجهٍ، والذي قال بعد أن ترجّل عن فرسه متأمّلًا شمساً تعلو عصا الفتى:

- إذًا... فإنك من ناشدي علوم تلك الخائنة!

وانقضّ بسيفه نحو الفتى، والذي تحفّز له مدركًا _يقينًا_ أنها معركةٌ لا أمل منها، قبل أن يعترض (هادن) طريق (نصال)، والذي هجم عليه بسيفه، ليسقط أرضًا جريحًا بضربةٍ واحدةٍ.

حاول (خرافة) أن يعميه بضوء العصا، إلّا أن (نصال) باغته بسيفه، ليتحركّ الفتى مبتعدًا عن ضربة السيف، قبل أن يتوارى مختفيًا عن نظره.

وهنا... توقّف (نصال) عن الحركة، وظلّ ثابتًا في موضعه كالصنم! بينما تحسّس (خرافة) طريقه متواريًا عن الأنظار، ومحاطًا بعتمةٍ تنقشع مع كل نبضةٍ من نبضات الشمس التي تعلو عصاه، حتى انتهت به خطاه إلى ظهر (نصال)، وهوى بعصاه نحو رأسه بكل قوّةٍ، إلّا أن (نصال) التفت الى الخلف، وبضربةٍ من سيفه، أطاح بعصا (خرافة)، والذي سقط أرضًا من شدّة الضربة، وفشل في المحافظة على تواريه، ليبرز من الخفاء.

منعه (نصال) بسيفه من النهوض، قبل أن يسأله:

- ما سبب قتالكم الأمير (سادان)؟!

مجرة التاجي الثالث

لوهلةٍ... تفاجأ (خرافة) من السؤال! قبل أن يفطن إلى أن هذا المقاتل الماثل أمامه لا علم له باندلاع الحرب بين المملكة وقرية (دارناج)، ممّا يمنحه فرصةً لخداعه، لذلك أجابه كاذبًا:

- قد حاول الاستيلاء على أمتعتنا، فمنعناه.

لا يخفى على (نصال) تجاوزات الأمير حيال الرعيّة والاستيلاء على أملاكهم، إلّا أنه قال بنبرةٍ حازمةٍ:

- إنه أمير البلاد! ولا يحقّ مواجهته، بل كان من الأوْلى الشكوى إلى الملك المبجّل.

ثم أعاد سيفه إلى غمده، واتّجه ناحية فرسه، وقال:

- لن أقتلكم؛ لكونكم لم تقتلوا أحدًا، لكن إن رأيتك مجدّدًا تقاتل أحدًا من أهل الملك المبجّل أو جنده، لأقتلنك.

وما إن امتطاه، حتى قال ناصحًا:

- وتخلّصْ من هذه العصا! فإن تلك الخائنة تلوّث العقل، وقد سبق لها أن تسبّبت في هلاك قومها.

وابتعد بفرسه عن الموضع، بينما اعتدل (خرافة) واقفًا، وعكف على علاج رفاقه المصابين، بعقلٍ شغله ذلك المقاتل شديد البأس.

* * *

بمجرد أن ولج المكلّف (نصال) قاعة الملك، حتى سجد بين يديه، قبل أن يعتدل واقفًا، ويقول:

- أرسل الملك المبجّل في عودتي على عجالةٍ! وليأمرني بما أراد.

أجابه الملك، وهو يخفي لهفته:

- حضرت في الوقت المناسب! فقد تخلّل _فترة غيابك_ اندلاع حربٍ بيننا وقرية (دارناج).

اتّسعت عينا المكلّف لوهلةٍ... ثم تصوّر أن الملك قد أخطأ اسم القرية، لذلك أراد أن يصحّح للملك الخطأ، والذي بادره قائلًا:

- كلّا! ليس هنالك خطبٌ في سمعك! إنما هي الحقيقة، لقد أعلنت القرية عصيانها، ونرغب في محو الفوضويّين عن الوجود، ودكّ القرية؛ حتى تغدو عبرةً لكل مَن تسوّل له نفسه على عصيان مملكتنا العظمى.

لا يزال المكلّف غير مصدّقٍ! ثم خطر على باله أمر الناجي الثالث، وصراعه مع الأمير (سادان)، ليسأل إن كانت للإنسيّ يدٌ في هذا العصيان الذي ألمَّ بالمملكة، ليُجيبه الملك أنه قائد الفوضى التي عمّت البلاد.

ليطلب المكلّف حينها الإذن بالسماح له بملاحقة الإنسيّ؛ فقد لقيه على مشارف المملكة منذ سويعاتٍ، ليمنحه الملك الإذن، ويأمره بأسره حيًّا إن استطاع على وجه السرعة.

غادر المكلف (نصال) القاعة مسرعًا... لدرجة أنه غفل أمر السجود للملك، واتّجه نحو أسرع فارسين، وأمرهما أن يسبقاه نحو قرية (دارناج)، وإن لحقا بالناجي الثالث، فعليهما أن يشغلاه، حتى يلحق بهما.

وغدا عقله مشغولًا عاجزًا عن التصديق في أمر قريةٍ تتجرّأ وتنقلب على مملكته!

***

الفصل الثامن عشر:

تعزيزٌ للثوّار

داخل دار نشر الوعي... حيث قال معاون (المكلّف بنشر الوعي) بنبرةٍ متردّدةٍ:

- مولاي... أتسمح لي بسؤالٍ؟

التفت إليه المكلّف مترقّبًا سؤاله، فيُتابع المعاون قائلًا:

- اليوم بَعَثْت بتعميمٍ لسائر الشعراء والقينات وكذلك للأئمة، وذلك فيما يتعلّق باتّهام كل مَن يُخالف الملك، على أنه يتعدّى على المملكة.

ثم تابع كلامه:

- لكن... أنّى للقوم من التسليم بهذا الزعم؟! فإن الملك هو الملك، والمملكة هي المملكة، فأنّى لهما أن يجتمعا في الكيان ذاته؟!

أجاب المكلّف ببساطةٍ:

- سؤالٌ وجيهٌ! وإن كنتُ أحبّذ ألّا يصدر من أحد معاوني؛ نظرًا لوضوح إجابته.

ما إن قالها، حتى اتّجه نحو شرفةٍ مطلّةٍ على المملكة، ثم أمر معاونه الشابّ أن يدنو منه، لتبدو عليه أمارات التردّد، فيقول المكلّف بنبرةٍ شابتها السخرية:

- لا تقلق! لن ألقي بك من النافذة! فقط ادْنُ منّي.

دنا المعاون بخطواتٍ حذرةٍ، حتى انتهى إلى الشرفة، ليُشير المكلّف إلى إحدى اللوحات المعلّقة، يسأله عن الذي لفت نظره فيها، فيُجيبه المعاون أنه يرى الملك، فيقول (المكلّف):

- أصبت الإجابة، غير أنها ناقصةٌ! أمعِن النظر مجدّدًا، ودقّقْ في تفاصيل اللوحة، وأنبئني بما ستجد.

بعد تدقيقٍ لبرهةٍ... قال:

- هنالك عبارة "كلنا فداء مملكتنا"، وأيضًا هنالك الشعار الخاص بمملكتنا.

- أحسنت، والآن أخبرني... ما الذي تراه لدى هذه اللوحة؟

وأشار إلى لوحةٍ أخرى لموضعٍ آخر من العاصمة، ليُجيب المعاون:

- هذه صورةٌ أخرى للملك المبجّل، وفيها عبارة "موطني هو ملاذي، وإليه أنتمي"، ومجدّدًا أرى شعار المملكة.

- أمعِن النظر في سائر اللوحات، وستجد الصفات الثلاثة نفسها متوفّرةً فيها.

سأله المعاون عن المغزى من توفّر هذه الصفات الثلاثة بكل لوحةٍ، ليُجيبه المكلّف:

- إنها وسيلةٌ لربط المملكة بالملك بين طيّات العقل، فالقوم تتعلّق قلوبهم أكثر بالوطن، وإن ربط الوطن بحاكمه، فيترتّب عليه _بداهةً_ تعلُّق القلوب بهذا الحاكم، لذلك فإن أيّ احتجاجٍ او اعتراضٍ على الملك، يتحوّل داخل كيان القوم إلى اعتداءٍ على الوطن ذاته.

حدّق المعاون النظر إليه مشدوهاً! أيّ شيطانٍ هو هذا الرجل على وجه التحديد!

* * *

بمجرّد أن عاد (خرافة) و(هادن) والمقاتلون العشرة إلى قرية (دارناج)، حتى حوّل (خرافة) وِجهته صوب دار الضيافة؛ حيث يتواجد (داهي)، تُحيط بهم تحيّات أهل القرية؛ شكرًا وثناءً للفتى الذي حرّرهم من سيطرة الطاغية، والذين لم يعرفوا معنى العدل، سوى خلال هذه الحقبة من الزمن.

استقبلوهم بوجوهٍ اكتست بترحابٍ صادقٍ بعد أعوام بؤسٍ وشقاءٍ، ممّا أثار تعجّب (خرافة)؛ حيث كان من الأوْلى لهم الشعور بالخوف والفزع؛ وذلك بعد أن أعلنت المملكة الحرب عليهم، تُرى... ما الذي اعترى القوم؟!

ليشعر بيدٍ تربت على كتفه، فإذ به صديقه (هادن) يتبسم له بسمةً كأنها تنطق وتقول: "لا تشغلْ بالك! ودع القوم ينعمون ببهجتهم"، وواصلت المجموعة طريقها، إلى أن وصلوا جميعًا إلى دار الضيافة.

وما إن وقعت عينا (خرافة) على (داهي)، حتى أقبل إليه واختلى به؛ ليحكي له تفاصيل ما حدث، وعن تمكّنهم من الحصول على غنيمةٍ من ذلك الأمير الأهوج، ثم اصطدامهم بذلك المقاتل العتيد، ليقول له (داهي):

- إنه المكلّف (نصال).

ردّد (خرافة) الكلمة متسائلًا، ليُجيبه (داهي):

- هو المكلّف بحماية المملكة، ويعدّ واحدًا من أمهر عشرةٍ ممَّن حملوا السيف على ظهر الأرض السابعة.

- هذا لسوء حظنا.

قالها الفتى، ليردّ (داهي) قائلًا:

- بل من حسن حظكم أنكم نجوتم منه! لكن دعني أسألك... مَن أبلغت بأمر مغادرتك للبحث عن رفاقك السجناء؟

أدرك (خرافة) مغزى سؤاله، ليسأله بدوره:

- تظنّ أن الجاسوس هو مَن وشى بي؟!

أومأ (داهي) برأسه مترقّبًا إجابة (خرافة)، والذي شرع يتذكّر الذين أبلغهم بمغادرته القرية، قبل أن يحصرهم، قائلًا:

- إضافةً إليك وإلى (هادن)، فإن مَن يعلم بمغادرتي قرية (دارناج) هم كلٌّ من: (ركن القرية)، و(إلنا)، و(جارف)، وزوجته، وكذلك أخبرت (ذهيل) بالأمر.

انتاب الانزعاج (داهي)، والذي قال:

- كان هذا تهوّرًا منك! لم يكن عليك أن تنبّئ هذا العدد منهم، غير أن تهوّرك هذا قد ساهم في حصر الجاسوس إلى عددٍ قليلٍ، لذلك فهو لن يعدو عن أيٍّ من: (جارف) أو زوجته، وهنالك (هادن)، وكذلك (إلنا)، وبالطبع (ركن القرية).

- لكنني لا أرى أيًّا منهم يبدو لي كجاسوسٍ! فإنني أثقّ بهم جمعًا، عدا (ركن القرية).

- لا تكن ساذجًا! إن الجاسوس كي يظفر بتحقيق سعيه، عليه ألّا يُثير الريبة حوله، ولا...

قاطعه أحد القرويّين، والذين دخلوا دار الضيافة، صائحًا:

- أيها الناجي الثالث! أيها القوم! هلمّوا معي! فهنالك خبرٌ سارٌّ!

تحوّلت الأنظار كلها نحوه، قبل أن ينهضوا ويغادروا دار الضيافة خلفه، ليُفاجؤوا بأعدادٍ من سائر قرى المملكة، قد انضمّت إليهم؛ في سبيل المقاومة ضدّ الملك الجائر، وقد عمّت الفرحة أرجاء قرية (دارناج)، ليسألهم (داهي):

- انضممتم إلينا رغم كل ما يُشاع حولنا من أباطيل؟!

أجابه أحد القرويّين:

- قد سئمنا من خداع ذلك الملك الجائر وزبانيته الأوغاد، ورأينا أن نمدّ لكم يد العون.

- إن هذا شرفٌ لنا!

قالها (داهي) بامتنانٍ، وغمر (خرافة) الشعور ذاته، قبل أن يربت أحدٌ ما على كتفه، فيلتفت له، فإذ به (جارف)، وقد بدا أنه تعافى، ليسأله:

- هل من أنباءٍ سارّةٍ حول أخي (عارف) و(نهار)؟

ما إن اقتحم أذن (خرافة) الصوت، حتى أدرك صاحبه، ليلتفت إليه قائلًا، وكانت تغمره السعادة؛ لأن (جارف) بخيرٍ وسلامةٍ:

- (جارف)! قد تعافيت أخيرًا!

في حين أجاب (هادن) على سؤاله بأسى:

- مع الأسف! لم نعثر عليهما، رغم بلوغنا حدود العاصمة، وكدنا نُقتل أو نُؤسر!

اتّسعت عينا (جارف) من فرط الدهشة والحزن، واستحثّهما أن يحكيا له ما جرى، وما إن انتهى (هادن) من الحديث، حتى قال (جارف):

- لحسن حظكما أن الأمر انتهى على...

قاطعه صوت فتاةٍ تهتف بنبرةٍ متفاجئةٍ:

- أأنتما هنا؟!

فالتفتوا الى مصدر الصوت، والذي بدا مألوفًا لكلٍّ من (جارف) و(خرافة)، وما إن نظرا إليها، حتى هتفا معًا باستنكارٍ:

- أأنتِ؟! ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟!

تساءل (هادن) حول أمر هذه الفتاة، ليُجيبه (جارف):

- إنها (ميرمان)، والتي عاونتنا على قتل ذلك الجنيّ.

ليتأمّلها (هادن)، قبل أن يقول منزعجًا ومعاتبًا لهما:

- كيف سمحتما لها بمقاتلة جنيٍّ؟ إنها فتاةٌ صغيرةٌ!

انتفخت أوداجها، وهتفت متجهّمةً:

- لست صغيرةً! إنما عمري هو واحدٌ وثلاثون عامًا.

- ما زلتِ صغيرة! ويُفضّل أن تعودي إلى قريتك؛ فإنك ستهلكين إن شاركتِ معنا في القتال.

كادت تحتجّ، لولا أن قال (جارف) معارضًا:

- بل إنها إن شاركت معنا في الحرب ضدّ المملكة، فإننا منتصرون لا محالة.

التفتا إليه متعجّبين، في حين تهلّلت أسارير (ميرمان)، قبل أن يُتابع (جارف) قائلًا:

- لأن الجيش الذي سيُجابهه جيش الملك (أسدان) هو...

صمت لوهلةٍ... يتأمّل تعابيرهم الفضولية، قبل أن يتابع:

- هو جيشٌ من (اليراسيع)! صدّقوني... ستغدو الساحرة الأولى التي تهزم جيشًا من فرط الضحك!

وانفجر الثلاثة ضاحكين! في حين هتفت (ميرمان)، وقد اشرأبّ وجهها حمرةً من فرط الغضب:

- ما أنتم إلا مجرّد حفنةٍ من الحمقى!

وأولت لهم ظهرها وهي تُسارع الخطوات مبتعدةً عنهم، وكادت تنفجر من فرط الغيظ، حتى وقعت عيناها على معلّمها وهو واقفٌ أمام فتاةٍ ربطت عينيها بعصابةٍ سوداء، وكان يحادثها بتبجيلٍ واحترامٍ لم تعهده منه من قبل!

مجرة الناجي الثالث

ثم دنت منه تسأله بفضولٍ عن أمر هذه الفتاة، لتشتعل رأس معلّمها الصلعاء احمرارًا؛ من فرط الغضب، فجذب من بين جنبات كُتبها كتابًا، وضرب به رأسها! وقد دوّى صوت الضربة وأفزع مَن حولهم من القوم، وهتف متجهّمًا، بينما كانت تتحسّس رأسها من وقع الضربة التي أوجعتها:

- يا بلهاء! أما علمتِ مَن تكون هي؟ إنها (وتيرة)! أعظم ساحرات الأراضين السبعة.

غاب الألم عن رأس (ميرمان)؛ من هول الخبر، وانحنت ناحية الفتاة قائلةً بتبجيلٍ:

- قد سمعت عنكِ الكثير سيدتي! وإنني أطمح أن أغدو ساحرةً عظيمةً مثلك.

غمغمت (وتيرة) بصوتٍ خفيضٍ عبارةٍ لم يتبيّنها أحدٌ، بينما جذب المعلّم (ميرمان) من أذنها، ولم ينسَ الاعتذار إلى (وتيرة)، وهو يجرّ تلميذته بعيدًا عنها.

***

وداخل القصر الملكي بعاصمة (بارانية)... إذ أقبل المكلّف (نصال)، وسجد بين يدي الملك، قبل أن يطلب منه الملك النهوض، ويقول له متسائلًا إن تمكّن من أسر قائد الفوضويّين، ليُجيبه المكلّف قائلًا بنبرةٍ بها خيبة الرجاء:

- بكل أسى! لم يسعفنا اللحاق بالناجي الثالث، غير أننا صادفنا مجموعاتٍ من أهالي القرى المجاورة، والذين قد توافدوا إليهم وانضمّوا إلى عصيانهم ضدّ مملكة (بارانية) العظيمة.

صمت الملك (أسدان)، وسرى القلق في الجميع؛ فقد توقّعوا انفجارًا سيحلّ في أيّة لحظةٍ، ثم نهض الملك من مقعده، فنهضت الحاشية، وهتف حانقًا:

- أيعصونني أنا؟! أنا الذي أغدقت عليهم من أموالي! أيصنعون بي هذا وينضمّون إلى عدوّي؟!

ثم أمر المكلّف بتجهيز جيش لم يعهده الفوضويّون، وأن يجعل منهم عبرةً لكل مَن يتسلّل بألبابهم فكرة الخروج عن طاعته، ليُجيبه المكلّف (نصال) على الفور، وأسرع في تلبية أمره متلهّفًا، وكأنه كان يترقّب هذا الأمر، قبل أن يسجد بين يدي الملك، ويغادر على الفور.

ثم قال الملك (أسدان) موجّهًا حديثه إلى (المكلّف بنشر الوعي):

- أصدِر الأمر للشعراء والقينات والأئمة أن يعمّموا بين الناس احتمالية أن نواجه فوضى، وأن يمهّدوا لنا الطريق؛ كي نطهّر البلاد من شرّ هؤلاء، وأننا نخشى إن تجاهلناهم، أن يسعوا في الأرض الفساد.

ابتسم المكلّف ابتسامةً خبيثةً، قبل أن يقول:

- سمعًا لأمر مولاي الملك المبجّل وطاعةً له! لكن هل لي أن أُبدي اقتراحًا؟

أومأ له الملك (أسدان) رأسه بأن يُتابع، ليقول مستطردًا:

- أرى أن تخرج فيهم بموكبٍ عظيمٍ؛ فإن هذا سيبعث فيهم الأمل، وسيبثّ في قلوبهم الطمأنينة، وسيزيد من ولائهم لك، وأن تتفضّل عليهم ببعضٍ ممّا عندك يا مولاي، وقد اجتمعت مع (المكلّف بالخير)، والذي اقترح أن نرفع أجورهم؛ فهذا سيشكّك في مزاعم الفوضويّين حول فكرة أننا نمنحهم أقلّ ممّا يستحقون.

بدا الامتعاض على وجه الملك، والذي قال منزعجًا:

- أأنفق عليهم المزيد من أموالي؟! أما يكفيهم ما يحصلون عليه؟!

- هي تضحيةٌ بسيطةٌ فقط يا مولاي الملك المبجّل، وستجد شعبًا وفيًّا مخلصًّا لك.

وعلى مضضٍ... أشار بالموافقة، وأمر أن ينفّذ الاقتراح، ثم جلس غارقًا في التفكير، فلن يهدأ له بالٌ، حتى يتخلّص من هذه الحفنة من الفوضويّين ومن عبثهم.

***

بينما كان (خرافة) يهيم في طرقات (دارناج)... إذ اقتحم أذنيه صوتُ قرع سيوفٍ، ليتّجه نحو مصدره، فإذ تقع عيناه على تجمهر بعض القرويّين، وما إن شقّ طريقه وسط الزحام، حتى لمح (ضرغام) يقاتل جمعًا من جند الثورة.

ولوهلةٍ... ظنّه قتالًا جادًّا! قبل أن يظهر له أنها حصّةٌ تدريبيةٌ فحسب، حيث كان شبيه الأسد ينهر كل مَن يتقاعس أو تعتريه الرهبة.

وبينما تابع (خرافة) النزال مع القوم، إذ سمع بجواره صوتًا مألوفًا، يقول له:

- إنه (ضرغام)! أحد الغِر... أعني... (الغورجان).

فالتفت إلى مصدر الصوت، فإذ به (ذهيل) ببسمته الودودة، ليسأله الفتى:

- (الغورجان)! أهم غير (الأورناس)؟

أطلعه (ذهيل) عن أمرهم، فهم في الأصل من (الأورناس)، بيد أنهم تحالفوا مع الجنّ؛ بغية القوّة والنفوذ، ولأجل أن يتحقّق هذا التحالف، فإن الجنّ اشترطوا عليهم خيانة (الأورناس)؛ كي يحصلوا على قوّةٍ لا تضاهيها أيّة قوّةٍ على وجه الأرض السابعة، ولم يكذّبوا خبرًا! ونفّذوا خيانتهم، ولم يكتفوا بذلك، بل تسبّبوا في سقوط مملكتي (عاس-قان) و(عاب-قار)، وأفضى ذلك إلى تبّدل هيئتهم، وأضحوا أشدّ بأسًا، حيث إن الواحد منهم يعدل العشرات من (الأورناس).

استحثّه الفتى أن يزيده من أخبارهم، ليزيده الشيخ... بأنهم (الغورجان)، وهي تعني (حلفاء الجنّ)، غير أن (الأورناس) ينعتونهم بلقب (الغِرجان)، وهي تعني (صبيان الجنّ)، ويا لشدّة مقتهم لهذا النعت!

ولهم عاداتٌ عجيبةٌ، خاصةً في الزواج، فإن الرجل منهم إن أراد الزواج بامرأةٍ، فإنه يختار أشدّهن بأسًا، والخطبة لا تعدو عن نزالٍ بينهما، إن غلبته، تقتله أو تستعبده، وإن غلبها، يتزوّجها، وإن غلبته وتزوّجته _وهو أمرٌ لقلّما يحدث_ فإن القوم ينبذونها مع زوجها، ويتمّ نفيهما، وفي بعض الأحيان يتمّ قتلهما معًا!

سأل (خرافة) مستنكرًا:

- لكن... ما سرّ الرغبة بالزواج من أشدّهن بأسًا؟!

- لأن الزوجة الشديدة تعني نسلًا من الأشدّاء، أو هذا ما يتصوّره الغِر... أعني (الغورجان)!

وتابع (ذهيل) سرد أخبارهم، وأنهم يشتهرون ببروز قرنين أعلى الرأس، أمّا عن سبب كسر قرنيّ (ضرغام)، فذلك جراء الهزيمة النكراء التي تعرّض لها جدّه قائد الجيوش الأسبق، ممّا ترتّب عليه خسرانهم للمنجل المقدّس، وانتهت بهم الحال إلى الحكم على الجدّ بكسر قرنيه، وقرون نسله جميعهم؛ ليحملوا هذا العار معهم إلى الأبد.

ولم يرضَ شبيه الأسد بهذه العقوبة، وعقد العزم على إعادة المنجل المقدّس؛ لعلّ ذلك يمحو عار جدّه، وبعد سنواتٍ من البحث، التقى بـ (داهي)، والذي عرض عليه معاونته في العثور على المنجل، مقابل أن ينضمّ إلى رفقته، وبالطبع لم يوافق؛ لعدم ثقته بـ (الأورناس)، وأيضًا لمقته لهم، لذلك تحدّاه في نزالٍ، إن انتصر يقتله، وإن انتصر عليه (داهي)، فإنه ينضمّ إليه.

سأله (خرافة) مندهشًا:

- أتعني أن (داهي) تغلّب عليه؟

أومأ له رأسه إيجابًا، ليقع الفتى في حيرةٍ من أمره، حول هذا الـ (داهي)! من المؤكّد أنه يحمل على كاهليه فيضًا من الأسرار، ليسأل بفضولٍ حول أمر (داهي)، ليُجيبه (ذهيل):

- قد أدهشك إن أجبتك بعدم علمي عنه سوى القليل، على الرغم من مضيّ سنواتٍ على صحبتي له! هذا لأنه شخصٌ محاطٌ بالغموض، ولا يحبّذ التطرّق إلى ماضيه أبدًا، بل إنني واثقٌ أن اسمه ليس (داهي)!

- وكيف التقيت به؟

قالها (خرافة) متسائلًا، ليعلم من الشيخ أن الأمر قد بدأ منذ سنواتٍ، حينما كان (ذهيل) أحد أمراء مملكة (عاس-قان) المحتلّة، وأثناء قيادته لإحدى عمليات تحرير المملكة، تمّ اعتقاله؛ بسبب وشايةٍ من خائنٍ، وتمّ الحكم عليه بالإعدام، ولم يتمّ التنفيذ؛ نظراً لثورة أهل (عاس-قان)، ممّا أسفر عن تخفيف الحكم إلى الحبس مدى الحياة.

وما هي إلّا بضعة أشهرٍ، حتى تمكّنت ابنته من تحريره والفرار إلى خارج المملكة المحتلّة، ليتّضح _لاحقًا_ أن العدوّ سهّل لها مهمّة تحريره؛ حتى يتمّ إلصاق تهمة الفرار بـ (ذهيل) وتخليه عن قضية تحرير مملكة (عاس-قان).

ولكم آلم (ذهيل) ميل القوم إلى هذه الأكاذيب! وآلمه أكثر ما التمسه من موت فكرة تحرير (عاس-قان) لدى معظم (الأورناس).

حتى التقى بـ (داهي)، والذي كان يُضاهيه رغبةً في تحريرها، بل ويهدف إلى توحيد (الأورناس) كلهم تحت رايةٍ مملكةٍ (أورناسيةٍ)، وطرد الجانّ من الأرض السابعة.

لذلك اتبعه وابنته، وما هي إلّا بعض سنواتٍ، حتى تعلّقت به الفتاة، وعقد خطبته بها.

سأله (خرافة):

- المعذرة يا عمّاه! لكن ألا ترى معي أنه من غير المعقول قبولك خطبة شخصٍ تجهله وتجهل نسبه؟!

ابتسم الشيخ ابتسامة غامضة، قبل أن يُجيبه، قائلًا:

- أتذكر سبب فشل عمليّتنا ضدّ العدوّ؟

- كان ذلك بسبب وشايةٍ من خائنٍ.

- هذا صحيحٌ، ولكنني لم أُطلعك بعد بهويّة الخائن! فقد كان أخي الأمير (وثوق)! أدركت حينها أن الأنساب ليست إلا مظاهر خداعة، وأن الحكم على المرء يبدأ وينتهي بعمله فقط.

بدت إجابةً موافقةً للعقل، فهي ابنته! ولهما حق الحرية في اختيار الشخص المناسب.

وعلى سيرة ابنته... قد سأله عنها، ليُجيبه الشيخ أنها في مهمّةٍ للبحث عن جاسوسٍ بالجانب الغربي من الأرض السابعة، ويشكّ في أن تنتهي منها قريبًا، لذلك فمن المؤكّد أنها لن تشارك مع الثورة ضدّ مملكة (بارانية).

***

مجرة الناجي الثالث

الفصل التاسع عشر:

السلاح السريّ

شاع التعميم بين القوم شتى أرجاء مملكة (بارانية)... حول خطورة تلك الشرذمة من الفوضويّين، وراح الشعراء يهجونهم ويحذّرون منهم، وصوروا للقوم كيفية إنقاذ الملك المبجّل للمملكة من هذا الخطر الغاشم، وغنّت القينات القصائد، وظل أهل القرى في حيرةٍ من أمرهم، وإن كانت طائفة عظيمة منهم قد أذعنت إلى هذه المزاعم.

اجتمع جمعٌ غفيرٌ من القوم _على أشهر وأهمّ ساحات العاصمة الملكية_ مترقّبين (عظيم الأئمة)، وبعد ما يقارب الساعة من الانتظار والترقب، صدحت هتافات بعض الجماهير، وزادت علوًّا بقدوم عربة عظيم الأئمة الفاخرة والفارهة، وتعلّق بها القوم؛ يتبرّكون بها، والبعض الآخر وقف بجوار باب العربة يترقّب نزول (عظيم الأئمة) منها.

وما إن فُتح الباب، حتى برز كرشه! وتبعه سائر جسده! يحيط به الحرس، يحولون بينه بين القوم من الدنوّ منه، وكان يُحيّيهم بيدٍ تحمل الصولجان الذهبيّ المطعّم بالدرر.

وراح الناس يهتفون له، والكل يطمح في التبرّك به، واجتمعوا حوله، وقد ارتقى عاليًا على منبره مستهلًّا حديثه بتمجيد الشمس الأبدية وتعظيمها، ثم الثناء والسلام على الملك المبجّل، وبعدها صاح بين الجمع الغفير:

- أيها الناس، منذ مقدم ذلك المجرم، والذي تطلقون عليه لقب الناجي الثالث، وقد توسمت فيه الشر، كما ألهمتني الشمس الأبدية، إنه وأتباعه لا غاية لهم سوى شيوع الفساد والفوضى بينكم، وأنهم لا يسعون إلّا لنشر الشائعات على الملك المُلهم من الشمس الأبدية، والذي ينام ساعةً واحدةً في اليوم لمصلحتكم وفي سبيلكم، إن الفوضويّين استغلّوا الأوضاع الاقتصادية السيّئة التي عمّت البلاد، لذلك لا تستمعوا لهم، وإن رأيتم أحدهم يستمع لهم، أو شككتم به، فقوموا بإبلاغ الحرس الملـ...

قاطعه صوت شخصٍ، والذي اتّضح أنه أحد الأئمة، وهو يهتف بهم ملوّحًا بيده ناحية عظيم الأئمة:

- يا قوم! إن هذا الماثل أمامكم، لا يعدو عن كونه من الدجّالين! ولا هدف له إلّا تضليلكم؛ من أجل سيده اللصّ المبجّل، وما أراه إلّا كلبًا ينبح؛ كي يحمي مزرعة أسياده، ولذلك...

لم يمهله الجمع، فانطلقت صيحات الاستهجان، وانهال جمعٌ آخر عليه بالضرب، قبل أن يجتمع عليه الحرس ويأسرونه، ليُتابع عظيم الأئمة قائلًا:

- أرأيتم كيف تسنّى لهم نشر الضلال والفساد بين الناس؟! حتى الأئمة! لم يسلموا منهم، لذلك... فالحذر الحذر! لا تستمعوا لأكاذيبهم، ولا تستمعوا لأحدٍ غير الملك المبجّل وأعوانه المخلصين، حفظتكم الشمس الأبدية ما حفظتم عهدكم للملك المبجّل.

وما إن أنهى عبارته، حتى علا الصياح والهتاف بحياة الملك المبجّل، وسعى الناس إلى التعلّق بعظيم الأئمة والتبرّك به، لولا أن منعهم الحرس، وهو يسعى جاهدًا للصعود إلى عربته الفاخرة بمعاونةٍ من الحرس، بعد أن حُشِرَ بالباب، وما إن دخل العربة، حتى تحرّكت، والناس خلفه يهتفون للملك وله.

***

وداخل قرية (دارناج).. والتي تبدّلت بعض معالمها، وبدت أقرب لثكنةٍ عسكريةٍ! حيث تجمّعت أفواجٌ من المتدرّبين للقتال، وباتت كل مجموعةٍ من المتدرّبين تجتمع حول مقاتلٍ متمرّسٍ.

وانضمّ (خرافة) إلى المتدرّبين لدى (داهي)، والذي بدا قاسيًا مع متدرّبيه جُلّهُم، وعند حدوث أيّ خطأ منهم، كان يقول متجهّمًا:

- إن مثل هذه الأخطاء، لو حدثت أثناء المعركة، لكلّفتكم حياتكم!

بدا الاستياء على القرويّين و(خرافة)، ليقول الأخير متبرّمًا:

- إنما نحن حديثو عهدٍ بالقتال! فلا تَقْسُ علينا.

- هذا لا يعدّ عذرًا؛ فالعدوّ لن يفرّق بين المحترف والمبتدئ! وكذلك الموت، فالكل سواسيةٌ أمامهما لدى ساحة القتال.

قالها (داهي) بصرامةٍ، قبل أن يُشير خلفهم، ويُتابع بالحزم ذاته:

- وإن لم تناسبكم طريقتي، فهاكم (ضرغام)! إنه ليسعده أن تتدرّبوا تحت إشرافه.

التفتوا للخلف، ليجدوا (ضرغام)، يحيط به جمع ضئيل من المتدرّبين، في حين أن معظمهم قد تمّ تعليقهم من أقدامهم! وظل ينهر سائر المتدرّبين بحديثٍ لم يتبيّنه (خرافة)، لكنه لا يستبعد أنه قد ينوي قطع أقدامهم إن حدث خطأٌ ما

من أحدهم مجدّدًا! ومنذ تلك اللحظة، لم يصدر عن (خرافة) وسائر المتدرّبين أيّ احتجاجٍ أو تذمّر!

وبمجرّد انتهاء التدريب، إذ سقط (خرافة) على مقعدٍ وهو بالكاد يلتقط أنفاسه، ويراقب (داهي)، والذي عكف على مواصلة التمرين، ولفت نظره لجام سيفه الواقع على المنضدة، ولفتت نظره عبارةٌ مكتوبةً بـ (اللسان العربيّ)، لم يتسنى له قراءتها، ليسأله (ذهيل):

- يبدو لي أن العبارة المدوّنة على اللجام، قد أثارت اهتمامك! أليس كذلك؟

- بلى، لكن ما المكتوب فيها؟

- لا تجيد القراءة إذًا! إن المكتوب فيها هو (في سبيل عاس- قان).

- أليست هي المملكة التي كنت أميرًا عليها؟

- بلى، هي تعدّ واحدةً من أهمّ وأقدم وأقدس ممالك (الأورناس)، وهي محتلّةٌ منذ مئات السنين، وهنالك العديد ممَّن غفل عن أمرها، لكن القلائل فقط مَن يهدفون إلى تحريرها.

- ألهذه الدرجة هي مهمّةٌ بالنسبة إليه؟

- بالطبع، إنها حلمه منذ صباه، بل إنه قد تخلّى عن ماضيه وأهله؛ كي يحقّق هذا الهدف، وجاب الأرض السابعة يجمع مقاتلين؛ حتى يعاونوه في تحقيق غايته، ومَن حضر هنا هو بعض ممَّن تمكّن من كسب ولائهم له، ولا يزال هنالك المزيد، ومن بينهم ابنتي، والتي تعدّ من أمهر مَن حمل القوس والسهم.

التفت مجدّدًا إلى (داهي) والحيرة تحتلّ قسماته، قبل أن يلفت نظره جمع من المقاتلين، الذين عادوا إلى القرية مجهدين وهم يحملون مغارفهم! ليتساءل في نفسه: "ماذا كانوا يحفرون؟"

وفي الليل... غلبه الأرق؛ من شدّة الحماسة، والقلق من الغد، وما يحمله من مصيرٍ غير محسومٍ.

* * *

وتزامنًا مع إشراقة شمس اليوم التالي... إذ استيقظ أهل قرية (دارناج) مع صوت نفير الحرب، وقد علموا أن مملكة (بارانية) أرسلت جيشًا تعداده سبعة آلاف جنديٍّ بقيادة (نصال)، بينما كان جيش قرية (دارناج) بالكاد يصل إلى ثلاثة آلاف مقاتلٍ، وقد قسّمهم (داهي) إلى فئتين، فئة بقيادته، والأخرى بقيادة (ضرغام).

أمّا (خرافة)... فقد لازم خيمةً بجوار المعركة؛ يلبث بداخلها باعتباره السلاح السريّ للنصر في المعركة، ولم يدرك المقصود بذلك، سوى أن (داهي) لا يثقّ به، ويرغب في تنحيته جانبًا؛ حتى لا يغدو حِملًا ثقيلًا على الجيش، خاصةً مع أخطائه الساذجة أثناء التدريب للقتال، لذلك ابتلع الإهانة ولم يعلّق.

لفت نظر (ذهيل) صندوقٌ، أسود اللون، واقع على منضدةٍ بجوار (داهي)، ليفتحه الأخير، ويُخرج منه سيفًا مقبضه من الفضة، وكان نصله شفّافًا، أحمر اللون، وباليد الأخرى حمل فأسًا ذا نصلٍ شفّافٍ، أخضر اللون، أدرك حينها أن هذا هو معدن (مَرِيرْ)، وهو من أشدّ المعادن ندرةً، ويمتاز بشدّة صلابته، إضافةً إلى خفّته، ليقول وعيناه تركّزان على السلاحين:

- إنها لأول مرّةٍ تقع عيناي على سلاحٍ مصنوعٍ من معدن (مرير)! لكن ما السرّ في مزجه بحجريّ العقيق والزبرجد؟

أجابه بأن اللون الأخضر يرمز إلى الأرض، أما اللون الأحمر فيرمز إلى الدم، لترتسم ابتسامة على ثغر (ذهيل) رغمًا عنه، وقد فطن إلى غاية انتقائه لهذين اللونين، فإن الأرض لن تتحرّر إلّا ببذل الدماء، ثم لمحه مهمومًا، ليسأله عن سبب هذا الهمّ الذي ألمّ به، ليُجيبه (داهي):

- ما كنت أتصوّر أن أول مَن أريق دماءهم بسلاحيَّ هم (الأورناس).

- إنما أنت تقاتل أعوان الجنّ منهم؛ في سبيل حماية المستضعفين.

أومأ برأسه إيجابًا، وشرع يختبر سلاحيه، وعيناه لا تتركان قائد جيش العدوّ، ليسأله (ذهيل):

- أسبق أن قاتلت المكلّف (نصال)؟

- كلا، وإن وردني عنه العديد من الأنباء، فهو يعدّ أحد أمهر مَن حمل السيف على الأرض السابعة منذ صباه، بعد تفوّقه على أبيه ومعلّمه (يحيان)، لكم كنت أطمح إلى ضمّه لرفاقي، غير أن الأمر أضحى محالًا الآن.

سأله الشيخ عن السبب، ليُجيبه (داهي) قائلًا:

- يعيب المكلّف ضيق الأفق، فهو لا يسمع للعقل والمنطق فيما يتعلّق بمملكة (بارانية)، لذلك... طالما رفعنا السلاح تجاه مملكته، فإنه لن يبرح حتى يقتلنا أو نقتله.

تحوّل نظر (ذهيل) ناحية (نصال)، تعتريه خيبة الأمل والرجاء؛ فمن المؤكّد أنه كان سيغدو إضافةً عظيمةً لرفاق (داهي).

مجرة الناجي الثالث

وأمر (داهي) الجيش أن يصطفّ عرضًا، وأمرهم كذلك إذا أقدموا على العدوّ، ألّا يسرعوا الركض، بل يتظاهروا بالإسراع، مع الهتاف الحماسيّ وضرب الأرض بشدّةٍ؛ ليتناثر الغبار، وليبدو للرائي لهم أنهم مندفعون صوب العدوّ.

وفي الجانب الآخر... قال معاون المكلّف (نصال):

- إن الفوضويّين قد برزوا بصورةٍ غير معتادةٍ! حيث إنهم يصطفّون عرضًا، وهو أمرٌ لم نعهده في الحرب.

ألقى (نصال) نظرةً إلى جيش (دارناج) متأمّلًا هيئته، حيث انقسم إلى قسمين، كل قسم منهما ظهر عريضًا بصورةٍ ملفتةٍ، ثم قال:

- لعلّهم عمدوا على الظهور بصورةٍ أعرض منّا؛ كي يحيطوا بجيشنا ويحاصروه.

سأله المعاون عن الإجراء الملائم لصنيع جيش الثورة، ليأمره المكلّف (نصال) بتبديل هيئة اصطفاف جيش المملكة، بحيث يظهر بصورةٍ أعرض من جيش الثورة، بل إن هنالك جيش احتياطي يترقب منه إشارة كي ينضم إلى المعركة، فلا مزيد من المفاجآت.

واصطفّ الجيشان... وأُعلن نفير المعركة، واندفع الطرفان يركضان كلٌّ تجاه الآخر، وافضت حماسة جيش (دارناج) إلى بعثت الحماسة لدى جيش المملكة، فشرعوا يزيدون من سرعة ركضهم، ومع تزايد وقع ضرب الأرض، نتج عنه تناثر الغبار بشدّةٍ، فيُهيّأ للرائي أن جيش (دارناج) يندفع مسرعًا ناحية العدوّ، الذي انطلت عليه الحيلة، وزاد من سرعة ركضه بأقصى ما يستطيع.

ولم يمضِ الكثير من الوقت، حتى وطأت أقدام جيش المملكة أرضيةً قد هوت بهم إلى الأسفل، ليتّضح أنه خندقٌ قد تمّ حفره ومواراته عن أنظارهم، ليسقط

فوجٌ من جيش مملكة (بارانية)، وكذلك الذين أبصروا الخندق منهم وتوقّفوا عند حافّته، سقطوا فيه! وذلك من جراء تدافع الجند خلفهم.

في حين هتف (داهي) في جيشه أن يفسحوا الطريق، وما إن امتثل الصفّ الأول لأمره، حتى برز من خلفهم الرماة، يرمون بالسهام الذين لم يسقطوا من جيش العدوّ، وكذلك السحرة تتلو التعاويذ تجاههم.

أفاق (نصال) من الصدمة، وهو يرى ثلث جيشه ينهار، ليهتف بالجند:

- الرماة والسحرة! عاجلوهم بالرمي، وليتبعني الخيالة، كي نعبر الخندق.

نفّذ الجيش أوامره، وشرع رماة وسحرة المملكة بإصابة أعدادٍ من جيش (دارناج)، وتمّ نقلهم إلى خيمة (خرافة).

هتف (داهي) بـ (ضرغام):

- خُذْ موضعي، ودَعْ لي موضعك.

ردّ (ضرغام) مستنكرًا:

- وأدع لك منازلة (نصال)؟ إنه لي أنا.

- لستَ له بكفء.

- لا تستهِنْ بي أيها الأورانسيّ! لأرينّك ما أصنع به!

لم يجد (داهي) إلّا أن يثق به، ليقول له:

- إذًا... فعليك الحذر منه؛ فإنه يتمتّع بضربةٍ من سيفه لا يلمحها إلّا مقاتلٌ متحفّزٌ لها، وذو عينٍ خبيرةٍ بالنزال.

لم يعره اهتمامًا، وواصل حصد العشرات من جنود المملكة، في الوقت نفسه الذي تمكّن فيه (نصال) وجمعٌ غفيرٌ من الجيش من عبور الخندق بالخيول،

بينما أُصيب جيش الثورة بالسهام، ليهتف (داهي) بالجند، وهو منهمكٌ في مقاتلة مَن عبر الخندق ناحيته:

- الجرحى! عليكم بالجرحى!

ومجدّدًا... أشرف جمعٌ من الجند على حمل الجرحى، ونقلهم إلى خيمة (خرافة)، ليعكف على علاجهم، ويتمّ شفاؤهم بالفعل، ويضحى بإمكانهم العودة للقتال، وكأنهم لم يصابوا من قبل!

وحرص الخيّالة على سحق كل مَن يعترض طريقهم، حتى سقط (نصال) عن خيله، بعدما تسنى لـ (ضرغام) من قطع لجام فرسه بمنجله، وتقاتلا معًا، والتحما في صراعٍ متكافئٍ، وظلّا يتقاتلان، حتى لمح شبيه الأسد ضربة سيفٍ بالكاد تسنى له من ملاحظتها، ليسعى إلى تفاديها، إلّا أنه كان متأخّرًا، إذ جرح كتفه قبل أن تنزلق قدمه بحافّة الخندق، وترنّح محاولًا الحفاظ على توازنه.

في حين انقضّ عليه (نصال) بضربةٍ من سيفه، ليصدها بمنجله فيختلّ توازنه من شدة الضربة، ويسقط فيتعلّق بحافّة الخندق ساعيًا إلى الصعود مجدّدًا، بينما تتلقّى ذراعه المتعلّقة بالحافّة عدّة ضرباتٍ من سيف (نصال)، والذي تفادى ضرباتٍ من منجل (ضرغام)، هاتفاً وهو يكبح جماح ألمه:

- قاتِلْ بشرفٍ! يا عديم الشرف!

مجدّدًا... واصل (نصال) تفادي منجله، شرع يعود ويضرب ذراعه السمكية، قائلًا:

- لا شرف يعلو فوق شرف حماية المملكة من المجرمين أمثالك.

وهَمَّ بضرب ذراعه ضربةً أخيرةً، لولا أن اعترض سيفَه سيفٌ آخر، حال بينه وبين الوصول إلى ذراع (ضرغام)، والذي هتف متجهّمًا:

- لا تسرِقْ منّي فريستي أيها الأورناسيّ!

حدّق (نصال) النظر إلى المقاتل الماثل أمامه، والذي حال بينه وبين قطع ذراع شبيه الأسد، ولفت انتباهه أنه يحمل سيفًا وفأسًا، وهو أمرٌ لم يعتده من قبل، فتحفّزت حواسه، وقد بدا له أنه أمام مقاتلٍ يختلف عن كل مَن نازلهم من جيش (دارناج)، ليسأله بفضولٍ:

- لعلّك إذًا قائد جيش الفوضويّين، هل لك أن تعرّف نفسك؟ وما الذي دفع أجنبيًّا مثلك في التدّخل في شؤوننا الخاصة؟

- لا أرى أهميةً للأسماء، لكن إن أردت اسمًا، فإنني أُدعى (داهي)، ولا أجد نفسي أجنبيًّا؛ فبلاد (الأورناس) كلها هي بلادي، لذلك فكل يدٍ تتعرّض لأهلها، يتوجّب بترها.

قال (نصال) بنبرةٍ صارمةٍ:

- لا أراك إلّا كسائر الساذجين! تحلم بعودة مملكة (أورناسية) البائدةٍ، ولن تعدو عن كونك غريبٌ يتدخّل في شؤون مملكتنا العظيمة.

قال (داهي) ملوّحًا بسلاحيه:

- هلا رقصنا إذًا بدلًا من جدالٍ لا طائل منه؟!

هتف (نصال) مستنكرًا:

- أنّى لمقاتلٍ مثلك أن ينعت النزال بالرقص؟!

ثم تابع بنبرةٍ صارمةٍ:

- إننا بساحة حربٍ، حيث نضحّي بأرواحنا في سبيل مملكتنا العظيمة.

ردّ (داهي) بنبرةٍ لا تخلو من التهكّم:

- هَوِّنْ عليك أيها المكلّف! فما الحياة إلّا معزوفةٌ أوشكت على الانقضاء، ولن تذر خلفها سوى آثار أقدام راقصيها!

وبمجرّد أن أنهى عبارته، حتى اندفع قُدُمًا مطوّحًا بفأسه ناحية (نصال)، والذي صدّه بسيفه، ليرتدّ إلى الأعلى، فوَثَبَ (داهي) وتلقّفه، قبل أن يهبط به وبسيفه على (نصال)، ليصدّ الضربة مجدّدًا، وقد أحس وكأن كتفاه سينخلعان من شدّتها!

والتحما معًا في قتالٍ عنيدٍ، طال بهما، لدرجة أن توقّف بعض المحاربين عن القتال، وانهمكوا في متابعة نزال القائدين، وظلّوا هكذا عاجزين عن تصوّر ما سينتهي إليه النزال.

اعترت الحيرة (نصال)، والذي عجز عن تنبّؤ أسلوب مقاتله، فمرّةً يعمل الفأس عمل الترس، فيحميه، بينما يهاجم بسيفه، ثم تتبدّل الحال، حيث يصدّ بالسيف ويهاجم بالفأس، وأحيانًا يهاجم بالسلاحين معًا، بل حتى ضربته التي بالكاد يمكن ملاحظتها، إذ بالمقاتل يصدّها دون عناءٍ!

ومع طول أمد النزال... وتساقط أعدادٍ من جيش مملكة (بارانية)... لم يجد (نصال) إلّا أن يتّراجع إلى الخلف، ويرفع يده، فيبرز من خلفه جيشٌ احتياطيٌّ، تعداده ألفي فارسٍ، ليدرك (داهي) أن المعركة قد انقلبت ضدّهم، فلم يحسب حسابًا للجيش الاحتياطيّ، إن المزيد من جيش العدوّ، تعني المزيد من المصابين، وهو أمرٌ لن يتحمّله (خرافة)، وقد ينهار في أيّة لحظةٍ، لذا فعليه أن يجد حلًّا، وإلّا هلكوا جميعًا.

وبينما هو غارقٌ في بحار أفكاره... إذ وجدها (نصال) فرصةً سانحةً لينقضّ بسيفه، ينوي طعنه في مقتلٍ! ليتدارك (داهي) الأمر، وبدلًا من أن يصدّ طعنته

أو حتى يتفاداها، قام هو أيضًا وانقضّ بسيفه على (نصال)، لينتهي الحال بأن طعن كلاهما الآخر، فيقول (داهي) متبسمًا وكابحًا جماح ألمه:

- المعذرة! علينا أن نؤجّل القتال بيننا، حتى يتسنّى لي سحق الجيش القادم!

اتّسعت عينا (نصال) من جنون صنيع (داهي)، بل إن الأشدّ جنونًا يتمثّل في العبارة الأخيرة!

ثم سقط كلاهما أرضًا، ليهتف أحد جنود مملكة (بارانية):

- لقد سقط القائد! هلمّوا لحمله.

وحملوه إلى موقع الجيش، وكذلك فعل جيش (دارناج)، وما إن شاهد معاون المكلّف ما حلّ بـ (نصال)، حتى أمر الجند بلهفةٍ أن يهتمّوا بجرحه، وأن يُعيدوه إلى العاصمة.

في حين تمّ إدخال (داهي) إلى خيمة (خرافة)، والذي راعه أمر الأول، واعتراه اليأس، وأدرك أن الهزيمة قادمةٌ لا محالة! قبل أن يقول له (داهي) كابحاً جماح أَلَمِه:

- ماذا دهاك يا فتى؟! عالِجْ جرحي!

فاق (خرافة) من غفلته متعجّبًا من إلجام الصدمة لعقله، وكونه يستطيع علاج الجرحى، ثم أشرف على علاجه! وما إن التأم جرحه، وسكنت آلامه، حتى وثب (داهي) إلى خارج الخيمة؛ ليواجه مع جنده سائرَ جند العدوّ، والذي انهارت معنويّاته؛ إثر سقوط قائدهم.

تابع معاون المكلّف القتال باضطرابٍ، وأدرك أن إعلان التراجع قد حان، بعد ما ألمّ بالجيش، بينما جيش القرية لم يهلك منه أحدٌ!

فأعلن معاون المكلف الانسحاب، في اللحظة ذاتها التي تمّ نقل (نصال) بعربةٍ ملكيةٍ إلى العاصمة، وأبصر المعركة عبر نافذة العربة، وأن (داهي) و(ضرغام) يقاتلان العدوّ دون عناءٍ! لتجحظ عيناه من فرط الدهشة! إنه واثقٌ من طعنه للأول، وإصابته للثاني إصاباتٍ بالغةٍ، فمن المحال أن يُواصلا القتال، وبهذه الشدّة!!

كاد أن يجنّ جنونه، وسعى للنهوض، لولا جرحه العميق، والذي حال بينه وبين مواصلة القتال، قبل أن يقتحم أذنيه صوت معاونه وهو يدعو الجيش للانسحاب من المعركة.

هنا... تعالت أصوات الهتاف والفرحة بالنصر لدى جنود (دارناج)، والعدوّ ينسحب أمام ناظريهم.

وداخل الخيمة... حيث عكف (خرافة) على علاج جنديٍّ آخر، وهو يكابد نفسه من شدّة الإعياء، إنه بالكاد يجد وقتًا لتعريض عصاه لشعاع الشمس؛ كي تستعيد قواها.

حتى اقتحمت أذني (خرافة) أصواتُ الهتاف، ولا يدري ما قد حَلَّ برفاقه، حتى ولج الخيمة (هادن) يصيح مبتهجًا بانتصار جيش الثورة، لتلجم السعادة الفتى! فيسقط على أقرب مقعدٍ طالبًا الراحة بعد انتهاء معركةٍ لم يتصوّر أن تنقضي بهذه السرعة!

***

الفصل العشرون:

سكّينٌ وجزرةٌ

داخل قاعة الحكم... بالقصر الملكي... إذ دخل معاون المكلّف بحماية المملكة، وسجد بين يدي الملك، الذي سأله بلهفةٍ:

- أتمّ القضاء على الفوضويّين، وهدم تلك القرية اللعينة؟ وأين المكلّف (نصال)؟ إنني لا أراه بصحبتك!

بالكاد استطاع معاون المكلّف (نصال) النطق، وخرج صوته مختنقًا:

- بل انهزمنا يا مولاي الملك المبجّل! انهزمنا شرّ هزيمةٍ، والمكلّف (نصال) تعرّض لإصابةٍ بالغةٍ.

وثب الملك من مقعده، بدا وكأن كرسيّه قد تسعّر نارًا، بعينين متّسعتين من فرط الصدمة؛ عاجزًا عن التفوّه بأيّ حرفٍ! في حين هتف (رئيس المكلّفين) قائلًا:

- حدّث بحديثٍ يعقله العقل يا معاون المكلّف (نصال)!

- لكم وددتُ لو أكون مخطئًا في مزاعمي.

مجرة التاجي الثاني

تسنى للملك النطق أخيرًا، ليتساءل... والحيرة تكاد تُصيبه بالجنون حول أمر هذه الهزيمة، فأنّى لحفنةٍ من المزارعين بهزيمة جيشٍ نظاميٍّ يفوقهم عدّةً وعددًا، وبقيادة أحد أعظم قادة جيوش الأرض السابعة، وزاده معاون المكلّف (نصال) بأنهم كذلك لم يتمكّنوا من قتل أو أسر أحدٍ من الفوضويّين!

ألجمه النبأ، ومجدّدًا عجز عن النطق من هول الفاجعة، ليشير بيده إلى المعاون أن يرحل، وقد بدا مهمومًا مغمومًا، وما إن غاب معاون (نصال) عنهم، حتى سأله (رئيس المكلّفين):

- ما أنت فاعلٌ حيال هذا الأمر يا مولاي الملك المبجّل؟!

لم يجبه! وظلّ غارقًا في التفكير، حتى خُيِّلَ لـ (رئيس المكلّفين) أنه لم يسمعه، ولم يمضِ الكثير من الوقت، حتى قال:

- ليس أمامنا سوى الاستعانة بالممالك الأخرى، وإن كنت أشكّ في أمر استجابتهم لطلبنا، وإن خاب رجاؤنا، فلا طاقة لنا في مواجهة هذه الشرذمة، والتي سيعلوا شأنها بعد هذا الانتصار الكاسح.

فاغتمّت الحاشية بمجرّد سماعهم ما تفوّه به ملكهم، إن الأمر حقًّا لا مناص منه.

وهنا... قال (المكلّف بنشر الوعي) ترتسم على ثغرهِ ابتسامته اللزجة:

- لو يسمح لي مولاي الملك!

أشار له الملك أن يُبدي اقتراحه، ليقول:

- أرى أن تجمع قادة الفوضويّين، وتعرض عليهم مناصبَ رفيعةً، وتغدق عليهم من الأموال؛ نظير الكفّ عن هذا العبث، حينها سيبرز وجههم الحقيقيّ، وتبرز أطماعهم، ويتخلّون عن قومهم.

لمعت عينا الملك، وقد كان لوقع الاقتراح صدى داخله، غير أنه سأله وقد شغله شاغل:

- لكن... ألن نبدو في نظرهم الطرف الأضعف؟

ليردّ المكلّف:

- بوسعنا إخبارهم أن ما يصنعونه سيفضي إلى حربٍ أهليةٍ، والمتضرّر الأكبر فيها هم الرعيّة.

- ما زلت على غير اقتناع بالاقتراح! وإن كان يميّزه أنه سيمنحنا وقتًا، حتى يستعيد المكلّف (نصال) عافيته، لذلك قد نلجأ إليه في حالة ما إذا خاب سعيُنا مع الممالك المجاورة.

***

وبالقاعة الرئيسة... بالمعبد الأكبر... بالعاصمة الملكية... إذ اعتلى (عظيم الأئمة) عرشه، وجلس حوله الأئمة يتسامرون، وبينما هم على هذه الحال، إذ دخل عليه الحاجب قائلًا:

- سيدي (عظيم الأئمة) المؤيّد بنور الشمس الأبدية، إن أحد المحتذين يرغب في المثول أمامك في أمرٍ مهمٍّ.

نهره أحد الأئمة قائلًا:

- ويحك يا هذا! ألا ترانا في مشغلةٍ.

قاطعه عظيم الأئمة قائلًا بنبرةٍ صارمةٍ:

- اسمحْ له بالدخول، ولنرى ما يحمله إلينا من أنباءٍ.

ولم يمضِ الكثير من الوقت، حتى دخل عليهم (جامح)، وقد تعلّقت عيناه بعرش (عظيم الأئمة)، وما حوله، وبدا وكأنه داخل قاعة حكم الملك ذاته!

خاصةً الكرسيّ المصنوع من الذهب الخالص والمطعّم بالدرر، والذي لا يضاهيه في العظمة سوى سقف القاعة وأرضيّتها، ثم أفاق من غفلته بعدما سمع (عظيم الأئمة) يقول:

- هات ما عندك يا فتى.

اعتراه التوتّر؛ فلم يتوقّع هذا الحشد الهائل من الأئمة، لينعقد لسانه، ويعجز عن التفوّه بحرفٍ، فيميل أحد الأئمة ناحية (عظيم الأئمة)، ويقول:

- إنه (جامح)، وهو أحدُ أنبغ وأنجب المحتذين لدينا.

ارتفع حاجبا عظيم الأئمة إعجابًا، وهو يقول:

- قد سمعت عنك الكثير أيها الفتى، وأبلغني معلّموك أنك ستغدو إمامًا عظيمًا في الغد القريب.

لم يبدُ على الفتى أيّ تأثرٍ ممّا قيل، وكأنه لا يُعنيه! ليقول بعد برهةٍ من الوقت:

- أودّ أن أحدّثك عن أمرٍ يتعلّق بأمن المملكة، ولكن... على انفرادٍ!

سكنت القاعة تمامًا من أيّ صوتٍ، وقد حدّقت به الأعين، ما بين متجهّمٍ ومتعجّبٍ من جرأته، إلى أن أمر (عظيم الأئمة) مَن بالقاعة بمغادرتها.

وبلا تردّدٍ... نهض الأئمة والمحتذون جميعهم، وقد رمى بعضهم الفتى بنظرةٍ ساخطةٍ؛ جراء وقاحته تلك.

وبمجرّد أن غادروا القاعة، حتى نهض عظيم الأئمة من كرسيّه، وخطا نحو (جامح) بخطواتٍ ثابتةٍ، وما إن دنا منه، حتى سأله بابتسامته الودودة:

- ألديك شكٌّ في شخصٍ ما أن يكون من أولئك الفوضويّين؟!

أومأ برأسه نفيًا، قبل أن يُجيب:

- لا، كل ما في الأمر أن لديّ مسألةً فيما يتعلّق بسياسة الملك المبجّل نحو رعيّته.

اقتحمت خيبة الأمل قسمات وجه (عظيم الأئمة) لوهلةٍ! قبل أن تعود ابتسامته الودودة قائلًا:

- قد جئت إلى الشخص المناسب، هلمّ... فلنجلس على المقاعد الجانبية تلك.

وقاده نحو مقاعد الأئمة، وأجلسه برفقٍ على أحدها، وجلس عن شماله، ثم سأله:

- ما هي المسألة التي تشغلك؟ حدِّثْني عنها.

- أحقًّا أن ما يقوم به الملك المبجّل يوافق إرادة الشمس الأبدية؟ فإنني أتعجّب من جمعٍ من القرويّين تمكّنوا من هزيمته مرّتين! والأعجب من ذلك ألّا يخرج مصابٌ واحدٌ منهم!

ردّ عظيم الأئمة بودٍّ أبويٍّ:

- إنما هو اختبارٌ من الشمس؛ لمعرفة مقدار إيماننا، كما أن انتصارًا واحدًا أو اثنين، لا يغيّران حقيقة أنهم يسعون في الأرض الفساد، فما هم إلّا شرذمةٌ تتغذّى على الفوضى، ولن يهدأ لهم بالٌ، حتى يثور القوم على مليكنا.

- لكن ما وردني أن حالهم أفضل من حالنا! إن القرويّين ينعمون بحياةٍ أكثر زهوًا من أيّة قريةٍ أخرى، هذا على الرغم من كونهم قد خرجوا عن سلطان الملك المبجّل.

لمعت عينا عظيم الأئمة، وقال بأسلوبه الودود ذاته:

- ألا ترى معي أنك مطّلعٌ على أحوال قرية (دارناج)؟! في حين أنها محاطةٌ بسياجٍ من السريّة، وهي قريةٌ لا يعرف عنها مَن بالخارج إلّا القليل!

شحب وجه الفتى، وعجز لسانه عن النطق، لينهض عظيم الأئمة ويتّجه نحو منضدةٍ فاخرةٍ من الذهب الخالص، دائرية الشكل، توسّطت القاعة، وامتدّت يده نحو سكّينٍ ذهبيّةٍ، ليزداد شحوب الفتى، والذي سعى إلى الفرار! إلّا أن الخوف قد ألجم قدميه، وباتت عيناه تتابعان (عظيم الأئمة) في توجّسٍ، وقد وضع السكّين فوق طبقٍ ذهبيٍّ، ثم مدّ يده وسط طبقٍ هائل الحجم يعجّ بأصنافٍ من الفواكه والخضار، ليولج يده بينها، حتى أخرج جزرةً بلونٍ برتقاليٍّ فاقعٍ، ليضعها على الطبق الذهبيّ، ويعود فيجلس بجوار الفتى المذعور كفأرٍ وقع في مصيدةٍ! ويقول له بودٍ أبوي:

- مَن أطلعك على أخبار قرية (دارناج)؟

- لا أحد، إنما هو تخمين من عندي.

تخلّلت خيبة الأمل ملامح الإمام، ثم شرع في تقشير الجزرة، وهو يسأله:

- من أيّة قريةٍ أنت يا (جامح)؟ وهل لك من أهلٍ؟

قال وعيناه لا تكفان النظر على الجزرة:

- إنني من قرية (أستار)، ولي أمٌّ وأخوان وأخت، أمّا أبي، فقد توفّي.

- أيعمل أخواك؟

- أخي الأكبر يعمل مزارعًا، أمّا الأصغر، فلا يزال يشقّ طريقه نحو التجارة.

قطع الإمام الجزء الأعلى من الجزرة، وناوله إلى الفتى قائلًا:

- ألا تودّ أن نمنح أخاك الأكبر أرضًا زراعيةً، ونعفيه من الضرائب، إضافةً إلى منحه بعض الامتيازات، وندعم تجارة أخيك الأصغر، ونمنحه قرضًا لا يردّه لنا، ونضاعف من أجرتك الأسبوعية، بل ونعجّل في قرار منحك لقب الإمام؟!

شرد الفتى بذهنه... وعيناه باتت معلّقتين بقطعةٍ من الجزرة، شعر وكأن غيمةً أمطرته أحلامًا تتحقّق أمامه، قبل أن يصدر صوت الإمام، وقد بدا كالرعد يسبقه برقاً تخلل الأمطار ليصعقه ويُفيقه قائلًا:

- لكن... يوجد مقابلٌ بسيطٌ نأمله منك! ولن يكلفك شيئًا، فكل ما عليك فعله هو أن تدلي لنا أسماء مَن أبلغوك بما يدور داخل قرية (دارناج).

قال وهو يكابد نفسه:

- لا أقدر، فقد وعدتهم ألّا أبلغ أحدًا عنهم.

لمعت عينا عظيم الأئمة انتصارًا، قبل أن يقول برفقٍ:

- إن الوفاء بالوعد أمرٌ عظيمٌ، وهو يوافق إرادة الشمس الأبدية، لكن ليس مع الخونة أعداء المملكة! فهؤلاء لن يهنأ لهم عيشٌ، حتى يثور الناس على ملكنا المبجّل، وتعمّ الفوضى، وتسقط مملكتنا العظيمة.

ثم تابع قائلًا بنبرةٍ باردةٍ:

- وإن علم الملك أنك تتستّر على الخونة أعداء المملكة، فإنه لن يكون بك رحيمًا، وليُذيقنك أشدّ العذاب، حتى تدلي بأسمائهم.

ظلت عينا الفتى معلّقتين بالسكّين الذهبيّة الواقعة بيد (عظيم الأئمة)، وهو يلوّح بها بغضبٍ، قبل أن يعود إلى هدوئه، ويستأنف تقطيع الجزرة، وهو يقول بودٍّ:

- بالطبع لا أنشد لك مصيرًا كهذا، لكنك تعلم أن سرًّا كهذا لن يظلّ طيّ الكتمان ردحًا من الزمن.

ناوله قطعةً من الجزرة مستطردًا:

مجرة الناجي الثالث

- كما أن الملك المبجّل إن رضي عنك، فسيعلو شأنك، ولا تتعجّب حينها إن وجدت نفسك تجلس على عرش (عظيم الأئمة) في الغد القريب.

تناول الفتى قطعة الجزرة، ودسّها في فمّه يمضغها بتلذّذٍ، وعيناه لا تحيدان عن الكرسيّ الذهبيّ الخاص بـ (عظيم الأئمة)، قبل أن يتحوّل طعم الجزرة إلى المرارة، بعد أن باغته الإمام قائلًا:

- لذلك... أمدّنا بأسماء الخونة أعداء مملكتنا العظيمة، لصالحها ولصالحك.

قالها ملوّحًا بالسكّين الذهبيّة، وقد تحوّلت عينا الفتى إليه، والرعب يتملّكه، قبل أن تتحوّل عيناه إلى عيني (عظيم الأئمة) القاسيتين، حينها فقط... انهار وأدلى بدلوه كله!

***

غادر (خرافة) دار الناجي، بمجرد أن نعم بقسطٍ من الراحة، وبعد جهدٍ قد أضناه في علاج جرحى الحرب، ليُفاجَأ بهتافٍ عالٍ صادرٍ عن جمعٍ غفيرٍ، والكل يهتف باسمه، وبدا في حيرةٍ من أمره، حتى سمع صوتًا مجاورًا له يقول:

- إنك تمنحهم الأمل، إن هذا ما تحتاجه الرعيّة حينما تشهد عهودًا من الظلم، حيث يأتي مَن يبعث الأمل في قلوبهم بغدٍ أفضل، لذلك هم مستعدّون لمجابهة الموت في سبيل ذلك الغد، لهم ولأولادهم من بعدهم.

ولم يكن صاحب الصوت سوى (داهي)، ليردّ متبرّمًا:

- وماذا عنك؟! إن قتالنا مع المملكة أفضى إلى انتصارين كاسحين بفضل قيادتك، فإن كان هنالك مَن يستوجب أن يضعوا على كاهليه آمالهم، فهو أنت.

- ليس الأمر كما تتصوّر، فالقوم لا ينشدون مقاتلٍ، بل يلتمسون إلى رمزٍ يبعث فيهم الأمل.

- لماذا ينتابني شعورٌ أنك خلف هذا؟!

- ليس أنا، وإنما الملك قد صوّرك قائدًا للثورة ضدّه.

لم يَعِ (خرافة) ما يقصد، ولم يلقِ بالاً بالأمر؛ فكل ما يعنيه الآن هو أن ينتهي من هذه الحرب سريعًا؛ كي يتفرّغ للبحث عن علاجٍ لزوجته (غزالة).

قال له (داهي):

- قد انضمّ إلينا المزيد من أهالي القرى المجاورة، بعد أن وصل إلى مسامعهم أمر صنيعنا بجيش المملكة.

- إنه خبرٌ سارٌّ، لكن... أتتوقّع أن تُغير المملكة علينا؟

- لا يسعنا تنبّؤ خطوتهم القادمة، لذلك علينا أن نباغتهم، ونجمع جيشًا يحتلّ عاصمتهم، ونُجبر الملك أن يُصلح من سياسته تجاه رعيّته.

سأل (خرافة) مستنكرًا:

- ولماذا لا نقضي عليه؟!

- لأن الملك (أسدان) رجلٌ صالحٌ، ولم يفسده إلّا شهوة السلطة، وما عزّز من ذلك هو تمجيد لاعقي القنادر من الرعيّة، إضافةً إلى أن مصير ملكه يعتمد بالكلية على مدى إخلاصه للجنّ، وإلّا... عزلوه، ونصبوا غيره ملكًا.

ثم تابع بنبرةٍ صارمةٍ:

- لذلك... إن حرّرناه من سطوة الجنّ، وأعدنا إنشاء دواوين المملكة، بحيث تتمّ مراعاة مصالح الرعيّة أوّلًا، ويتمّ تعيين الأصلح منهم، ومحاربة الفساد

والفاسدين، حينها وخلال بضعة سنواتٍ سترى مملكةً عظيمةً، لا تضاهيها أيّة مملكةٍ على الأرض السابعة!

سأله (خرافة) بفضولٍ:

- لماذا ينتابني شعورٌ أنك على معرفةٍ مسبقةٍ بالملك (أسدان)؟!

لم يجبه! وإنما انشغل عقله بمحاولة تنبّؤ الخطوة القادمة من المملكة.

***

الفصل الحادي والعشرون:

اجتماعٌ على أرضٍ محايدةٍ

توالت الأيام... ولم تحقّق الممالكُ المجاورة أملَ الملك (أسدان)، حيث معاونته في القضاء على الفوضويّين، لذلك لم يجد حلًّا سوى الاقتراح الذي أبداه (المكلّف بنشر الوعي).

وتمّ إرسال رسالةٍ إلى (خرافة)؛ لدعوته ومَن معه من قادةٍ للاجتماع بالملك، ليملي (داهي) شروطه على الرسول، وهي: أن يقع الاجتماع على أرضٍ محايدةٍ، وأن يعطيهم الأمان والسماح لهم بحمل أسلحتهم، ليعود الرسول إلى الملك، وينبّئه بالشروط، ليستشيط الملك غضبًا، ويقول متجهّمًا:

- أمجموعةٌ من الرعاع يشترطون عليَّ أنا؟!

قال له (رئيس المكلّفين):

- على الأقلّ... هم لا مانع لديهم من الاجتماع بكم يا مولاي الملك المبجّل، ولا تَنْسَ أنه لم يعد لدينا بديلٌ، خاصةً بعد أن خذلنا الجميع.

لم يجد الملك إلّا أن يذعن إلى هذه الشروط؛ وذلك لعلمه يقينًا أنهم الطرف الأضعف، خاصةً مع إصابة المكلّف (نصال)، وانهيار الروح المعنوية للجيش،

ولا يغفل أحدٌ أمر الأفواج من الرعية التي انضمّت إلى الفوضويّين ضدّه من شتّى بقاع المملكة، بعد أن أُصيب جيش المملكة بهزيمتين ساحقتين متتاليتين، لينفّذ الرسول الأمر، ويتّجه شطر قرية (دارناج)؛ يبلغهم بموافقة الملك بشروطهم.

وفي تلك الأثناء... قال (ضرغام) موجّهًا حديثه إلى (داهي)، وبنبرةٍ معاتبةٍ:

- لِمَ استجبت لفكرة الاجتماع بالملك؟! إنه لم يطلب ذلك، إلّا لأنه يائسٌ وخائفٌ من مواجهتنا، وأرى أن الحلّ الأمثل هو أن ننطلق فورًا، ونسحق المملكة بكل مَن يعترض طريقنا.

- قد سنحت لنا فرصة حقن الدماء، وطالما كانت لديه رغبةٌ لسماع مطالبنا، فلِمَ القتال إذًا؟

- عيبك أنك تفتقر إلى الجرأة!

قالها (ضرغام) قبل أن يولي وجهه شطر دار الضيافة، وما إن جنّ الليل، حتى عاد الرسول بموافقة الملك للشروط، وتمّ تحديد مكان الاجتماع على أرضٍ ما بين العاصمة وقرية (دارناج).

ولم تمضِ بضعة أيام... حتى اجتمع الطرفان، وتكوّنت طائفة المملكة من الملك وحاشيته وبعضٍ من جنده وحرسه، وقد تمّ نصب عرشٍ له على طريقٍ محايدةٍ.

ومن ناحية أخرى... برز كلٌّ من (داهي) و(خرافة) و(ضرغام) و(وتيرة) إضافة إلى (هادن) والذي يقتصر دوره على كونه ممثّل لقرية (دارناج)، بعد أن رفض ذلك (ركن القرية) وعددٌ من كبارها؛ وذلك بداعي الخشية من مواجهة الملك.

وما إن مثلوا بين يدي الملك، حتى كاد أن يسجد له (هادن)، لولا أن تدارك نفسه، ليهتف (رئيس المكلّفين) فيهم وينهرهم:

- ويحكم! ألا تسجدون للملك المبجّل (أسدان)؟!

لم يعره أحدٌ منهم اهتمامًا، سوى (ضرغام)، والذي رمقه بنظرةٍ ناريةٍ تجمّدت لها الدماء في عروق (رئيس المكلّفين)!

سألهم الملك موجّهًا حديثه ناحية (خرافة) حول مطالبهم، ليُجيبه الفتى أنه لا توجد مطالب لهم، فيقول الملك بنبرةٍ مستنكرةٍ:

- لا مطالب لكم! إذًا... ما سرّ هذه الفوضى التي تسبّبتم بها؟!

- عنيت أنه ليست لنا نحن مطالب، وإنما السؤال يجب أن يوجّه إلى (هادن)؛ فهو أحد رعاياك من أهالي قرية (دارناج)، وهو المتحدّث عنهم.

هكذا أجابه (خرافة) ملوّحًا بيده ناحية صديقه، لتنتقل الأنظار كلها تجاه (هادن)، فيغزو الشحوب شتّى أجزاء وجهه، وترتجف أطرافه، وأحسّ وكأن طرقًا يضرب أذنيه، وبدت الرؤية غير واضحةٍ، ليقول بشفتين مرتجفتين:

- إننا نطالب الملك المبجّل أن يمنع تهجير القرويّين، ويعفينا عن الضرائب، ويمنحنا نصيبنا من بيع فاكهة (النارجسيل)، وخفض الـ...

قاطعه الملك حانقًا:

- أيّ هراءٍ يتلفّظ به هذا المزارع؟!

ردّ (خرافة) بصرامةٍ:

- اسمه (هادن)! ومن المفترض أنك تعلم أن خراج مملكتك يعتمد على الزراعة، كما يجدر بك توجيه حديثك إليه؛ فهو الأهم بيننا؛ لكونه أحد رعاياك.

أمسك (داهي) بساعد الفتى؛ كي يخفّف من لهجته، في حين استشاط الملك غضبًا، ليهتف:

- لا أحد يجرؤ أن يعلّمني كيفية إدارة مملكتي، ولا مَن أُخاطب، ولا أحد يتمتّع بأهميةٍ هنا سواي، فأنا الآمر الناهي على هذه الأرض!

ألقى الملك نظرةً إلى (المكلّف بنشر الوعي)، والذي نهض من مقعده، واتّجه ناحية (خرافة) ورفاقة مطرقًا رأسه، وكأنه يبحث عن العبارة المناسبة، ليستهلّ بها حديثه، قبل أن يقول بابتسامةٍ لزجة:

- فليسمحْ لي مولاي الملك المبجّل باقتراحٍ، ولننحّي هذه المطالب جانبًا، ولأسألكم، ألا ترون معي أن نكفّ عن هذه الفوضى والعصيان، وما ستفضيان به من حربٍ أهليةٍ لن يتضرّر منها أحدٌ سوى الرعيّة! والتي لا ينام الملك من شدّة انشغاله بأمرها، وقد اختبرنا مدى كفاءتكم وحرصكم على مصلحة المملكة، تمامًا كحرصنا على مصالحها، لذلك فإنني أقترح أن يتمّ تعيينكم في خططٍ ومناصبَ مرموقةٍ، وبأجورٍ مرتفعةٍ، نظير تغاضيكم عن هذه الفوضى، والتي لن يخرج أحدٌ منها منتصرًا.

سأله (خرافة):

- وماذا عن أهل قرية (دارناج) وسائر القرى؟

- إنهم يتمتّعون بكامل حقوقهم، ولا حاجة لمنحهم أكثر ممّا يحصلون عليه؛ فخزينة المملكة بالكاد تفي حاجات الرعيّة؛ بسبب الفقر الذي عمّ البلاد.

- إذًا... فإن عرضك مرفوضٌ! لأن شرطنا الأساسي والأول هو تحقيق مصالح الرعيّة.

قال الملك بضجرٍ:

- سبق أن أنبأكم المكلّف عن الضائقة المالية التي عمَّت البلاد، فلن يسعنا تلبية حاجات الرعيّة كلها.

هنا لم يطِقْ (داهي) صبرًا، ليقول متجهّمًا:

- إن حجّة كون المملكة تعاني من ضائقةٍ ماليةٍ، تعد حجّةٌ واهيةٌ! فهي من ناحيةٍ تنمّ على عدم كفاءة القائمين على شؤون المملكة، ومن ناحيةٍ أخرى فقد دخلت خزينة الدولة مبالغُ طائلةٌ؛ من جراء بيع فاكهة (النارجسيل) لسائر الممالك، ومع ذلك فلم تتغير أحوال الرعيّة! في حين قد تمّ ترميم قصورك وقصور أعوانك! فكيف ذلك؟!

تأمّله الملك لوهلةٍ... قبل أن يسأله إن سبق وأن رآه قبل ذلك، غير أن (داهي) تجاهله، طالباً منه تفسيرًا لصنيعه، ليُجيب الملك بنفاذ صبرٍ:

- إن ترميم قصوري وقصور حاشيتي هو من صالح المملكة.

- إن بطون الرعيّة أوْلى من هذه المظاهر عديمة النفع، لذلك أرى أن يتمّ إنشاء ديوانٍ، تشرف الرعيّة على اختيار أعضاء هذا الديوان، وأن يقتصر دوره حول مراقبة ما يدخل خزينة المملكة، وكل ما يتمّ صرفه، وتتمّ مساءلة مَن يستغلّ منصبه لإنفاقها في مصالحه الخاصة.

نهض الملك من مقعده بوجهٍ اشرأبّ حمرةً؛ من فرط الغضب، بعد أن زاد الأمر عمّا يحتمل، ليهتف حانقًا مستنكرًا:

- أنا الملك (أسدان) ابن سلسلةٍ من الملوك، تنتهي بالمؤسس (باران) العظيم، تتمّ مراقبتي ومحاسبتي؟! ومِن مَن؟ من المزارعين! قد أخطأتُ حينما تصوّرت أنني أجتمع بعقلاء! فإذ بي أجتمع بحفنةٍ من المجاذيب الذين يريدون إحداث أمرٍ لم تعهده مملكتنا العظيمة، ولا سائر الممالك حولنا.

ثم التفت إلى جنده وحرسه، وهتف فيهم:

- اقتلوهم! اقتلوهم جميعًا، ولا تذروا منهم أحدًا؛ فهؤلاء لا عهد لهم.

أحاط الجند بـ (خرافة) ورفاقه، والذين استلّوا أسلحتهم، ولمعت عينا (ضرغام)، قبل أن يقول مستمتعًا:

- أخيرًا! كاد النعاس يهلكني؛ من فرط الملل من جراء ذلك الجدال العقيم.

وزأر فيهم زئيرًا تجمّدت منه القلوب! شاهرٌ منجله، ويقول:

- تُرى... أيّ رأسٍ سأنتزعها أوّلًا؟!

تردّد الجند قبل أن يهتف (داهي) ناهرًا:

- أهذا هو وفاؤك للعهد أيها الملك؟!

- سبق منّي القول إن لا عهد للمجاذيب أمثالكم.

هَمَّ (خرافة) أن يعميهم بعصاه، لولا أن أمسك (داهي) بها، يحول بينه وبين قتالهم؛ فمهارات معلّمته لن تصلح مع هكذا عددٍ من الجند، ثم هتف بـ (وتيرة) أن تتكفّل بهم.

وبلا تردّدٍ تلت الفتاة تعويذةً، لتغطّي سحابةٌ موضعَ الجند، فعجزوا عن الاهتداء إلى طرق الثوّار، والذين فرّوا بدورهم من الموضع.

ولم يتمكّن من اللحاق بهم، سوى قليلٍ منهم، قبل أن يهاجمهم (ضرغام) و(داهي) وبعض المقاتلين، ليُسقطوهم صرعى، ثم تابعوا الركض نحو قرية (دارناج).

***

وداخل القصر الملكي... وبمجرّد أن جلس الملك على عرشه... حتى قال لحاشيته، وثورة غضبه لم تخمد بعد:

- سنستعين بـ (المنتفعة)؛ للخلاص من هؤلاء الفوضويّين.

هَمَّ (رئيس المكلّفين) بالاحتجاج، لولا أن قاطعه متجهّمًا:

- لا يعنيني ما سيُقال عنّي! إن ما أصبو إليه هو الخلاص من هؤلاء المجرمين، كما قد وردني من عيننا بقرية (دارناج) أن السرّ في عدم وجود قتلى وجرحى من جيشهم، يكمن في قائدهم، وهو الناجي الثالث، لذلك فلديَّ خطّةٌ حياله.

ثم قال في نفسه: "وسأستعين بالجنّ، فإنهم بحاجةٍ لوجودي تمامًا كحاجتي لحمايتهم".

وفي تلك الأثناء... داخل قرية (دارناج)... حيث سأل (خرافة) (داهي) قائلًا:

- والآن... ما العمل؟

- لم يدع لنا الملك (أسدان) أيّ خيارٍ آخر سوى الحرب، فلا أمل يُرجى منه.

- إذًا... متى سنخوضها ضدّهم؟

- لن يطول الأمر، لا بدّ من مباغتتهم، قبل أن يتأهّبوا لنا.

وأردف قائلًا في حسرةٍ:

- لشدما تطلعت إلى أن يعود الملك (أسدان) إلى صوابه، إلّا أن شهوة السلطة قد أفقدته رجاحة العقل.

قال (خرافة) متسائلًا:

- سبق أن التقيت بالملك (أسدان) مرّتين، في الأولى بدا ودودًا، وفي الثانية ظهر ساخطًا غاضبًا! أنى للمرء من تبدل مزاجه إلى هذا الحدّ؟!

أجابه (داهي) قائلًا:

- إن الملك الظالم الجائر إن وجد رعيّةً تمدحه على كل ما صنع، وتهاجم مَن يعارضه، وتتغاضى عن سقطاته وجرائمه، رَضِيَ عن تلك الرعيّة، أمّا إن طالبت بحقوقها، وأبدت رأيها في سياسة الملك، فلن ترى إلّا العقاب.

- لكن... بأيّ حقٍّ يعاقبها؟!

- لأن بيده السلطة والقوّة، لذلك يتصوّر الراعي أن من حقّه فعل ما يشاء بالرعيّة، فإن تمجيدها له وتعظيمه والتغاضي عن تقصيره يزيده ظلمًا، أمّا إن عارضته أو أبدت رأيها فقط في سياسته، فلن تجد منه إلّا الحبس أو القتل.

ثم أردف قائلًا:

- سأضرب لك مثلًا... تخيّلْ معي لو أن الدوابّ منعت صاحبها من حلبها أو ركوبها، وغير ذلك ممّا يحق له فعله بها، أتتصوّره يظلّ ودودًا كريمًا معها؟ أم سينقلب عليها؟!

ردّ (خرافة) منزعجًا:

- ألا ترى معي أنه من الإجحاف تشبيه الرعيّة بالدوابّ؟!

- من البديهيّ أن أوافقك الرأي، غير أنني ما انتقيت هذا المثال إلّا لأن هكذا يرى الجائر رعيّته! فهو ينتفع منهم، ويتفضّل عليهم بالقليل؛ كي يتقوّوا، ثم يستأنفوا عملهم في حصد المزيد من الثروات لصالحه.

سأله الفتى:

- إذًا... متى يصبح الراعي جائرًا؟

- حينما تمتلكه شهوة السلطة! فإنها إن تمكّنت منه، لظلم وتجبّر، وكذلك كما ذكرت مسبقًا فيما يتعلق بتمجيده وتعظيمه والتغاضي عن أخطائه وتخوين معارضيه، فلا أحد أمهر من رعيّةٍ منافقةٍ في صناعة ملكٍ ظالمٍ!

***

أمام بوابة حجرة (عظيم الأئمة) داخل المعبد الأكبر لدى العاصمة الملكية... إذ وقف الإمام (ابن مهاب) مكبّل اليدين والقدمين، ومحاطًا بثلاثةٍ من الحرس، بينما شرع أحدهم بطرق الباب، ولبث برهةً من الزمن، حتى أتاه صوت عظيم الأئمة، يسمح لهم بالدخول، وما إن ولجوا، حتى نهض من مكتبه قائلًا بنبرةٍ مرحّبةٍ لا تخلو من التهكّم:

- (ابن مهاب)... ما فعلوا بك يا صديقي العزيز؟!

أجابه بالنبرة التهكّمية ذاتها:

- بوسعك سؤال مَن أمرهم! يا صاحب الأمر!

- إنما أمرتهم وفقًا لوشايةٍ ضدّك، وإني واثقٌ أنها باطلةٌ، فليس من المعقول أن تخون ملكنا المبجّل.

- هل من بيّنةٍ على هذا الادعاء؟!

لم يجبه، وإنما ابتسم بودٍّ، قبل أن يأمر أحد الحرس:

- أحضر الشاهد إلى هنا فورًا.

- شاهد؟ لا أخالنا في دار القضاء.

- ولماذا نرهق (المكلّف بالعدل)، وقد تمّ صدور الحكم مسبقًا، وليس عليه إلّا التصديق على الحكم فقط.

- إذًا... فقد تحوّل القضاة إلى أداةٍ للبصم، لعلّي أطلت المكوث داخل صومعتي.

مجرة التاج الثالث

قالها (ابن مهاب) ساخرًا، ولم يعلّق (عظيم الأئمة)، بل ظلّت ابتسامته الودودة تكسو وجهه، حتى سمعا صوت طرقٍ بالباب، ليأذن له بالدخول، فيبرز شابٌّ حسن الثياب والمظهر، وتابع سيره حتى أضحى بمحاذاة الإمام (ابن مهاب)، والذي لم يتعرّف عليه في بداية الأمر، قبل أن يُفاجَأ بهويّته.

وهنا... اتّضحت له الصورة، ليقول بنبرته التهكّمية:

- المحتذي (جامح)! ما أحسن ثيابك! أهذا ثمن وشايتك بي؟!

أطرق الفتى رأسه حرجًا، في حين قال عظيم الأئمة بمرحٍ:

- بل هو الآن إمامٌ من الأئمة.

- أجل! أن تغدو إمامًا بهذه السنّ المبكّرة، هو أمرٌ يستحقّ خيانة العهد.

تمنّى الفتى لو أن تنشقّ الأرض وتبتلعه؛ من شدّة الحرج، ليسأله (عظيم الأئمة):

- أتشهد أن كل ما زوّدتنا به من خيانة (ابن مهاب)، وضلوعه في معاونة الفوضويّين للثورة ضدّ مليكنا المبجّل هو حقيقيٌّ؟

عجز الفتى عن الإجابة، وظلّ مطرق الرأس، ليستحثّه (عظيم الأئمة) قائلًا:

- بوسعك فقط الإشارة برأسك إيجابًا.

وبعد برهةٍ من التردّد... قال الإمام (ابن مهاب) وقد اعتراه الضجر:

- أرى ألّا نزعج إمامنا الشابّ! وأن أقرّ بصحّة ما أدلى به من أقوالٍ، بل وأتشرّف بها!

- إذًا... فأنت تقرّ بجريمتك؟

قالها (عظيم الأئمة) بلهجةٍ منتصرةٍ، ليردّ (ابن مهاب) قائلًا:

- بل هو نضالٌ في سبيل تحرير الرعيّة من الطاغية، ومن عبيده المنتفعين.

ثم قال موجّهًا حديثه ناحية (جامح)، وقد سعى إلى أن يبدو ساخرًا، إلّا أن نبرته اعترتها خيبة الرجاء:

- لسوء حظي... لن أتشرّف بحضور حفل تنصيبك لقب (عظيم الأئمة) مستقبلًا؛ نظرًا لكوني ألتزم بموعدٍ مع الموت! لكن لا ضير في أن أكون أول المباركين لك، فقد خطوت أولى خطواتك نحو ذلك المنصب، تمامًا كما صنع سيدك مع إمامه، ولا تقلق، فإنه لا يتطلّب مهاراتٍ معقّدةً، تكفيك فقط مهارة لعق النعال! ما هي إلا سنوات حتى تغدو عظيمًا للأئمة، ويعلو رأسك تاجٌ، أقلّ درّةٍ فيه هي كفيلةٌ بإشباع قريتك عامًا بأسره!

ثم مدّ يده، وأمسك بذراع أحد الحرس، قائلًا:

- قدني إلى الزنزانة! فلا مكان أبغض عندي ولا أحقر من هذه الحجرة.

التفت الحارس إلى (عظيم الأئمة)، يطلب الإذن، ليقول موجّهًا حديثه إلى (ابن مهاب):

- ألن تسمع الحكم؟

- لا حاجة لي بسماعه.

أشار عظيم الأئمة إلى الحارس، كي يصحبه إلى زنزانته، وما إن غادرا، حتى قال بنبرةٍ رقيقةٍ موجّهًا حديثه ناحية (جامح):

- لا عليك به! إنه يغار منك، تمامًا كما كان يغار منّي.

ثم وجّه دفّة حديثه إلى كاتبه قائلًا بصوتٍ مرتفعٍ؛ يريده أن يصل إلى مسامع الإمام (ابن مهاب):

- اكتب أسفل خانة الحكم: لذلك... ولضلوع الخائن (ابن مهاب) في إمداد الفوضويّين بالمال، ونشر أخبارٍ كاذبةٍ، أفضت إلى شيوع البلبلة بين رعايا

مملكتنا العظيمة، فقد حكمنا عليه بالإعدام صلباً؛ نتيجة خيانته لملكنا المبجّل ومملكتنا العظيمة.

***

داخل دار الناجي... التي باتت مبعثرة الأغراض؛ جراء إهمال (إلنا) مجدّدًا لها، إذ قال (جارف) بنبرةٍ شابها الأسى بعد أن حكى له كلٌّ من (هادن) و(خرافة) نبذةً عمّا جرى من لقاء الملك (أسدان):

- لسوء الحظ... لم يتسنَ لي مشاركتكما المعركة ضد المكلف (نصال)، وكذلك الحال مع اجتماعكم بالملك، لكم أحسدكما!

ليردّ (هادن) قائلًا:

- ليتك رأيت ردّ فعل الجيش والمكلّف (نصال)، حينما وقعت أعينهم على الجرحى جميعهم وهم يعاودون القتال، وكأن لم تعتريهم أي إصابة.

فانفجروا جميعهم ضاحكين، ليقول (خرافة):

- ولا نغفل ردّ فعل الملك حينما أحرجه (داهي)!

قال (هادن) مقلّدًا صوت الملك:

- اقتلوهم، لا تذروا منهم أحدًا!

ومجدّدًا... انفجروا ضاحكين، قبل أن يبدي (جارف) رغبته في مشاركتهم المعركة القادمة ضدّ جيش المملكة، كاد (خرافة) أن يطلعه بأمرها، لولا تذكّره تحذير (داهي) له، بألّا يكشف لأحدٍ أمرها، وألّا يعلم أحدٌ بالتجهيز لها؛ فحتى هذه اللحظة، لم يتمّ نزع اللثام عن هويّة الجاسوس الذي يعمل لصالح المملكة.

سأله (جارف) إن كان قد أحاط بعلم موعد قتال المملكة، غير أن الفتى لم يصدقه الحديث، ليستنكر (هادن) ما زعمه، بألّا علم له عن موعد الحرب؛ وذلك لإدراكه يقينًا أن ذلك الرجل لا يثقّ إلّا بعددٍ قليلٍ من القوم، ومن بينهم (خرافة) ذاته، لذلك فمن غير المعقول أن يُخفي عنه موعد الزحف إلى المملكة، ليعتري التردّد الفتى... أيفشي لهما السرّ؟ لكن... لماذا يشكّ بهما؟ إنهما صديقاه، وإن لم يثق بهما، فبمَن يثق على هذه الأرض السابعة؟!

طفقا يلحّان عليه أن يطلعهما عن خبر المعركة القادمة، حتى استسلم لإلحاحهما، وقال بصوتٍ منخفضٍ بعد تردّدٍ:

- أتكتمان عنّي السرّ؟

أشارا برأسيهما إيجابًا، ليقول لهما هامسًا:

- أنبأني (داهي) باستعداد جيشنا للقتال القادم، والذي قد يشنّ خلال يومٍ أو يومين، صوب العاصمة الملكية.

صمتا لوهلةٍ من وقع الخبر عليهما، قبل أن يبدي (جارف) رغبته بالمشاركة في هذه المعركة الحاسمة، لكن ما الذي يحول بينه وبين ذلك؟ هكذا سألاه صديقاه، ليُجيب بحسرةٍ:

- زوجتي! هي التي منعتني من المشاركة في المعركة السابقة، وكذلك الاجتماع بالملك، فقد كنت أودّ أن أسأله عن (نهار) وعن أخي (عارف)، ويكفيني توبيخ (إلنا) لي، واتّهامي بالجبن؛ لكوني لم أصحبكما؛ لمعرفة مصيرهما.

اعترى (خرافة) و(هادن) الحرج؛ فقد غفلا أمر سؤال الملك عنهما، وإن اعتراهما بعضٌ من الامتنان! لعدم نيلهما نصيبهما من توبيخ (إلنا).

ثم اقترح (هادن) أن يسعوا جميعهم في إقناع زوجة (جارف) بالسماح له بالمشاركة في الحرب، وبلا تردّدٍ، وافق (جارف)، بل وحثّهم على المضي فورًا إلى داره؛ لمقابلتها.

فغادروا جميعهم الدار، عاقدين العزم على إقناعها بالسماح لـ (جارف) بمشاركتهما المعركة.

***

تهلّلت أسارير الملك بمجرّد أن بلغه نبأ موافقة (المنتفعة) على عرضه، وأدرك أن فكرة القضاء على الفوضويّين أضحت أكثر واقعيةً، إضافةً إلى ذلك، فإن الجنّ رضوا بمنحه المساعدة؛ نظير مزايا تمنحها لهم المملكة، لكن لم يعد ذلك مهمًّا؛ فسيعوّض ما أنفقه ضدّ الفوضويّين، حالما تخلو قرية (دارناج) من الديار ومن ساكنيها، وتغدو أرضًا يزرع فيها المزيد من فاكهة (النارجسيل)، إضافةً إلى فرض المزيد من الضرائب.

وجّه سؤاله نحو (المكلّف بالصحة):

- وماذا عن المكلّف (نصال)؟ أتحسّنت حاله؟

- إنه تحت إشراف المطبّب العظيم (أليندي)، ولحسن حظه، فإن الإصابة لم تصبه في مقتلٍ! غير أن هذا لا يمنع من الخلود للراحة؛ كي لا يعاوده النزيف مجدداً.

بدا الارتياح يحتل قسمات وجه الملك، قبل أن يسأله (رئيس المكلّفين):

- مولاي الملك (أسدان)... أرأيت إن داهمناهم قبل أن يداهمونا؟ ألن تكون لنا أفضليّة المباغتة؟

- بل أرى أن نتريّث؛ كي يهاجمونا بمعنوياتٍ مرتفعةٍ، ثم نحطّمها حالما تقع أعينهم على الجيش الذي سيجابهونه!

- نِعْمَ الرأي يا مولاي الملك، بفضل تدابيرك الحكيمة، سنبيد هذه الفوضى قريبًا.

***

لم يبدُ على زوجة (جارف) أيّ ترحابٍ بطلب كلٍّ من (هادن) و(خرافة) على مشاركة زوجها معهما الحرب القادمة، ليقول لها (هادن):

- لماذا لا تدعين له حرية الاختيار؟ فهو لشد ما يتوق إلى مشاركتنا الحرب!

- إني لواثقة من كوني سأفقده حالما يشارك في المعركة! ألا ترون ما حلّ بأخيه وصديقه؟!

- قد تمّ أسرهما بعد أن مثلا أمام الملك، وقالا ما لا يرضى من قولٍ.

- لا يعنيني ذلك، هل رأيتما حال زوجتيهما؟! ولا أودّ أن أنتهي إلى تلك الحال ذاتها!

- ولمَ أنتِ واثقةٌ أنكِ ستفقدينه؟! قد شاركتُ في معركتين، ولم أُصَبْ سوى بإصابةٍ طفيفةٍ.

- إنه حظي العاثر! هو ما يُخيفني! كما أنك أشدّ بأسًا من زوجي.

قال (جارف) محرجًا:

- على الأقلّ... اكذبي بشأني! ولا تجعليني أبدو ضعيفًا هكذا!

- هذا خيرٌ من أن أخدعك، فتشارك في المعركة، وتُقتل!

هنا قال (خرافة) موجّهًا دفّة حديثه ناحيتها:

- ألا تمنحين الرجل فرصةً؟! فيقنعك برغبته في المشاركة معنا.

- فليقلْ إنني مصغيةٌ له.

هنا قال لها (جارف):

- لسنواتٍ وأنا أدعم الملك والمملكة، وسعيت لإقناع كل متشكّكٍ من القوم، أنه يعمل لصالحنا، وأن حاشيته هي من ساهمت في إفساد البلاد؛ نظرًا لانشغالها بمصالحها الخاصة، حتى ثبت لي خلاف ما تصوّرت، لذلك أودّ أن أعوّض ما تسبّبته من ضررٍ للمملكة، جراء سكوتي ودفاعي عن الظالم.

وأردف قائلًا بمرارةٍ:

- كما أودّ أن أعرف مصير أخي (عارف) وصديقي (نهار)، فمنذ أن ألقى الملك القبض علينا، ولم أرهما، ولم يردني عنهما أيّ خبرٍ!

بدا التردّد جليًّا على زوجته، والتي ينتابها شعورٌ بأنها ستفقده حالما يشارك في المعركة، ليستحثّها كلٌّ من (هادن) و(خرافة)، قبل أن تقول:

- أتعدانني أنكما ستحميانه، وأنه لن يتعرّض لأذى؟؟

وعداها الاثنان أن لن يمسّه سوءٌ، إلّا أن وعدهما لها لم يزدها إلّا قلقاً!

لكن... لم تكن بيدها حيلةٌ! فقد كانت وحدها في مواجهة ثلاثة متحمّسين!

***

الفصل الثاني و العشرون:

نفير الحرب

هَبَّ نسيمٌ شابه التوتّر... حمل بين طيّاته نفير الحرب، تراقص مع إيقاع قرع طبولٍ، تزامنت مع ضرب الأرض بأقدام الجيش الزاحف صوب المملكة، كزحف سواد الليل، ليغطّي سماءً انتهت بشمسٍ اكتست بياضًا خافتًا، مودّعة ليومٍ يحمل بين جنباته مصيرَ مملكة (بارانية).

يتقدّم الجيش كلٌّ من (داهي) و(ضرغام) و(ذهيل) و(خرافة)، ولم يطل بهم الزحف طويلًا، إذ لاحت أمامهم في الأفق العاصمةُ الملكية، وإن كانت محصّنةً مصفّدة الأبواب، ليأمر (داهي) الجند بنصب الخيام؛ استعدادًا لحصار العاصمة، وتمّ نصب خيمة (خرافة) بعيدًا عنها، وانضمّ إليه (جارف)؛ ليمدّ له يد العون إن لزم الأمر.

وبينما انهمك (داهي) بالجدال مع كلٍّ من (ذهيل) و(ضرغام)، إذ انفتح أحد أبواب العاصمة، فتبعه صمتٌ وسكونٌ.

وما هي إلّا لحظات... حتى هتف جيش الثورة متحمّسًا منتشيًا بنصرٍ في متناول اليد، واندفع الجيش نحو البوابة متجاهلًا أوامر (داهي) بالمكوث في مواضعهم، بل بدا وكأن صوته تبدّد وسط هتافهم وحماسهم.

وبمجرّد أن تخطّت أقدامهم بوابة العاصمة، إذ برز لهم جمعٌ من الغيلان و(المنتفعة)، فغمر الهلع قلوب الثوّار، ليفقدوا توازنهم ويتساقطوا، ليغدوا أهدافًا سهلةً للعدوّ.

فتمّ سحقهم بهراوات الغيلان، وطفق (المنتفعة) ينحرون كل مَن يعترض طريقهم، حريصين على القتل لا الجرح! وفقًا لأوامر الملك.

في حين هرع مَن تبقّى من الثوّار متّجهين ناحية الخيام، ليهتف بهم (ضرغام) ساخطًا؛ ينهرهم على تجاهلهم أوامر قائدهم (داهي)، والذي ربت على كتفه قائلًا بنبرةٍ حازمةٍ:

- لن يفيد اللوم الآن!

ثم التفت إلى (وتيرة)، وأمرها بمنع جيش العدوّ من اللحاق بالثوّار، لتردّ بنبرةٍ صارمةٍ:

- لا يسعني حصدهم وهم متفرّقون! عليكم بحصرهم في موضعٍ واحدٍ أوّلًا.

وحينئذٍ... التقت عينا كلٍّ من (داهي) و(ضرغام)، وبلا جدالٍ امتطى الأول فرسه، بينما امتطى الثاني قرزاحًا، واندفعا نحو الغيلان و(المنتفعة)، يخترقان صفوف الثوّار، الفارين من جيش العدو، وفي حين هتف (ضرغام) منزعجًا:

- ما الذي تطعمونه قرازيحكم؟! إنها أشدّ بطأً من قرازيحنا!

أجابه (داهي) متهكّمًا:

- أهو اختلاقٌ للأعذار؟!

زأر (ضرغام) قائلًا:

- لأرينّك ما أصنع بهؤلاء الغيلان!

- إن تسنى لك حصد ثلاثة منهم، فسأشهد أنك أشدّ (الغورجان) بأسًا!

هتف (ضرغام) محتجًّا:

- ثلاثة! كنت أقتل ذات هذا العدد في صباي أثناء حصصي التدريبية!

وما إن اقتربا من تجمّعٍ للغيلان، حتى تفرّقا، حيث اتّخذ (داهي) الناحية اليمنى، واتّجه (ضرغام) إلى الناحية المقابلة، وشرعا في محاصرة التجمّع في موضعٍ واحدٍ كالخراف الضالّة.

بينما رمت فرقة الرماة بقيادة (ذهيل) جيش العدو عن بعدٍ، وكذلك فعل السحرة، وظل (داهي) يتفادى (المنتفعة) بفرسه، وكذلك ضربات من هراوة الغيلان، يستعمل قوسه وسهمه، كلما تحين له الفرصة؛ ليُصيب أعين الغيلان.

بينما سَئِمَ (ضرغام) من بطء دابّته، ليثب إلى هراوةٍ عملاقةٍ قد تفاداها مسبقًا، وراح يتعلّق بها صاعدًا، حتى رأس الغول، والتي نزعها بضربتين من منجله، قبل أن ينزل عن جثته المترنحة إلى جمعٍ من (المنتفعة)، فحصد منهم بمنجله من اعترض طريقه، متوجهاً ناحية الغول الثاني لقتله!

ظل (هادن) يراقب هذا كله بعينين جاحظتين، ولوهلةٍ... شعر بالشفقة تجاه العدوّ؛ ممّا صنع به (داهي) ورفاقه، مدركاً حينها أنه كان الأوْلى له أن لبث برفقة (خرافة) داخل خيمته، فهذا أسلم له من أن يظلّ بلا فائدةٍ هنا، قبل أن يسمع (وتيرة) وهي تهتف بـ (داهي) و(ضرغام):

- عودا فورًا! وإلّا هلكتما!

قالتها وقد برزت غيمةٌ فوق الغيلان و(المنتفعة) الذين تمّ حصرهم في موضع واحد، ليهتف بها (ضرغام) محتجًّا، وهو يتفادى هراوةً عملاقةً:

- لم أنل سوى من خمسةٍ من الغيلان فقط!

عادت تهتف متجاهلةً ما تفوّه به:

- سألقي بتعويذتي على الفور!

ولم تكذّب خبرًا! فشرعت تتلو تعويذتها، لتمطرهم الغيمة بمادةٍ سوداء لزجةٍ، في حين هتف (ضرغام) ساخطًا، وهو يشقّ صفوف العدوّ مبتعدًا، وقد غطّاه السائل الأسود:

- الويل لكِ أيتها الأورناسية المتعجرفة!

وبمجرّد أن وثب مبتعدًا عن موضع جيش العدوّ، حتى وقعت عيناه على الغيمة، وقد تحوّلت إلى كتلةٍ ملتهبةٍ من نارٍ، والتي ما إن وقعت على العدوّ، حتى وقع انفجارٌ هائلٌ، فنسفهم نسفًا.

وذلك وسط ذهول الثوّار، وقد تحوّلت أعينهم ناحية (وتيرة)، والتي ترنّحت وهي تقاوم السقوط أرضًا؛ من شدّة الإعياء، وما إن كاد جسدها يسقط، حتى تلقّفها (داهي)، والذي تمكّن من العودة إلى موضع جيش الثوّار، لتقول له بوهنٍ وعيناها تنزفان دمًا من خلف قطعة قماشة سوداء اللون:

- لا أزال ضعيفةً!

قال لها برفقٍ:

- بل... لا تزال الطريق طويلةً، خذي قسطًا من الراحة في خيمة (خرافة).

ثم أمر جيش الثوّار أن تنتظم صفوفهم، وأن يتأهبوا لملاقاة جيش المملكة، إضافةً إلى ملاقاة مَن نجا من الغيلان و(المنتفعة).

***

اعترى (خرافة) القلق داخل خيمته؛ حيث لم يَرِدْ عليه أيّ جريحٍ! ولا يدري إن كان هذا أمراً يبعث الطمأنينة أم القلق، وبينما هو غارقٌ بين طيّات أفكاره، إذ سمع صوتًا لدى مدخل الخيمة، لينهض (جارف)، ويتّجه مسرعًا ناحية المدخل!

وما هي إلّا لحظات... حتى أبصره (خرافة)، وقد طعنه أحدهم، ليسقط أرضًا من أثر الطعنة، ويجد الفتى نفسه في مواجهة ثلاثة رجالٍ ملثّمين، وأدرك حينها أن الأمر غدا أشبه بالمحال في النجاة منهم.

***

اقتحمت أصوات المعركة أذني (نصال) المستلقي على فراشه داخل دار الصحة، لينهض على الفور متّجهًا ناحية باب الحجرة، لتعترض معاونة المطبّب (أليندي) طريقه، فيهتف متجهّمًا:

- ابتعدي يا امرأة! عليَّ أن أحمي المملكة.

هتفت بنبرةٍ قلقةٍ:

- إن جرحك لم يبرأ بعد، والمشاركة في القتال قد تسفر عن وفاتك!

- إذًا... عالجي الجرح بعشبة (دِرحاء).

- لن يتحمّل جسدك أكثر من الحصّة اليومية التي تحصل عليها.

- لا يعنيني ذلك! فإمّا أن أعيش مع المملكة، وإمّا أن أموت في سبيلها، لذلك أريد العشبة.

مجرة الناجي الثالث

أصرّت على رفضها، ليعود ويأمرها بعلاجه بالعشبة تلك، لتأبى وترفض أمره، لينفجر فيها متجهّمًا:

- قلت لكِ... أريدها يا امرأة!

فتجمّدت رعبًا! ولم تجد إلّا أن تنصاع له، وتخلع عنه الجزء العلوي من ثيابه، ثم تناولت من منضدة الأدوات قنّينةً تحتوي على مسحوقٍ أزرق اللون، وشرعت تدهن جرحه بذلك المسحوق، بعينين دامعتين؛ مدركة يقينًا أنها ستتسبّب في قتله.

وما إن انتهت، حتى غادر الحجرة متّجهًا صوب دار حماية المملكة؛ كي يستعيد سيفه وعتاده.

***

استقرّت عينا (خرافة) على صديقه (جارف) المسجي أرضًا من أثر الطعنة، وقد أضناه التفكير حول وسيلةٍ للخلاص من القتلة الثلاثة، حتى واتته خطّةٌ، ليقول لهم بنبرةٍ حاول أن تبدو نبرةً واثقةً:

- أحسنتم صنعًا! والآن... فلننقل الناجي الثالث إلى القصر الملكي وفقًا لأوامر الملك المبجّل!

لوهلةٍ! تأمّلوه متعجبين! قبل أن يسأله الأولُ من القتلة الثلاثة:

- لا أذكر أن الملك (أسدان) أمرنا بأسره! أأنت عين الملك إذًا؟!

كاد أن يُجيبه، قبل أن يقول الثاني منهم:

- كلّا، من المحال أن يكون هو عين الملك.

وتابع الثالث مشيرًا إلى عصا الفتى، وقد برزت شمسٌ بيضاء أعلاها:

- ألقِيا نظرةً إلى عصاه، أليست هذه من عصيّ تلاميذ تلك الخائنة؟! إنه هو الناجي الثالث! فلنقتله.

بمجرد ملاحظته لأعينهم التي استقرّت على العصا، حتى وجّهها نحوهم بسرعةٍ، لتُصْدِرَ ضوءَها، غير أنهم بادروا بغلق أعينهم؛ كي لا يُصيبها الضوء، وانقضّوا عليه، ليسبقهم، ويتوارى عن أنظارهم مستعينًا بقدرة عصاه، فيُحيطوا بأرجاء الخيمة، ويهتف أحدهم:

- إياكما وأن يهرب، لا تسمحا له بالفرار.

أدرك (خرافة) أنه غارقٌ في معضلةٍ، إنه لن يستطيع أن يظلّ متواريًا في الخفاء لفترةٍ طويلةٍ، وهو لا يزال عاجزًا تمامًا عن علاج صديقه، والذي ظل ينزف أمام ناظريه، ناهيك عن مغادرة الخيمة.

ثم لمعت بين ثنايا رأسه فكرةٌ! ماذا لو أصدر صوتًا، لتتّجه الأنظار إليه، وبعدها يبرز لهم، ويباغتهم بالضوء صوب أعينهم.

بدا هو الحلّ الأمثل لهذا المأزق، خاصةً وأنه بالكاد قادرًا على كتم نفسه لمدّةٍ أطول، لذلك اختار موضعًا بجوار الفراش المخصّص للمصابين، ملتقطاً إحدى الأدوات، وحملها، ثم ألقى بها أرضًا، لتصدر صوتًا تحوّلت إليه أعين القتلة الثلاثة، وتزامن ذلك مع ولوج شخصٍ ما الخيمة، وقال بصوتٍ مألوفٍ:

- أيها الإنسيّ الناجي، إنني في حاجةٍ إلى...

لم يكن صاحب الصوت سوى (وتيرة)، وقد فطنت لوجود أعداءٍ بالخيمة، ولم تجد عناءً في الخلاص منهم، إذ هلكوا على الفور بمجرّد أن تلت تعويذةً في الوقت ذاته الذي أطلق فيه (خرافة) ضوءًا عبر عصاه تجاهها! لتقول له محتجّةً:

- ما سبب فعلتك هذه؟!

- المعذرة! فقد أردت إصابة القتلة الثلاثة، غير أنكِ سبقتني!

- إنك أمرؤ بطيء! ولحسن حظكَ أنني حضرت في الوقت المناسب؛ كي تعالج نزيف عيني.

ناشدها أن تمهله بعض الوقت؛ حتى يتسنّى له علاج صديقه، وما إن انتهى من علاج جرح (جارف) وجرحها، حتى قالت لهما، وقد أحسّت بهما وهما يهمّان بمغادرة الخيمة:

- يجدر بكما أن تلبثا بالداخل، وسأتبّئ (داهي) أن يكلّف حرسًا لحمايتكما.

ردّ (خرافة) مستنكرًا:

- بل نودّ المشاركة في القتال، ثم ماذا لو تكرّرت محاولة اغتيالنا مجدّدًا أثناء طريقك إلى الجيش؟

وجدت في قوله وجاهةً، لذلك قالت:

- الأمثل أن تدلي برأيك إلى (داهي)؛ فهو مَن أمر بمكوثك بالخيمة.

ثم اتّجه جميعهم ناحية الجيش، والذي تمكّن من القضاء على معظم جيش المملكة، في حين فرّ منهم مَن فرّ.

ووسط قتلى جيش الثوّار... إذ وقعت عينا (خرافة) على بعض المصابين، ليعالج جراحهم، ولحسن الحظ أنها جراحًا طفيفةً.

في حين التقى (جارف) بصديقه (هادن)، وحكى له ما جرى داخل الخيمة، وبمجرّد أن انتهى (خرافة) من علاج الجرحى، حتى أمر (داهي) كلًّا من (ذهيل) و(وتيرة) بقيادة الرماة والسحرة؛ ليحصدوا مَن فرّ من جند العدوّ،

وكذلك أن يحرصوا على ألّا يلج القصر أحدٌ منهم، في حين اختار عددًا محصورًا من رفاقه؛ كي يلجوا القصر الملكي، ويأسروا الملك (أسدان).

وبينما هم يشقّون طريقهم ناحية القصر... إذ صاح (جارف)، وشرع يبكي بحرقةٍ! حتى ظنّه القوم قد جُنَّ! قبل أن يُشير بيده ناحية حديقة القصر، إذ وجد جمعًا من أهل القرى قد تمّ صلبهم، وكان من بينهم أخوه (عارف) وصديقه (نهار)، ليهرع نحوهما وهو ينادي، ومن البديهيّ ألّا يجد إجابةً؛ فقد فارقا الحياة!

قال (داهي):

- علينا بالإسراع داخل القصر، قبل أن يفرّ الملك.

ردّ (خرافة) محتجًّا:

- ألا تملك ذرّةً من الرحمة؟! لقد فقد أخاه وصديقه.

أشار (داهي) إلى خارج أسوار العاصمة الملكية قائلًا بنبرةٍ حازمةٍ:

- قد مات اليوم إخوةٌ وأصدقاءٌ! وإن استسلمنا للنحيب عليهم، فإن ذلك لن يُعيدهم إلى الحياة، إنها الحرب، ولكل حربٍ ضحاياها.

- إذًا... سألبث هنا معه.

- هذا شأنك.

وبمجرّد أن أنهى (داهي) عبارته، حتى اتّجه إلى داخل القصر، وتبعه مَن بقي من جنده تاركين خلفهم كلًّا من (جارف) و(خرافة) و(هادن).

***

بينما كان (نصال) يشقّ طريقه ناحية دار حماية المملكة... إذ وقعت عيناه على جمعٍ من صبيةٍ ونساءٍ وكهولٍ، وكانوا مدجّجين بالسلاح! وبأيدٍ مرتعدةٍ، وبعيونٍ جاحظةٍ من شدّة الهلع، ليهتف بهم:

- ما لي أراكم تحملون السلاح؟! أقصّرت المملكة في حمايتكم؟!
لم يجد أيّ ردٍّ منهم! لتغمره الحيرة، أأصابهم الصمم؟! أم أنهم لم يتعرّفوا عليه؛ بسبب ردائه الذي لا علاقة له بمنصبه؟ لذلك هتف بنبرةٍ صارمةٍ:
- بصفتي المكلّف بحماية الديار! آمركم بإلقاء أسلحتكم.
مجدّدًا... لم يجد أيّ ردٍّ منهم! لتزداد حيرته، "ما الذي دهاهم؟!"، قالها في نفسه متسائلًا، حتى مال عليه أحد الجند، وهمس قائلًا:
- سيادة المكلف... إنهم مأمورون من قبل معاونكم بأمرٍ من الملك المبجّل شخصيًّا، وعقاب مَن لا يحمل السلاح، هو الموت.
استشاط (نصال) غضبًا، وهتف حانقًا:
- يعرّض الرعيّة للخطر! ويهدّدهم بالقتل إن لم يمتثلوا له! ثم ينسب هذه الجريمة إلى مليكنا المبجّل! الويل له منّي إذًا!
ثمّ أمر الجندي أن ينزع عنهم السلاح، ولو بالقوّة، وأن يحرص على نقلهم إلى موضعٍ آمن؛ فحماية الأرض ومَن عليها تقع على عاتق الجيش، لا على الرعيّة.
ثم اتّخذ طريقه شطر دار حماية المملكة، والغضب يكاد يُصيبه بالجنون، في الوقت ذاته الذي ولج فيه الأمير (سادان) برفقة بعضٍ من حرسه الخاص داخل القصر عبر مدخلٍ سريٍّ، متوارين عن الأنظار، وقد عقد العزم على إثبات أنه الأحقّ بولاية العهد من أخيه، لذلك قاتل بشراسةٍ ضدّ كل مَن تسوّل له نفسه لقتال المملكة.
ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ، حتى التقى بـ (داهي) ورفاقه، ليصيح بهم متجهّمًا:
- ها قد التقينا مجدّدًا! سأثأر للهزيمة الماضية، وأسحقكم.
ردّ (ضرغام) متسائلًا:

- ومتى تحديدًا تواجهنا؟! فإنني لا أذكر أننا قاتلنا صبيًّا تافهًا مثلك!

اشتعل الأمير (سادان) غضبًا، وهتف حانقًا:

- سنرى أيًّا منّا هو الصبيّ التافه!

وانقضّوا عليهم يبغون هزيمتهم، وما هي إلّا لحظات، حتى تمّ سحق معظم حرسه، ليفرّ الأمير "المنتصر دائمًا"، وبصحبته مَن نجا من حرسه يجرون خلفهم عار الهزيمة.

***

عكف معاون (المكلّف بحماية المملكة) في إعداد تقريرٍ داخل مكتبه بدار حماية المملكة، ولم ينتبه لمَن ولج المكتب، حتى لمح شيئًا ما عبر أمامه، لم يتبيّنه، ثم تبعه صوت ارتطامٍ بالجدار! ليلتفت ناحية الصوت، فيجد سيفًا قد اخترق الجدار، ولم يكن في حاجةٍ إلى أن يلتفت، ليعلم أنه (نصال) صاحبه، والذي قال متجهّمًا:

- مَن سمح لك بتعريض رعايا المملكة للقتل؟!

التفت إليه المعاون قائلًا بنبرةٍ قد فشل في أن يجعلها تبدو متماسكةً:

- إن خسائرنا في الجند عظيمةٌ، وهم ما بين قتيلٍ أو جريحٍ، وهنالك مَن فرّ، والأدهى من ذلك مَن انضم إلى العدوّ ضدّنا!

- وتجده داعيًا لتعريض الرعيّة للقتل؟!

قالها وهو ينزع سيفه الذي اخترق الجدار، ليهتف المعاون بهلعٍ:

- كلّا! لم يكن ذلك أمرًا منّي، وإنما هو أمرٌ من مولانا الملك المبجّل.

- وهل تزويد ابنه (سادان) المخلوع من ولاية العهد بمائةٍ من الجند، كان بأمرٍ منه أيضًا؟! أم هي مخالفةٌ منك؟ لم تكتفِ بتعريض الرعيّة للقتل، وإنما

تجرّأت على مليكنا المبجّل، ونسبت إليه أمر تجنيدهم، لذلك... فلا خيار عندي سوى قتلك.

قالها ملوّحًا بسيفه، ليهتف المعاون، وهو يكاد يموت من شدّة الخوف:

- صدّقني... إنه أمرٌ من الملك، أمّا تزويد الأمير (أسدان) بالجند، فكان خطأً منّي، ثم كيف تحكم بقتلي دون محاكمةٍ؟!

- بل أنت مَن حكم على نفسه بالقتل، حينما أجبرت نساء وأطفال وشيوخ الرعيّة على المشاركة في القتال، قد سبق أن عفوت عنك لدى محاولتك نسب جريمة الاختلاس لي، غير أنني لن أعفو عمَّن عرّض الرعيّة للقتل.

لم تكن للمعاون فرصةٌ للدفاع عن نفسه، فقد انفصل رأسه عن جسده دون حتى أن ينتبه! ليقول (نصال) بنبرةٍ حازمةٍ:

- اليوم... إمّا أن أطهّر المملكة من الفوضويين، أو أموت دون ذلك.

وما إن قالها، حتى اتّجه ناحية مكتبه؛ كي يرتدي رداء والده (يحيان)، والذي سبق وقُتل في سبيل الملك وكان يرتديه.

***

أمّا داخل حديقة القصر الملكي... وبينما عَمَّ أرجاءها نحيبُ (جارف) على أخيه وصديقه... إذ قال له (هادن) برفقٍ إن عليهم اللحاق بـ (داهي)؛ فلا أمان هنا، والخطر يحيط بهم، وافقه (خرافة) الرأي، لينهض (جارف) بعد أن جفّف دموعه، وقال لهما:

- كلّا! لن ننضمّ إليهم، بل سنتّجه صوب حجرة الملك مباشرةً، قد تذكّرت للتوّ طريقًا مختصرة تؤدّي إليها.

تفاجأ رفيقاه ممّا تفوّه به! ليسألاه عن سبب إحاطته علماً بموضع حجرة الملك، ليُجيبهما:

- حينما فررت من الزنزانة، اخترت طريقًا ما، عبر جدارٍ سريٍّ داخلها، وقد انتهى إلى جناح الملك الشخصيّ، وظللت أتحسّس طريقي، حتى تمكّنت من مغادرة القصر.

تساءل (خرافة) في نفسه: "أيّ حرسٍ هؤلاء الذين أهملوا حراسة القصر؟!"، في حين تحمّس (هادن) للفكرة، فكم هو راغب في أخذ ثأر صديقيه من الملك!

ولم ينتبهوا إلّا في وقتٍ متأخّرٍ بوجود فتى متعلّقٍ بساق جسدٍ مصلوبٍ! سأله (هادن) عن أمره، ليُجيبهم منتحبًا أنه سبب مقتل إمامه، بعدما أخبر عنه (عظيم الأئمة)، وواصل نحيبه.

لم يعيروه اهتمامًا، وانتهت بهم الحال إلى دخولهم القصر وهم متوارون عن الأنظار، ويتحسّسون خطاهم ناحية الزنزانة، وبمجرّد أن ولجوها، حتى جالت عينا (جارف) بحثًا عن الجدار السريّ المؤدّي إلى حجرة الملك.

وبمجرد إن وقعت عيناه عليه، حتى صاح بصديقيه أن يتبعاه، وما إن دنوا من الجدار، حتى تذكّر (جارف) وجود رافعةٍ سريّةٍ خارج الزنزانة، وتمكّنوا بواسطتها من رفع الجدار، لتبرز من خلفه فجوةٌ تبدأ بسلّمٍ يؤدّي _حسب مزاعم (جارف)_ إلى جناح الملك، وما إن دنو من الفجوة، حتى سمعوا خلفهم صوتًا يقول لهم بنبرةٍ صارمةٍ:

- أتتصوّرون أن نمدّكم بفرصة قتل الملك المبجّل بهذه البساطة؟!

التفتوا إلى مصدر الصوت، ليتّضح لهم أنه من الحرس الملكي، ليُتابع قائدهم:

- استعمِلوا الرافعة في غلق الفجوة فورًا! وليلحقني البقيّة منكم؛ لمنعهم من ولوجها.

كان (هادن) أسرعهم استيعابًا للموقف، ليهرع نحو باب الزنزانة، فيغلقه، وعجز عن العثور على المفتاح، ممّا اضطرّه إلى الاستناد على الباب بجسده؛ كي يحول بينهم وبين ولوج الزنزانة، وهو بالكاد قادرٌ على منع الحرس من اقتحامه.

ثم شعر (هادن) بمَن يضرب بطرف سيفه قطعَ الحديد الموجودة بفجوة الباب العليا، هاتفاً برفيقيه:

- ما الذي تنتظرانه؟! اعبرا فورًا قبل أن يُغلق الجدار!

تردّدا قليلًا، قبل أن يهتف بهما:

- سألحق بكما حالما تعبرانها، فلا تجزعا.

هرعا إلى عبور الفجوة، قبل أن يغلق الجدار، ليهتف به (خرافة) بأن يعجّل؛ حيث إن الجدار يوشك أن ينغلق.

ومع شدّة ضرب قطع الحديد بفجوة الباب، انخلعت إحداها، ووقعت أسفل (هادن)، والذي تمكّن من جذبها بأطراف أصابع قدمه، ثم قام بحشرها أسفل الباب؛ كي تحول بينهم وبين فتح الباب متعجّبًا من حماقة الحرس الذين عاونوه على ذلك!

وما إن تمكّن من إحكام إغلاق الباب، حتى تحوّل ناحية الجدار؛ كي يلحق برفيقيه، دون أن يلاحظ الذراع التي برزت عبر فجوة الباب، وخنقته من رقبته؛ كي تمنعه من اللحاق بـ (جارف) و(خرافة) اللذيْن عبرا الفجوة دون أن يلاحظاه، فأدرك حينها سبب خلع الحرس لقطعة الحديد تلك!

حاول تنبيههما، وما حال بينه وبين ذلك هو خنق رقبته، فخرج صوته متحشرجًا، حتى انغلق الجدار أمامه، ليدرك كلٌّ من (خرافة) و(جارف) أن (هادن) عجز عن اللحاق بهما، سعيا إلى العثور على رافعة ترفع الجدار، ولكن دون جدوى.

وفي الوقت ذاته... تمكّن (هادن) من التخلّص من قبضة الحارس، لكن بعد فوات الأوان! فقد سمع قائد الحرس يقول:

- فليصعدْ جمعٌ منكم! ليسبق الجرذين المتّجهين إلى جناح الملك المبجّل، وسأحرص أنا ومَن معي على تحطيم هذا الباب، وقتل الجرذ الحبيس داخله.

أطاعه جمعٌ من الحرس، لينطلقوا متّجهين نحو حجرة الملك، في حين طفق قائد الحرس ومَن ظلّ معه يضربون باب الزنزانة بكل قوّةٍ، بينما اتّجه (هادن) نحو الجدار، ليسمع صديقيه وهما يناديانه، فيقول لهما محذّرًا:

- انطلقا نحو حجرة الملك؛ للاقتصاص منه! فإن بعض الجند متّجهون إلى هنالك؛ كي يسبقوكما.

هَمَّ (جارف) أن يتفوّه بأمرٍ ما، قبل أن يُقاطعه (خرافة) قائلًا وهو يربت على كتفه:

- لا تشغلْ بالك! إنه (هادن) ولن يُصيبه مكروهٌ، كما أن مكوثنا هنا لن يغيّر شيئًا، لذلك فإن علينا أن نسبق الحرس إلى حجرة الملك.

وافقه (جارف)، وقبل أن يتّجها نحو حجرة الملك، هتف موجّهًا حديثه إلى (هادن) من خلف الجدار:

- لا تسمحْ لهم بقتلك!

قالها... ثم لحق بـ (خرافة)، وقلبه يضيق؛ بسبب هاجسٍ داخله ينبّئه بأنه لن يلتقي به مجدّدًا! ولا يدري حينها كم كان محقًّا!

***

شقّ (داهي) ورفاقه طريقهم نحو قاعة الحكم ساحقين كل مَن يعترض طريقهم، حتى انتهى بهم المطاف إلى الباب المؤدّي إلى قاعة الحكم، ووقعت أعينهم بالجوار على عددٍ من الجند وهم يغادرون دار أمانة المملكة حاملين بعض الأموال، ليهتف (داهي) برفاقه:

- هؤلاء الخونة! ما هم إلا حفنةٌ من اللصوص يسرقون مال المملكة!

ردّ أحد القرويّين متعجّبًا:

- وما لنا نحن وأموال الملك؟!

- إنها ملكٌ للرعيّة! أيّ هي ملكٌ لكم، وهي أمانةٌ عنده؛ لينفقها على الصالح العام.

قال (ضرغام) متحمّسًا:

- فلنحصدْ بعضًا من الرؤوس إذًا.

وانقضّوا على الحرس الخونة؛ ليقتلوهم وليعيدوا المال إلى دار أمانة المملكة.

وفي تلك الأثناء... برز (نصال) وقد وقعت عليهم عيناه، وأموال المملكة بأيديهم، ليهتف متجهّمًا:

- إذًا... فلستم إلّا لصوص! ولا غاية لكم سوى هدم المملكة، وسرقة خيراتها.

واستلّ سيفه متحفّزًا لقتالهم، ليقول (داهي) مشيرًا إلى الجند القتلى:

- إنما كنّا نعيد ما سرقه جند المملكة!

لم يكن لوقع كلامه أيّ صدى لدى المكلّف (نصال)، والذي أصرّ على أنهم حفنةٌ من اللصوص، ليصمت (داهي) لوهلةٍ، قبل أن يقول موجّهًا حديثه إلى رفاقه:

- اتّجهوا نحو قاعة الحكم، ودعوا المكلّف (نصال) لي.

احتجّ (ضرغام) قائلًا:

- بل أنا مَن سيتكفّل به! وإن القوم بحاجةٍ إلى قيادتك، كما أنه يدين لي بديْنٍ واجب الردّ.

قال له (داهي) محذّرًا:

- إياك والتهوّر!

ردّ (ضرغام) بصرامةٍ، مستلاً منجله:

- وفِّرْ نصائحك لنفسك أيها الأورناسيّ!

أشار (داهي) لرفاقه بأن يتبعوه إلى قاعة الحكم، بينما سعى (نصال) إلى اللحاق بهم، لولا أن اعترض (ضرغام) طريقه قائلًا بنبرةٍ متهكّمةٍ:

- لا تتجاهَلْني هكذا! فإن ذلك يجرح شعوري!

لبثا ساكنين لدى موضعهما، حيث تلاقت عيناهما لوهلة من الزمن، الغضب والتجهم يحومان أرجاء القاعة، واحد يسعى للثأر من جراء هزيمة النزال السابق، وآخرٌ ينشد نجاة مليكه، وإن لمح ارتجافةً بيد شبيه الأسد الممسكة بمنجلٍ ينعكس على نصله ضوء انبثق من نيران طيور (الدُهاة) مختلفة الألوان المنتشرة أرجاء القاعة، وما هي إلا لحظات حتى انقضّ (ضرغام) على خصمه بمنجله، يزأر متأهّب للقتال، فيتفادى (نصال) الضربة بسيفه، ويعاجله بضربته التي تكاد لا تُرى ليفاجأ بأن شبيه الأسد قد صدها مطلقاً زئيراً أدنى إلى

مجرة التاجي الثالث

صيحة نصر، ويلتحما في صراعٍ عنيفٍ طال بهما، وإن لاحظ (ضرغام) أن قدما خصمه لا تطآن زخرفة فضية اللون واقعة بمنتصف أرضية القاعة، لذلك قرر أن يحاكي صنيعه وألا يطأ هذه الزخرفة، لعله فخ نصب له.

وبينما هما منهمكان في نزالٍ متكافئ، إذ اقتحم أذني (نصال) صوت الأمير (سادان) منبعث من إحدى حجرات القصر، يصيح جزعًا طالبًا مَن ينجده.

اعترى (نصال) التردّد، قبل أن ينقضّ عليه (ضرغام) بمنجله، وهو يقول متجهّمًا:

- لا تفقِدْ تركيزك! وإلّا كان انتصاري عليك بلا مذاقٍ!

لم يجد (نصال) إلّا أن يتخلّص منه، لذلك تظاهر بالهجوم عليه، ليهاجمه (ضرغام) بمنجله، فيتفاداه لينتهي بشبيه الأسد بالوقوف على الزخرفة الواقعة بمنتصف القاعة، فيولج (نصال) سيفه على فجوة بطرف الزخرفة، ويديره، قبل أن يتراجع إلى الخلف، فتنفرج فرجةٌ من الأرضية، وكادت أن تبتلع (ضرغام)، لولا أن تعلّق بحوافّ الأرضية، يسعى جاهدًا؛ كي لا يقع، قبل أن يلاحظ (نصال)، والذي هوى بسيفه؛ كي يقطع ذراعه، فيفلت شبيه الأسد الأرضية كي يمنعه من ضرب ذراعه بسيفه، وهو يهتف حانقًا:

- سأعود إليك مجدّدًا أيها الجبان الرعديد!

قالها وهو يهوي إلى القاع!

***

الفصل الثالث و العشرون:

الجاسوس

واصل كلٌّ من (خرافة) و(جارف) صعود الدرج داخل نفقٍ مظلمٍ، بالكاد يسع المرء رؤية يده من فرط ظلمة النفق، معتمدان على ضوء منبعث من شمس تعلو عصا الفتى.

ظلّا يواصلان صعودهما لبرهةٍ من الزمن... حتى اقتحم أذنيهما صوت خطواتٍ خفيفةٍ وواثقةٍ صادرةٍ أعلاهما، فاعتراهما القلق، وتساءلا عن صاحب هذه الخطوات.

كانا متحفّزين لأيّ قتالٍ، بينما وقع صوت الخطوات يزداد دنوًّا منهما، ليلمحا شخصًا من بين براثن الظلام مرتديًا زيّ الحرس الملكي.

تحسّس كلٌّ منهما سلاحه، واستعدّا للمعركة القادمة، وكاد (جارف) أن ينقضّ بسيفه على الشخص المتقدّم نحوهما، حتى صاح بارتياحٍ:

- مهلًا! إنها (إلنا)! لكن... لِمَ أنتِ هنا؟! وما الداعي لارتداء زيّ الحرس الملكي؟

لم ترد! وإنما واصلت سيرها نحوه، وما إن غدت قاب قوسين منه، إلّا واستلّت خنجرًا، وطعنته في قلبه، ليصدر منه صوت حشرجةٍ! قبل أن يسقط صريعًا!

فيهرع (خرافة) بجزعٍ ينزع الخنجر المستقرّ في قلب (جارف)، ثم يمرّر العصا موضع الطعنة؛ ليلتأم الجرح، لكن بدا له أنه قد فارق الحياة بالفعل! فهتف في (إلنا) متجهماً:

- ماذا دهاكِ؟! إنه (جارف)! لماذا طعنته؟!

ردّت عليه ببرودٍ شابه بعض الأسى، وهي عاكفةٌ على تفتيش جيوب جثة (جارف) المسجيّة على الأرض:

- إنه جاسوسٌ من قِبَل الملك! وقد أمره بإحضارك له؛ كي يتخلّص منك!

***

داخل قاعة الحكم... وبعدما تمكّن (داهي) ورفاقه من التخلّص من آخر جنديٍّ اعترض طريقهم في الوصول إلى الملك، والذي ظلَّ يرتعد خوفًا وهو يبصرهم يدنون منه، وسط عددٍ من الجنود المتساقطين، حتى هتف (داهي) بصرامةٍ:

- ها قد وقعت أخيرًا تحت أيدينا أيها الملك (أسدان)!

أطلق الملك صيحة فزعٍ، وبمجرّد أن دنا منه (داهي)، حتى قال مستنكرًا:

- كلّا! إنك لست بالملك (أسدان)!

ثم دنا منه أكثر، وسأله عن موضع الملك، ليناشده أن يعطيه الأمان أوّلًا، وسينبّئه بموضعه، ليمنحه (داهي) الأمان، فيُجيب شبيه الملك:

- إنه الآن داخل حجرته، تحت حراسةٍ مشدّدةٍ، ويتحيّن اللحظة المناسبة للفرار، بعد أن انقلبت الحرب ضدّه.

قال له (داهي) بصرامةٍ:

- سنوثقك بكرسيّ الحكم؛ حتى نتيقّن من صدق أقوالك، وسنعود إليك إن لم تصدقنا القول.

احتجّ شبيه الملك، وذكّره بالأمان الذي منحه إياه، ليُجيبه أنه قد أعطاه الأمان على عدم قتله!

وما إن انتهوا من شدّ وثاقه، حتى غادروا قاعة الحكم، ولم يجدوا أيًّا من (ضرغام) ولا (نصال)، فواصلوا طريقهم نحو حجرة الملك.

وفي الوقت ذاته... هاجم (نصال) جمعًا من جند الثورة، حيث حاصروا الأمير (سادان)، وحارسيه الذين كانا يقاتلان بشراسةٍ، فتوغّل (نصال) بين الثوّار، حتى تسنى له من الوصول إلى الأمير وحارسيه، وعندئذٍ قال مهدّدًا الثوار:

- مَن أراد منكم النجاة، فليعِدْ سيفه في غمده، ويرحل فورًا.

بدا التردّد على الجمع من الثوّار، ليهمس إلى الحارس الواقع بجواره أنها فرصتهم للفرار بصحبة الأمير، ولم يكذّب خبرًا! إذ أشار إلى الأمير بيده "أن اتبعني".

واخترقوا صفوف الثوّار بسرعةٍ لم يفطن لها أيٌّ منهم إلّا متأخّرًا، ليهتف فيهم (نصال) محذّرًا من مغبة الاعتداء على الأمير وحرسه، وما إن أنهى عبارته، حتى اخترق سهمٌ كتفه، ليلتفت إلى مصدر السهم، فيتّضح أنه تمّ رميه من قبل أحد حراس الأمير بأمرٍ من الأمير ذاته! والذي ما إن لمح نظرة الغضب تعتري وجه المكلّف (نصال)، حتى فرّ هاربًا بصحبة حارسيه.

في حين نزع المكلّف السهم عن كتفه، قبل أن يتّضح أنه مسمومٌ! فاعتراه الغضب، لدرجة أن صاح صيحةً أفزعت مَن حوله من الثوّار، ليلقوا أسلحتهم، وشرعوا يفرّون بدورهم هاربين!

عاد (نصال) إلى بوابة قاعة المُلْك مقاومًا الألم، وعبرها، ليجد الجند صرعى، وتقع عيناه على شبيه الملك مربوطًا، ليفكّ وثاقه، ويعلم منه أن (داهي) ورفاقه متّجهون صوب حجرة الملك.

وبمجرد أن غادر القاعة، حتى سمع أحد الجند بجوار دار أمانة المملكة يقول متأوّهًا وبحسرةٍ:

- لا تصدقْ مزاعم الفوضويّين، فلم نكن نسرق، وإنما أمرنا الملك المبجّل أن نملأ عرباته بأمواله، بعدما لاحت تباشير هزيمة جيش المملكة.

سأله (نصال) وهو يقاوم ألم السمّ الذي يتوغّل داخل جسده:

- إذًا... لماذا اتّهمكم الفوضويّون بسرقة أمواله؟!

- لم يمهلونا فرصةً للشرح، وانقضّوا علينا، وبعدها أعادوا المال إلى موضعه السابق.

- يسعون لخراب المملكة ثم يحافظون على أموال الملك؟! أيّ قومٍ هؤلاء؟!

قالها (نصال) مذهولاً، في حين قال الجنديّ، وهو يقاوم سكرات الموت:

- أوصيك يا سيدي المكلّف أن تبلغ أهلينا بأننا لم نكن نطمع في مال الملك، وإنما كنّا ننفّذ أوامره.

- أعدك بذلك، وسيتمّ تكريم موتكم في سبيل المملكة.

بدا عليه الارتياح، وغمغم بحديثٍ لم يتبيّنه، قبل أن يدركه الموت، ليتّجه (نصال) فورًا إلى حجرة الملك، وقد اتّخذ طريقًا مختصرةً، وهو يدرك جيّدًا أن السمّ لن يمهله المزيد من الوقت.

***

تعاقب الضرب على باب الزنزانة، و(هادن) يكاد يقتله التوتّر والجزع؛ فالباب يكاد ينخلع، وحينها لن يحول أحدٌ بينه وبين الموت.

وبينما هو غارقٌ في بحار هواجسه، إذ دوى صوتٌ بالزنزانة المجاورة له، تبعه صوت بابٍ ينخلع! قبل أن يقتحم أذنيه صوتٌ مألوفٌ يقول بنبرةٍ مرحةٍ متهكّمةٍ:

- يبدو لي أنني سأتلقّى حصّةً تدريبيةً؛ استعدادًا للمواجهة الثالثة مع ذلك الجبان!

وما هي إلّا لحظات... حتى اقتحم أذنيه صوت صياح الحرس ألمًا وهلعًا، وبعدها ساد صمتٌ تامٌّ! قبل أن يتلقّى باب الزنزانة ضربةً خلعته من موضعه، وبرز من الخارج وجه (ضرغام)، ليقول (هادن) بمرحٍ:

- ما كنت أتصوّر أن وجهك سيغدو أجمل وجهٍ أراه في حياتي!

هتف (ضرغام) متجهّمًا:

- اخرس أيها الأورناسيّ الأهوج! إن تفوّهت بهراءٍ آخر، سأنزع حنجرتك.

فابتلع (هادن) لسانه! مدركاً يقيناً أن الماثل أمامه لا يتقبّل المزاح أبدًا، ليسأله (ضرغام):

- ما الذي حلّ هنا؟! ولماذا أراد أولئك الحمقى اقتحام الزنزانة؟!

حكى له (هادن) ما جرى، وكيف انتهى به الحال إلى هنا، ليقول (ضرغام) متّجهًا ناحية الجدار الذي غطّى الممرّ إلى حجرة الملك، وهَمَّ أن يضربه بمنجله، لولا أن قال له (هادن) محذّرًا:

- يتوجّب علينا أوّلًا استعمال الراف...

مجرة التاج الثالث

لم يسنى له من إتمام عبارته، بعد أن أبصر الجدار يتحطّم بضربةٍ من منجل (ضرغام)، والذي التفت إليه قائلًا:

- كفاك ثرثرة! واتبعني.

ثم جذبه من رقبته، وألقى به إلى الممرّ المؤدّي إلى جناح الملك، وهو يقول حانقًا:

- لا يزال هنالك حسابٌ بيني وبين ذلك الجبان.

تأوّه (هادن) بمجرّد أن سقط أرضًا إثر رمية (ضرغام) له، شاعرًا بالشفقة على ذلك (الجبان) مهما كان مَن كان! فلا حظّ أسوأ من أن تُضاف إلى القائمة السوداء لدى هذا المجنون!

واعتدل واقفًا يلحق بشبيه الأسد عبر الممرّ، كي ينضما إلى (جارف) و(خرافة).

***

- كذبٌ! إنه ليس جاسوسًا، وإنما أراد الاقتصاص من الملك الذي قتل أخاه وصديقه.

قالها (خرافة) متجهّمًا، لتردّ (إلنا) بنبرةٍ منتصرةٍ، وقد بدا وكأنها عثرت على شيءٍ تبحث عنه بين حاجيات (جارف):

- ها هو الدليل على أنه جاسوسٌ لدى الملك!

وأبرزت لفافةً فردتها أمامه، وناشدته بقراءتها، فتأمّل رسالةً يعلوها شعار المملكة، ويتذيّلها ختم الملك، وتذكّر أنه لا يُجيد القراءة، ليسألها عمّا تحتويه، فتُجيبه:

- إنها موجَّهةٌ من الملك شخصيًّا، إلى (جارف) باسمه؛ كي يقنعك بالمثول إليه.

وتابعت قائلةً:

- قد ثارت شكوكي تجاهه منذ أن عاد بمفرده من سجن قصر الملك، وبإصاباتٍ طفيفةٍ، في حين تمّ قتل كلٍّ من أخيه وصديقه، بعد أن صحبهما إلى الملك، ثم... مَن الساذج الذي بوسعه تصديق قصّة هروبه من الزنزانة بهذه البساطة؟!

بدا كلامها معقولًا، بل إن (داهي) ذاته قد شكّ في أمره؛ بسبب قصّة هروبه، قد أتقن دوره ببراعةٍ، لدرجة أنه بالكاد يصدّق أنه هو الجاسوس؛ فلا يزال ينتابه شعورٌ أن هنالك خطبًا ما، لذلك سألها:

- وكيف أحطتِ علماً بموقعنا هنا؟!

- تسنى لي مع رفاقي من قتل بعض الحرس، والتخفّي بزيّهم، ثم اندسسنا وسط الحرس الذين حاصروكم لدى الزنزانة، قبل أن أصعد خلف الذين صعدوا للحاق بكما، في حين ظلّ باقي رفاقي بجوار الزنزانة يترقبون اللحظة الحاسمة لإنقاذ (هادن).

"إذًا... لهذا السبب أجدها مرتديةً زيّ الحرس الملكي"، قالها في نفسه متأمّلًا الزيّ، وقد بدا لامعًا نظيفًا لا تشوبه أيّة شائبةٍ! ليتورّد وجه (إلنا) خجلًا؛ إثر تحديقه لها، فيعتريه الحرج، ويشيح ببصره عن زِيِّها.

ألقى نظرةً إلى جثّة (جارف)، وشعر بالأسى؛ فقد وعد زوجته أنه سيتكفّل بحمايته، ترى ما هو ردّ فعلها حينما تدرك مصيره؟! بالإضافة إلى كونه جاسوسٌ لدى الملك! قد أجاد دوره، لدرجة أنه بالكاد يسعه تصديق فكرة كونه جاسوسًا!

أمسكت بيده تجذبه؛ كي يصعد معها الدرج، ليسألها بنبرةٍ شابها الفضول حول سبب اتّجاههما ناحية جناح الملك، لتُجيبه أن الرافعة الأخرى تقع داخل حجرة الملك، لذلك يتوجّب عليهما الوصول إليها، قبل أن تصل أيادي الحرس إلى (هادن)، وكانت محقّةً... فكيف غفل أمر الرافعة وأمر صديقه (هادن)؟!

ثم تبعها إلى الأعلى، لينتهي بهما الممرّ إلى بابٍ، ما إن ولجاه، حتى وقعت أعينهما على جناحٍ عظيمٍ يعجّ بالعديد من الحجرات، لتُشير إليه أن يتبعها إلى حجرة الملك، حيث يتمكّنا من فتح الجدار لـ (هادن)، قبل أن يغمغم (خرافة)، وقد شعر أن هنالك خطبًا ما:

- عجيب أمر (جارف)! لم يخطر على بالي أن تغدو حماقته إلى هذا الحدّ!

توقّفت عن مواصلة السير، والتفتت إليه متسائلةً:

- ما الذي تعنيه على وجه التحديد؟

- لماذا برأيكِ احتفظ بلفافةٍ تحتوي على أمرٍ من الملك بإحضاري له؟! أمِنَ المعقول أن يكون بهذا الحمق؟!

همّت أن تُجيبه، لولا أن بادرها قائلًا بنبرةٍ غامضةٍ متشكّكةٍ:

- أو... لعل هنالك من دسّها بين طيّات ثيابه؛ كي يختلق فكرة كونه الجاسوس!

سألته بنبرةٍ شابها الفضول:

- ومَن برأيك يسعه أن يصنع صنيعًا دنيئًا كهذا؟!

- الذي عثر عليها! أليس كذلك؟!

فالتقت عيناها البريئتان بعينيه الحاقدتين، ليردف قائلًا بتجهّمٍ، وقد برزت شمسٌ أعلى عصاه، متحفّزًا لأيّ هجومٍ منها:

- أجل يا (إلنا)! أنتِ الجاسوس!

قطبت حاجبيها قائلةً بتجهّمٍ مماثلٍ:

- أتتصوّر أن هذا هو الوقت المناسب للمزاح؟! هيّا اتبعني إلى حجرة الملك؛ كي ننقذ (هادن).

تجاهلها قائلًا:

- لعدّة مرّاتٍ شككتُ في أمركِ، فقد أبلغتني نسوةُ القرية أنكِ لا تراعين أمر الناجي، فلماذا إذًا كنتِ تُصرّين على القيام بواجبات الضيافة لي؟! لا أجد تفسيرًا سوى رغبتك في أن توهمي الناس أنكِ منهمكةٌ في ضيافتي، بينما كنتِ تغادرين إلى القصر الملكي، فقد أردتِ ذلك كذريعةٍ؛ حتى لا يشكّ بكِ أحدٌ.

كادت أن تحتجّ، لولا أن قاطعها قائلًا:

- بالإضافة إلى ذلك... فيما يتعلق بجيش المعركة الأولى، والذي قَدَّرْتِي عدده بألفي جنديٍّ، في حين أن (داهي) ذاته تصوّرهم ألفًا! فأنّى لقرويّةٍ لا شأن لها بالحرب أن تذكر عددهم بهذه الدقة؟!

أجابته بصوتٍ مختنقٍ، وبعينين دامعتين:

- لا يعدو ذلك عن كونه تخمينًا، كما أنك تجهل علاقتي بـ (جارف)، فقد كنّا صديقين منذ صبانا، ولم أقتله إلّا لخيانته قريتنا، وحمايةً للناجي الثالث.

وتابعت باكيةً بحرقةٍ:

- ثم إن لم يكن هو الجاسوس، فلماذا أخلى الملك سبيله؟! ولِمَ لم يقتله مع رفيقيه؟!

أجابها بنبرةٍ باردةٍ:

- لا أنكر أن فكرة تحويل شكوكنا ناحية (جارف) كانت فكرةً ماكرةً، وقد تزامنت مع بوح (داهي) لي بوجود جاسوسٍ في أهل القرية، وفيما يظهر لي أنكِ تجسّستِ واستمعتِ لحديثنا، حينها فقط أبلغتِ أسيادكِ بالأمر، فعدل الملك عن قتل أحد الرفاق الثلاثة؛ في سبيل إبعادنا عن الجاسوس الحقيقيّ.

وتابع قائلًا:

- والدليل على كونكِ على علمٍ مسبقٍ بالأمر، حينما قمتِ بمناداته داخل دار الضيافة ليلة المعركة الأولى، بينما لم يلج القرية إلّا تزامنًا مع فجر اليوم التالي، تُرى... أهي مصادفةٌ؟! ولم تصنعي ذلك إلّا للفت انتباه معاون الأمير؛ كي يلج دار الضيافة برفقة جنوده، ولا نغفل عن أنكِ أنتِ فقط المصابة بإصابةٍ طفيفةٍ تلك الليلة!

هتفت بحرقةٍ وسط دموعها المنهمرة:

- هذه مجرّد افتراضاتٍ! ولا أساس لها من الصحة، ويكفيني ما يعتريني من نوازل، بدءًا بفقدي لزوجي ورعايتي وحدي لأولادي، وانهماكي بخدمة الناجي الثالث، إذ بك تطعنني في إخلاصي لقريتي وأهلي، ما الذي اقترفته كي تعاقبني بهذه القسوة؟!

تجاهلها مُتابعًا:

- ولا نغفل كذلك عن أمر زيّ الحرس الملكي النظيف بصورةٍ ملفتةٍ! بينما زعمتِ أنكِ ورفاقكِ قتلتم أصحاب هذه الأزياء، فلماذا لا أجد أثرًا للدماء؟!

- لأننا حرصنا على تنظيفها؛ حتى لا نثير الشكوك نحونا.

- وماذا عن أفراد الحرس الذين صعدوا بصحبتكِ؛ كي تسبقونا إلى هنا؟! فلماذا لم يبرز أيّ حارسٍ منهم حتى اللحظة؟!

- هذا لكوني أضللتهم، وحرصت على حبسهم بإحدى الحجرات، قبل أن ألحق بكما.

ثم تابعت بنفاذ صبرٍ:

- الوقت يمضي... و(هادن) معرّضٌ للخطر في أيّة لحظةٍ، وإن لم نكف عن طرح اتهاماتٍ تفتقر إلى الدليل، فمصيره الحتميّ هو الموت، لذلك إمّا أن تدعم مزاعمك بدليلٍ لا يقبل الشكّ، وإمّا أن أدعك هنا وسط شكوكك، وأذهب لنجدة (هادن) وحدي.

ردّ متحدّيًا:

- أجل، هنالك دليلٌ لا يدع مجالًا للشكّ! وهو يثبت كونكِ لم تتواجدي مع الحرس الملكي أثناء حبسنا داخل الزنزانة! بل... وأنتِ التي ستدلين بهذا الدليل!

ارتفع حاجباها من الدهشة، ليسألها:

- طالما زعمتِ بكونكِ تواجدتِ مع الحرس الملكي بالزنزانة قبل أن نفرّ منها أنا و(جارف)، فهل لكِ أن تطلعيني عن الموضع المحبوس به (هادن) الآن؟

جحظت عيناها، وعجزت عن النطق لوهلةٍ، قبل أن تغمغم بخفوتٍ:

- ليس عدلًا! ما الذي يضطرّني إلى خيانة قريتي؟!

- السبب هو زوجك.

اتّسعت عيناها من فرط الدهشة، ليُتابع قائلًا:

- من المؤكّد أنه أسيرٌ لديهم هنا؛ بغرض ابتزازكِ للعمل لصالحهم، فلم تسأليني إن كنتِ صادفته داخل الغابة المشؤومة، وكذلك لم تحضري ولا لمرّةٍ واحدةٍ للاستماع لحكايتي، ممّا يشي بكونكِ كذبتِ بشأن دخوله الغابة.

قالت متحدّيةً:

- إن ما تفوّهت به هو هراءٌ وغير صحيحٍ، إن كنت جاسوسةً حقًّا كما تزعم، فلماذا أتكبّد عناء مساعدتك؟! ألم يكن من الأوْلى أن يأتي الجند إليك وإلى صديقك الجاسوس ويتمّ قتلكما؟

أجابها ببساطةٍ:

- لأن الغرض هو الإمساك بي حيًّا؛ كي يقايضني الملك المجرم بنجاته.

همَّت أن تتفوّه بأمرٍ ما، لولا أن انفتح أحد الأبواب، وبرز منه أحد الجند قائلًا بنبرةٍ متهكّمةٍ:

- رائعٌ! أيها الناجي الثالث! قد أصبت الحقيقة تمامًا، عدا أن زوجها ليس أسيرًا لدينا، بل انتابه عارض مرض (حمى همود) منذ سنواتٍ، ووعدناها بمنحها العلاج إن تعاونت معنا.

اتّسعت عينا (خرافة) من فرط الدهشة، مدركاً أنه مصابٌ بذات داء زوجته (غزالة)، أمعنى ذلك أن العلاج حقًّا بحوزتهم؟!

ثم فتحت باقي الأبواب، وبرز منها العشرات من الحرس الملكي، ليحيطوا بـ (خرافة)، فتندفع (إلنا)، وتحول بينهم وبين الفتى قائلةً:

- لن أسمح لكم بمسّ شعرةٍ منه، حتى أرى بعيني علاج مرض زوجي، قد أبرمتم وعدًا لي، إن أتيت به حيًّا، أن تمنحوني العلاج.

ارتسمت بثغر قائد الحرس ابتسامةً غامضةً، وقال:

- معك حقٌّ، وهو بحوزتي الآن.

ودنا منها، وقد أولج يده داخل جيبه، وعيناها وعينا (خرافة) تراقب يده في لهفةٍ، قبل أن يخرجها، وبها خنجره الذي غرسه على الفور بصدرها، قائلًا:

- حمقاء! إن الجنّ ذاتهم عاجزون عن إيجاد علاجٍ له، كما أن زوجك قد مات بعد مضي عشرة أعوام على إصابته بالمرض، لكنك لا تُجيدين الحساب!

جحظت عيناها، واحتقن وجهها، قبل أن يهتف (خرافة):

- ويحك! إنها تعمل لصالحكم! لماذا تقتلها؟!

- ألم تسمعني؟ قد مات زوجها، لذلك لم يعد لدينا سببٌ لإجبارها على العمل لصالحنا.

ثم أمر الحرس أن يقودوه ناحية حجرة الملك، ليُحيط به الحرس؛ تنفيذًا لأوامره، ولم يجد (خرافة) مفرًّا، وعقله يبحث عن وسيلةٍ للفرار منهم؛ حيث إن القتال مع هذا العدد لن يكون في صالحه، ظلّ يغوص بين طيّات عقله، يبحث عن وسيلةٍ للخلاص من هذا المأزق، وذلك بالتزامن مع دنوّ الحرس منه، حتى لمح جسدًا قد طوّح به أحدهم، واصطدم بجمعٍ من الحرس، فأوقعهم أرضًا، ليتّضح أنه (هادن)، والذي هتف متجهّمًا:

- أخبرتك أن نفاجئهم! لا أن تلقيني عليهم هكذا!

ردّ (ضرغام):

- لم يكن هنالك مجالٌ للتفكير، والآن... كفّ عن التذمّر! ولننظّف هذا الموضع من هؤلاء الضعفاء.

هتف (خرافة) والسعادة تغمره:

- (هادن)! قد نجوت!

كاد أن يردّ صديقه، لولا أن بادر (ضرغام) بضجرٍ متّجهًا صوب الحرس:

- لا وقت لدينا لهذا الهراء! علينا أن نقضي عليهم.

مجرة التاج الثالث

انضمّ إليه (هادن)، ونجحا في سحقهم، بينما انهمك (خرافة) في علاج جرح (إلنا)، والتي دفعت بيدها العصا، ليعود فيضع العصا بجوار الجرح، لتغطّيه بيدها، فيسألها مستنكرًا:

- ماذا دهاكِ؟! دعيني أعالج جرحك، إنك بذلك تقتلين نفسك.

أجابته بنبرةٍ حزينةٍ واهنةٍ:

- بل دعني أموت، لم تعد لي رغبةٌ للحياة بعد وفاة زوجي، ثم إنني لن أقوى على مواجهة أهل قريتي، حالما تصلهم أنباء حقيقتي.

هَمَّ أن يتفوّه بأمرٍ ما، قبل أن يقاطعه أحدهم قائلًا:

- إنها محقّةٌ، فالخيانة مصيرها القتل، وأنا لم تخطُ قدماي على أرض المملكة، إلّا كي أتخلّص من الجاسوس.

التفت إلى مصدر الصوت، فإذ به (داهي) ورفاقه، قد جاءوا أخيرًا بعد أن شاركوا في الخلاص من سائر الحرس.

وقال (ضرغام) بنبرةٍ حازمةٍ:

- حقًّا بالفعل... ولو كنتَ أنقذت حياتها، لقتلتها بنفسي؛ فلا مجال للخونة هنا.

قال (خرافة) بلوعةٍ موجّهًا حديثه ناحية (داهي):

- لكنها فعلت ذلك مكرهةً، فإن زوجها أُصيب بالعارض ذاته الذي ألمّ بزوجتي، وأوهموها أن بحوزتهم العلاج.

- هذا لا يعدّ عذرًا، فهي فضّلت حياة زوجها على سائر (الأورناس)، إنك لا تدري أعداد الذين دفعوا حياتهم ثمناً جراء خيانتها!

- كل ما أرجوه، ألّا تخبروا أبنائي وبناتي عن صنيعي.

قالتها (إلنا) بنبرةٍ متوسّلةٍ وسط آلامها، والموت قد أحاط بها، ليردّ (داهي) قائلًا بنبرةٍ باردةٍ:

- لكِ ذلك.

- وألّا يعلم أهل القرية بخيانتي.

- أمّا هذه... فلا! سيعلم الكل بخيانتك، مع الحرص على إخفاء الأمر عن أهلك؛ فلا ذنب لهم أن تغدو أمّهم خائنةً، لذلك سيتمّ تهجيرهم عن هذه المملكة.

التفت إليه (خرافة) متجهّمًا، ليجده غارقًا في غضبه وحقده على (إلنا)، ولن تعتريه الدهشة لو رآه يمزّقها بسيفه! ثم همَّت لتقول شيئًا، لولا أن سبقها الموت، ليسود الصمت للحظاتٍ، قبل أن يخرقه صوت نحيب (خرافة) الواقف أمام جثّتها!

تجاهل (داهي) المشهد... متجهاً صوب حجرة الملك، وتبعه الثوار، وما إن أضحى (ضرغام) بمحاذاة (خرافة)، حتى توقّف عن السير، وقال بنبرةٍ لا تخلو من الازدراء:

- إنك امرؤٌ ضعيفٌ أيها الإنسيّ! بل أشدّ ضعفًا من (الأورناس) ذاتهم!

ثم واصل سيره خلف الثوار، في حين ظلّ الفتى ينتحب أمام جثّة (إلنا)، قد تجاوز الأمر الحدود، كم روحٍ أُزْهِقَتْ وعجز عن حمايتها! حتى مع قدرات (دلنارن)، فقد ظلّ عاجزًا عن حماية مَن حوله، بدءًا بزوجته (غزالة)، وأهل قبيلته، وانتهاءً بـ (جارف) و(إلنا)، ثم تردّد صدى صوت (فارع) حينما قال: "اللعنة عليك وعلى زوجتك سائر الدهر؛ قد سبّبتم لنا الخراب!"، حقًّا، إنه ليس إلّا لعنة على كل مَن حوله.

ثم شعر بيدٍ تربت على كتفه، ليتّضح له أنه (هادن)، والذي قال بنبرةٍ شابها الأسى:

- أيها الناجي... على الرغم من فطنتك، إلّا أن عيبك هو أنك أحيانًا تعجز عن رؤية الأمور على حقيقتها، فلا لوم عليك، ولا على (داهي)، ولا حتى على (إلنا)، إنما المسؤول عن هذا كله، هو الملك ذاته.

بدت عبارته كالصفعة التي أيقظته، لعلّها أصدق ما سمع في حياته، حقًّا! إن كل ما حلّ بالقرية، بل والمملكة ذاتها، كان بسبب ذلك المجرم المتسلّط، لذلك مسح دموعه، واتّجه ناحية حجرة الملك، وقد صبّ جام غضبه تجاهه.

***

الفصل الرابع والعشرون:

الرعيّة والراعي

- كلّا، لن أتنحّى عن الحكم، سأقاوم حتى آخر جنديٍّ لديَّ، وإن هم انتصروا، فلا مجال لي، سوى الفرار بأموالي.

هتف بها الملك (أسدان) داخل حجرته أمام نارٍ زرقاء مشتعلةً تجسدت على هيئة جنّيٍّ، والذي ردّ بنبرةٍ باردةٍ متعاليةٍ:

- قد ولّى أمرك وعهدك! ولم يعد لك نفعٌ! لذا... استسلمْ، ودع الجيش يزعم أنه مَن ألقى القبض عليك، وبعدها تُحبس، ثم تتم تبرئتك بعد عدّة محاكماتٍ صوريّةٍ!

ردّ بصوتٍ مختنقٍ:

- وما الفائدة المرجوّة من ذلك؟! لماذا لا نقاتلهم حتى النهاية؟

- لأن الرعيّة إن أسقطتك، فسيسقط سائر أعوانك، ويضيع جهد سنواتٍ من صناعة مملكةٍ تخدم مصالحنا، وتمدّنا من خيراتها، مقابل أن نحفظ ملكك وملك أبنائك من بعدك، منذ جدّك الحافي (باران)، والذي لم يتمتّع بمؤهّلاتٍ

مجرة التاجي الثالث

سوى أنه كان خادمًا مخلصًا لنا! لذلك... تنازلْ عن الملك، وإلّا أجبرناك على ذلك!

تعمّد الجنيّ التحقير من شأنه، وتذكيره بأصله، وأصل جدّه المؤسّس، غير أن الملك تجاهل عبارته، وهتف متجهّمًا:

- كلّا، لن أسمح أن أكون كبش فداءٍ، ولن أسمح لأولئك المزارعين أن يحبسوني ويحاكموني.

- إذًا... فسنخلعك عن المُلك بأنفسنا!

وما إن أنهى عبارته، حتى تلاشى الجني! وبرز من بين براثن مداخل سريةٍ أربعةٌ من قادة الجيوش مستلّين سيوفهم، ليتجمّد في مكانه هلعًا، وهم يحيطون به، غدو على أتمّ الاستعداد لقتله، قد رأى الموت ينبعث من أعينهم، ليبعث الرعب بين طيّاته، لذلك لم يجد إلّا أن يجثو على ركبتيه، وهَمَّ أن ينصاع لأمر الجن، لولا أن قاطعه صوتٌ مألوفٌ يهتف بنبرةٍ حازمةٍ:

- كلّا! لن أسمح لكم بذلك!

ولم يكن صاحب الصوت سوى (نصال)، والذي تبارز مع المقاتلين الأربعة، وعلى الرغم من إصابته بالسمّ، إلّا أنه تمكّن من الخلاص منهم، تغمره الغبطة أن سبق الثوّار نحو حجرة الملك، بعد اتخاذه طرقًا سريّةً مختصرةً، قبل أن يعاون الملك على النهوض، واتّجها ناحية المخرج السريّ، الذي ولج منه قبل أن يترنّح، وكاد أن يقع أرضًا، لولا أن تمالك نفسه؛ إنه لن يسمح للموت ذاته أن يدنو منه، حتى يطمئن على الملك، الذي قال متوجّسًا:

- تبدو إصابتك خطيرةً.

- كله في سبيلك، وسبيل المملكة.

وما إن دنيا من الباب السريّ، حتى انطلق سهمٌ اخترق الرافعة، لينغلق الجدار أمامهما، فيلتفتا ناحية الخلف، فيبصرا (داهي) ورفاقه قد حاصروهما، لينحّي (نصال) الملك خلفه، ويستلّ سيفه وهو بالكاد يستطيع رؤيتهم! مدركاً أن السمّ يوشك في أيّة لحظةٍ أن يقتله، ليقول (داهي):

- إنك محاصرٌ، ولا قبل لك بنا، لذلك... سلّمنا الملك.

ردّ حانقًا:

- لن أسمح لأيٍّ منكم بمسّ الملك المبجّل بسوءٍ.

قال أحد جند الثورة:

- أرى أن نقتله؛ كي يخلو لنا الطريق إلى الملك.

ردّ (خرافة) محتجًّا:

- لا أزال أرى أن ينتهي الأمر سلميًّا، طالما نحن نفوقهما عددًا.

وافقه (داهي) قائلًا:

- كما أنه مصابٌ، فلن يغدو ذلك عدلًا.

ثم استطرد متهكّمًا موجّهًا حديثه ناحية الملك:

- لماذا لا تشرف على تطبيبه؟! كما صنعت مع أحد رعاياك مسبقًا! فمن المؤكّد أن الشمس الأبدية أمدّتك بأطنانٍ من عشبة (دِرحاء)!

امتقع وجه الملك، في حين قال (نصال) متجهّمًا وهو يلوّح بسيفه:

- لا أزال يسعني قتلكم جميعًا في سبيل الملك والمملكة، فليس للفوضويّين من مجالٍ للشعور بالشفقة لحالي.

غمرت (داهي) خيبة الأمل والرجاء؛ حيث إنه لن يتمكّن من الوصول إلى الملك دون العبور على جثّة (نصال)، لسنواتٍ مضت وتلك الصورة تداعب خياله، أن

يجده بجواره جنبًا إلى جنبٍ في مواجهة الجنّ، إنه أعظم من أن يغدو سيفاً لحماية طاغيةٍ لا غاية له إلّا تحقيق مصالحه الخاصة.

فمن المؤسف أن يلتقيا على هذه الحال، والأشدّ أسفًا هو أن قرار إنهاء حياة المكلّف واقعٌ بيده، لكن لا مفرّ، فهو الآن مخيّرٌ بين صالح الرعيّة، وبين مقاتلٍ يُعد ضمن أعظم عشرة مقاتلين يحملون السيف على الأرض السابعة.

لذلك هَمَّ أن يأمر جنوده بقتل المكلّف بحماية الديار، لولا أن قال (خرافة) متسائلًا وموجّهًا حديثه ناحية (نصال):

- لكن... ماذا لو تعارضت مصلحة المملكة مع مصلحة الملك؟

ردّ (نصال) محتجًّا:

- أيّ هراءٍ هذا؟! الملك هو المملكة، إنهما كيانٌ واحدٌ! ونحن نمثّل الدرع لحمايته وحماية أراضيه.

تراجع (داهي) عن قراره، قبل أن يقول:

- بل إن لسؤاله وجاهةً، ثم إن المملكة هي الأرض والرعيّة، وما الراعي إلّا أجيرٌ يتمتّع بصلاحيّاتٍ عظيمةٍ؛ بغرض حماية الأرض والرعيّة، إضافةً إلى رعاية مصالحهم، وتولية الأصلح منهم.

اعترت الحيرة (نصال)، بينما قال الملك (أسدان):

- لا تصدّقهم يا حامي المملكة، وإن كان ما يزعمونه صحيحًا، فلِمَ استشهد أبوك في سبيل حمايتي؟

أعادته هذه العبارة إلى صوابه، ليهتف متجهّمًا:

- هراءٌ! المملكة هي الراعي، وما الرعيّة إلّا...

لم يتسنى له من اتمام عبارته، بعد أن ألقى (داهي) عدة رسالةً ملفوفةً، ليلتقطها (نصال) بحذرٍ، ثم يسأله عن أمرها، فيُجيبه (داهي):

- وجدتها بحوزة قائد عسكر الملك، بعد أن امتنع أحد القرويّين بـ (دارناج) من ترك داره يُهدم، وكذلك عثرت على عقدٍ بجوار كرسيّ عرش الملك.

قرأ (نصال) الرسالة، يمرّ بعينيه بحذرٍ بين سطورها، ليكتشف أنها أمرٌ من الملك بإحراق الدار، التي تواجد بداخلها قروي وأهله، ولفت نظره أن الرسالة مذيلةٌ بختم الملك، وبعدها تلقّى لفافةً، والتي لا تعدو عن كونها عقدًا مع (المنتفعة)، لقتل جيش الثورة، ليسأل بنبرةٍ حازمةٍ موجّهًا حديثه ناحية الملك:

- ما تفسير ذلك؟! ما تفسير أمرك بحرق أحد الرعيّة، الذي رفض هدم داره؟! وما تفسير التعاقد مع (المنتفعة)؟! ألا يعدّ ذلك جريمةً؟!

كاد الملك أن يردّ، لولا أن بادر (داهي) قائلًا:

- وكذلك نريد تفسيرًا لإرساله لابنه الأحمق؛ كي يدكّ قرية (دارناج)، وتفسيرًا للتحالف مع الجنّ ضدّ رعيّته، وماذا عن أموال الرعيّة التي استولى عليها هو وعصابته وتركهم يعانون الفقر؟! لذلك أنصحك بالتنحّي جانبًا؛ كي نأسر الملك، ونخيّره بين الإصلاح أو أن يخضع لمحاكمةٍ تُشرف عليها الرعيّة.

هتف الملك بنبرةٍ حازمةٍ:

- لا تنخدع بكلامهم أيها المكلّف! إنهم يسعون لقتلي، لا تجعل تضحية أبيك البطل (يحيان) تضيع سدى.

ظلّ (نصال) صامتًا برهةً من الزمن... وجميعهم يترقّبون ردّ فعله، قبل أن يسأل موجّهًا حديثه ناحية الملك، بصوتٍ كالفحيح، دون أن يلتفت إليه:

- فيما يتعلّق بإجبار الرعيّة من نساءٍ وأطفالٍ وشيوخٍ بالمشاركة في الحرب، أكان ذلك بناءً على أمرٍ منك؟!

أجاب الملك مفسّرًا:

- دعني أوضّح لك...

لم يتسنى له من إتمام عبارته، وقد شعر الكل بحركةٍ ما، لتقع أعينهم على (نصال)! وقد أعاد سيفه إلى غمده، وساد الصمت لوهلةٍ، وسط حيرتهم، قبل أن ينفجر نحر الملك بالدماء! ويُصدر منه صوتٌ متحشرجٌ، ويسقط صريعًا، والكل في حالةٍ من الذهول، ليقول (داهي) موضّحًا:

- إنها مهارةٌ يتمتّع بها (نصال)، ولا يمكن ملاحظتها إلّا بعيْنٍ خبيرةٍ.

ثم قال معاتبًا موجّهًا حديثه ناحية (نصال):

- أما كان الأوْلى أن نأسره، ونتباحث في أمره؟ فإنه ما تمادى في الإجرام، لولا المنافقين من رعيّته وحاشيته.

ردّ (نصال) بوهنٍ، وهو بالكاد يسعه الرؤية:

- بل إن هذا أقلّ ما أستطيع فعله؛ تكفيرًا عن ذنبي وذنب أبي، وآخر خدمةٍ أقدّمها لمملكتي.

ثم أردف مترنّحًا، وقدماه بالكاد يسعهما حمله:

- والآن... ما الذي سيحلّ بالمملكة؟

أجاب (داهي) بوضوحٍ:

- تحقيق مصالح الرعيّة هو هدفنا وغايتنا.

- ما كنت لأصدّقك، لولا أن علمت أنك حافظت على أموالهم من السرقة، والحقيقة أن الجند لم يكونوا لصوصًا، وإنما أرادوا نقل أموال الملك... أعني... أموال الرعيّة إلى عربته، و ما كان ذلك إلا بأمرٍ منه؛ كي يفرّ بها!

لم تتحمّل ساقاه الصمودَ أكثر من ذلك، ليسقط أرضًا، وقد تمكّن السمّ منه، ليقول بضعفٍ، والموت يحوم حوله:

- أوصيكم بالمملكة خيرًا، حافظوا عليها كما تحافظون على أرواحكم، أوصيكم خيرًا بالمرأة التي أحببت، واسمها أر...

قاطعه (خرافة) قائلًا بنبرةٍ متهكّمةٍ:

- لِمَ هذه الوصايا؟! أتنوي الهجرةَ عن وطنك، والرعيّة في حاجةٍ إليك؟! أيّ مكلّفٍ أنت؟!

التفت إليه بوهنٍ، ليجده قد قرّب عصاه من الجرح الواقع بكتفه، وشعر بالسمّ يتسلّل خارجه، وأدرك حينها ما يحدث، ليقول منزعجًا:

- ما كنت أتصوّر أن نجاتي ستأتي عبر تلك الخائنة!

- ليست هي بخائنةٍ.

- وأنّى لإنسيٍّ مثلك أن يحيط علمًا بأحوال قومٍ سبقوه بمئاتٍ من آلاف السنين؟!

- تلميذها (آرات) أخبرني.

- ما أنت إلّا أحمقٌ! إنه أشدّ منها خيانةً.

في تلك الأثناء... أمر (داهي) أحد رفاقه أن يبشّر الرعيّة _خارج القصر_ بهلاك الملك، ليغادر الحجرة فورًا، وبمجرّد أن انتهى (خرافة) من علاجه، حتى اعتدل

(نصال) واقفًا، وقد أحسَّ وكأنه لم يُصب من قبل! ليدنو منه (ضرغام) قائلًا مستحثًّا:

- هيّا نستأنف نزالنا؛ فإن عليك ديونًا واجبة الدفع!

احتجّ (داهي) بحزمٍ:

- إن أمامنا إصلاح ما فسد في المملكةٍ! فلا فائدة من قتالٍ لا طائل منه.

قال (ضرغام) بخيبة أملٍ موجّهًا حديثه ناحية (نصال):

- لحسن حظك أنك نجوت منّي!

لم يعره (نصال) اهتمامًا، وقال مشيرًا إلى جثّة الملك:

- ما أنتم فاعلون به؟!

تردّد القوم، قبل أن يُبادر (خرافة):

- أرى أن نصلبه، كما صنع ببعض رعيّته.

وافقه عددٌ كبيرٌ منهم، وكذلك فعل (هادن) و(ضرغام)، قبل أن يقول (داهي) محتجًّا:

- لا أحبّذ أن نبدأ عهدًا جديدًا بمثل ذلك المشهد! وأرى أن يُدفن بصورةٍ تليق بملكٍ لمملكةٍ عظيمةٍ.

وافقه جمعٌ قليلٌ، من بينهم (نصال)، وتردّد (خرافة) قليلًا، قبل أن يوافق على هذا القرار، وكاد (هادن) أن يحتجّ، لولا أن جذبه (ضرغام) من ذراعه، وهمس له:

- ما رأيك أيها الأورناسيّ الضعيف أن تغدو من تلاميذي؟! إنك تتحلّى بصفاتٍ تجعلك جديرًا بأن تتلقّى تعاليمنا نحن (الغورجان).

انتزع ذراعه منه، ولم يجبه؛ لأن آخر ما يشغل باله الآن هو أن يغدو تلميذًا لهذا المجنون!

سألهم (نصال):

- ومَن سيتولّى مقاليد المملكة؟

مجدّدًا... تردّد الجميع، قبل أن يُجيب (خرافة):

- إنه أنت بالطبع، فلن يجد الرعيّة أكثر منك إخلاصًا لمملكته.

ردّ محتجًّا:

- كلّا، إن آخر ما أرجوه هو تولّي مصالح الرعيّة، فموضعي هو ساحة الحرب.

قال (داهي) موافقًا:

- كما أنه كان من أعوان الملك (أسدان)، فلن يتقبّله جمعٌ غفيرٌ من الرعيّة.

قال (خرافة):

- إذًا... ماذا عنك أنت يا (داهي)؟ لا أجد أحدًا يتمتّع بعلم السياسة والقدرة على القيادة بكفاءتك.

ردّ (داهي) وقد اعتراه الانزعاج:

- ليس هذا ما أطمح إليه، كما أن إحدى الممالك تلاحقني؛ لزعمهم أنني قتلت وليّ عهدها، ولا أرغب أن تتحالف مع سائر الممالك ضدّنا، إن علمت أنني أحكم مقاليد هذه المملكة.

تفاجأ (خرافة) ممّا تفوّه به، وهَمَّ أن يسأله عمّا يعنيه، لولا أن بادره قائلًا:

- كما أن خيار المُلك لا يقع على عاتقنا! وإنما يقع على عاتق الرعيّة.

مجرة الناجي الثاني

وبمجرّد أن أنهى عبارته، حتى تردّد صدى هتاف الرعيّة، بعد أن وردهم نبأ مقتل الملك الجائر، وطفقوا يردّدون عبارةً لم يتبيّنها (خرافة)، والذي قال محتجًّا:

- لكن... ماذا لو وقع خيار الرعيّة على الأمير الأحمق؟! سيذيقنّهم أشدّ ما أذاقهم أبوه من الضيم والجور، لذلك... أرى أن نختار لهم الأصلح بينكم.

ردّ (داهي) موضّحًا:

- لا أحد يعلم بمصالح الرعيّة أكثر من الرعيّة ذاتها، وما نحن إلّا دروعٌ تحميهم وتحمي أرضهم، ولسنا أوصياء عليهم، ثم إن الرعيّة التي يقع خيارها على مَن يتولّى شؤونها، هي ذاتها التي بيدها اختيار غيره، وذلك إن تهاونَ في تحقيق مصالحها، لذلك... فهم السادة على أرضهم، وما الراعي إلّا أجيرٌ يتولّى شؤونهم فحسب، نظير أجرٍ.

ثم أردف، وقد لمعت بثغره ابتسامةٌ شابها الغموض:

- كما أنه فيما يبدو لي أنك تعاني من عطبٍ في سمعك! ألا تسمع ما يهتفون به من قولٍ؟!

أرهف (خرافة) السمع؛ محاولًا تبيّن ما يهتف به القرويّون خارج القصر الملكي، ثم سمع عبارةً مكوّنةً من كلمتين، لم تبد أجنبيّةً عنه، بالكاد تمكّن من تبيّنها، لتتّسع عيناه ذهولًا! فلم تكن العبارة إلّا اللقب الذي تمتّع به منذ أن خطّت قدماه هذه الأرض.

(الناجي الثالث)!

هذا ما اقتحم أذنيه من هتاف الرعيّة، حالما علموا بهلاك الطاغية (أسدان)، ليتراجع إلى الخلف خطوةً مشيرًا بيديه، وكأنه ينفي تهمةً موجّهةً إليه! ويقول:

- مهلًا! إنني آخر شخصٍ يمكن الإشارة إليه، هذا غير أنني أجنبيٌّ ولست أورناسيًّا، فإنني قادمٌ من بيئةٍ لا علاقة لها بالمُلك، ولا الممالك، وأجهل أمور السياسة، كما أن لي غايةً هنا، وهي البحث عن علاجٍ لزوجتي، والمُلك سيُعيقني عن تحقيق غايتي.

ردّ (داهي) موضّحًا:

- إن (الأورناس) لا ينشغلون إن كان الراعي أجنبيًّا أم غير ذلك، بل إن هنالك ممالك يحكمها غيرُنا، مثل مملكة (عاب-قار)، والتي يتولّى مقاليدها جنّيٌّ، كما أن الأمر لا يتعلّق بالعلم بالسياسة وكيفية إدارة المملكة، إنما المهمّ هو ثقة الرعيّة بالراعي، أمّا العلم... فهذا من اختصاص أهل المشورة والرأي، الذين سيقع اختيارهم على عاتقك، وأمّا فيما يتعلق بالدواء، فبوسعك إرسال جمعٍ من الجند؛ للبحث عنه في أرجاء الأرض على نفقة المملكة.

- وماذا لو رفضت العرض؟!

هنا... نزع (داهي) سيفه، وصوّبه ناحية رقبة (خرافة)، قائلًا بنبرةٍ صارمةٍ:

- حينها... سأقتلك! فلن أسمح لك أن تحطّم آمال رعيّة هذه الأرض، بعد أن منحوك ثقتهم.

لا يدري (خرافة) إن كان جادًّا فيما يزعم، أم هي محاولةٌ منه لإقناعه! بينما قال له (هادن):

- اقبلْ بالأمر، وكلنا معك.

قال (خرافة) مستسلمًا:

- سأقبل... لكن... لديّ شرطٌ!

قال (داهي):

- كما تشاء.

- أن تلبث هنا بالمملكة؛ لتعينني على هذا العبء.

- لا يسعني ذلك، فإنني لا أطمح إلى الظهور في العلن.

- ماذا لو كان الأمر بصورةٍ غير رسميةٍ؟

تعالت الأصوات بالموافقة، ليجد (داهي) نفسه مرغمًا على القبول، قبل أن يخرج سيفه مصوّبًا مجدّدًا نحو (خرافة)، قائلًا:

- موافقٌ... لكن... بشرطٍ!

- كما تشاء!

- إن مات أحد الرعيّة جوعًا، فسأقتصّ منك.

شحب وجه (خرافة)، قبل أن يقول (نصال) محتجًّا:

- كلّا! ليس الأمر هكذا.

تعجّب (خرافة) من دفاع (نصال) عنه، والذي دنا منه شاهرًا سيفه، قائلًا:

- بل إن جاع أحد الرعيّة، لأقتلنّك بنفسي!

ازداد شحوب وجه (خرافة)، ليقول محرجًا:

- على الأقلّ... امنحوني فرصةً؛ لأخلد إلى الراحة، بعد صراعنا مع الملك (أسدان)!

التفت (نصال) ناحية (داهي) متعجّبًا، قبل أن يقول الأخير موضّحًا:

- إنه قادمٌ من بيئةٍ لا علاقة لها بالمُلك، ولا بالأوضاع السياسية، ولا حتى بتوابع الثورات.

تساءل (خرافة)، وهو في حيرةٍ، قائلًا:

- إلى ماذا ترمي تحديدًا؟

أجاب (داهي) مشفقًا:

- إن سائر ممالك الأرض السابعة ستعلن الحرب على هذه المملكة.

- لماذا؟! لا تقل لي إنهم يثأرون للملك (أسدان)! فما رأيت إلا علاقاتٍ فاترةٍ بين الممالك.

- ليس للأمر علاقةٌ بالصداقات بين الممالك، بل إن ثورة الرعيّة إن نجحت وتحسّنت أحوالهم، فإن رعايا الممالك الأخرى ستحذو حذونا، لذلك فممالك الأرض السابعة ستتّحد معًا؛ لوأد هذه الثورة في مهدها؛ حفاظًا على عروشها.

وتابع قائلاً:

- لا يَغُرَّنَّكَ مدى يسر معاركنا ضد المملكة، وذلك من جراء خيانة المكلف الذي تلى (يحيان) والد المكلف (نصال)، ولم يعدُ عن كونه جاسوس يعمل لصالح الملك (زاد-أبان) أشد الأورناس شراً ودهاءً، غرضه اضعاف جيش المملكة حتى تقع تحت سلطانه، وما حال دون ذلك سوى المكلف (نصال).

التفت إليه (نصال) مشدوهاً، فأنى له الإحاطة علماً بأسرارٍ تم اسدال الستار عليها، خاصةً الضُعف الذي اعترى جيش المملكة.

في حين أدرك (خرافة) أن الأمر لم ينتهِ! بل... قد بدأ للتوّ!

جذبه (داهي) ناحية شرفة حجرة الملك، قائلًا:

- يتوجّب عليك أن تبرز لهم؛ فقد طال انتظارهم.

ظلّ يرافقه... حتى انتهى بهما المطاف إلى سياج الشرفة، وبمجرّد أن وقعت أعين الرعيّة على الفتى، حتى رنّت الهتافات، تزامنًا مع رفع (داهي) ذراع (خرافة) عاليًا، قائلًا بصوتٍ مرتفعٍ؛ كي يصل إلى مسامع الفتى وسط صخب الهتاف:

- إننا إن حاربنا الفساد، وقُمنا بتعيين الأصلح منهم، وأنفقنا أموالهم لصالحهم، حينئذٍ سأضمن لك أن ترى بعينيك مملكةً عظيمةً بحقٍّ.

التفت إليه الفتى، لتقع عيناه على ابتسامة صادقةً لمعت بثغر (داهي)، ليُبادله بابتسامةٍ متكلّفةٍ مصطنعةٍ، ولسان حاله يقول: "ما الذي جرف بي إلى هذه الهاوية؟! إن جلّ ما أرنو إليه هو العثور على علاج داءٍ ألمّ بزوجتي! لم أطلب ملكًا، ولم أسعَ إلى جاهٍ، مالي أنا وشؤون هؤلاء القوم؟!"

***

وبقاعة الطعام... داخل القصر الملكي... بمملكة (بير-ماس)... بينما كان ولي عهدها يلتهم أصنافًا من الطعام بنَهَمٍ، إذ دخل عليه أحد الحرس، وبمجرّد أن دنا منه، حتى همس في أذنه ببعض العبارات، ليقول الأمير (رشاد) بضجرٍ:

- وما الذي يبتغيه ذلك الصبيّ الأهوج؟

عاد الحارس يهمس في أذنه، لتلمع عينا الأمير (رشاد)، ويقول:

- أحسِنوا ضيافته؛ لعلّنا نستعين به في تخليص مملكته منهم.

ثم أمر بإعداد المزيد من الطعام، بعد أن فتحت شهيّته، في حين ألقى الحارس نظرةً مشفقةً إلى مقعد الأمير (رشاد)، والذي بالكاد يتحمّل بدانته المفرطة!

بينما انهمك الأمير يفكّر في نفسه: "إنها فرصةٌ سانحةٌ أن أضمّ مملكة (بارانية) إلى مملكتي، وبعدها أتخلّص من وليّ عهدها الأحمق، عليَّ تدبير ذلك سريعًا، قبل أن يسبقني الملك (زاد-أبان)".

أمّا داخل مملكة (عاب-قار)... حيث اعتلى على كرسيه جنيٌّ رأسه رأس ذئبٍ مفتول العضلات، مشغول البال، إذ دخل عليه أحد جنده، قائلًا:

- مولاي قائد الجند المقاتل (آوي بن آوى)، لديَّ أنباءٌ تتعلّق بمملكة (بارانية)، إذ سقطت على يد حفنةٍ من المزارعين.

قال وقد لاحت عليه أمارات الضجر:

- كان هذا أمرًا متوقّعًا، لذلك نصحت مليكنا ألّا نشغل بالًا بأمر مملكتهم.

قال الجنديّ بحرجٍ:

- كما وردنا أن قائد الثورة هو من الإنس! وسيتمّ تنصيبه ملكًا عليهم!

هنا... نهض من مقعده، وكاد وجهه ينفجر غضبًا، ليسأل:

- أقلت إنسي؟

أومأ الجنديّ رأسه إيجابًا، ليعوي (آوي)، قبل أن يهتف:

- أعدّوا جيشًا؛ استعدادًا لحربٍ تفني تلك المملكة، في حين سأتشاور مع الملك أبدي له دوافع إعلان حربنا عليهم.

لم يكن ليسمح بفكرة وجود إنسيٍّ على الأرض السابعة، منذ أن قضى ملك الإنس على العديد من ممالك الجنّ، وأسر منهم أعدادًا، بل الأدهى من ذلك هو سجنه لأميرةٍ من أميرات مملكة (عاب-قار) داخل حجرةٍ معزولةٍ عن الزمان والمكان.

***

وبالعودة إلى العاصمة الملكية... بدار الصحة... حيث استلقت فتاةٌ فاقدة لذراعها اليمنى، تمّ تضميد عدّة مواضع من جسدها؛ بسبب إصاباتٍ جسيمةٍ ألمّت بها، وأمام فراشها، تواجد المكلّف (نصال)، الذي قال بلوعةٍ:

- ماذا فعلوا بكِ يا (أرزجال)؟! ماذا فعلوا بكِ يا حبيبة القلب؟!

مجرة التاجي الثالث

التفتت إليه بوهنٍ، وهمَّت أن تُجيبه، لولا أن بادرتها إحدى المحظيات قائلةً:

- كان ذلك صنيع الأمير (سادان)، كلما امتنعت عنه، عذّبها بالضرب والجلد، وبعد عدّة أشهرٍ من الامتناع عنه، تحوّل إلى بتر أط...

قاطعها مشيحًا بيده، قائلًا:

- حسبك!

ثم ربت على ذراع (أرزجال) السليمة قائلًا بنبرةٍ رقيقةٍ:

- ما إن تشفى جراحك، حتى نتزوّج.

ردّت بصوتٍ مختنقٍ واهنٍ تسلّل من بين براثن آلامها:

- أتتزوّجني؟ أم تتزوّج ما بقي منّي؟!

- لا أحد يكمل نقصي عداكِ.

قالها وهو يقاوم رغبته في البكاء! ويداه تعانقان يدها، في حين لاح شبح ابتسامةٍ واهنةٍ بثغرها دون أن تلاحظ بركانًا ثائرًا بين طيّاته، يوشك أن ينصبّ حميمه على شخصٍ بعينه، على شخصٍ لو أدرك ما ينويه (نصال)، لآثر الموت على ملك الأراضين السبعة.

تزامن ذلك مع حفل تنصيب (خرافة) ملكًا داخل دار الضيافة، والذي عمل جاهدًا على مواراة غضبه وتبرّمه؛ من تكليفه بدورٍ لا يُجيده ولا يطمح له، وبين جنبات عقله تراقصت أسئلةٌ لا يزال لم يعثر لها على إجابةٍ:

"إن لم تكن المرأة التي صادفها بالغابة هي (دلنارن)، فمَن تكون إذًا؟ متى سيسمح له (آرات) بزيارة الحجرات؟ ومتى سيجد الوقت الكافي للسفر في خضم هذه المعمعة التي غرق بين طيّاتها؟ وما سرّ تلك الدوابّ المضيئة؟ ولماذا لم يرها أو حتى يسمع بها أحدٌ؟ ولماذا صبّت الدوابّ جام اهتمامها على

زوجته متجاهلةً له؟ والسؤال الأهم: أسيعثر على علاجٍ أجمع الكل على عدم وجوده؟!"

ظل غارقًا في أعماق هواجسه... متجاهلًا الحفل المتواضع البسيط، وهتافات الجماهير، ودموع (هادن) و(ميرمان)، وبسمات (ذهيل) الفخورة، وشرود ذهن (داهي)، والذي انصبّ جام تفكيره حول تعويض الرعيّة عمّا قاسته من سنوات جورٍ وضيمٍ، قبل أن ينتابه هاجسٌ بدنوّ الخطر؛ فخارج هذه الدار وخارج حدود المملكة خلف جبالٍ شاهقةٍ أحاطت بها، تقع ممالك تحفّزت جيوشها، وهي على أهبة الاستعداد للزحف نحو مملكةٍ لم تعد تُسمّى بمملكةِ (بارانية)!

تمّ الكتاب الأول بفضل من الله